رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المكتبة الأندلسية

كتاب التبيان

عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة

تصنيف
الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس

حرّره
الدكتور علي عمر

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كتاب التبيان

عن الحادثة الكائنة
بدولة بني زيري في غرناطة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المكتبة الأندلسية

كتاب التبيان

عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة

تصنيف

الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس

حرّره

الدكتور علي عمر
بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعتي المنيا والإمام بالرياض

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٥٩٢٣٦٢٠ - ٥٩٣٨٤١١ / فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٨٧٦٨
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977-341-268-7

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

المؤلف ونسبة كتاب التبيان إليه:

هو عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس بن حَبُوس الصِّنهاجى: آخر ملوك غرناطة، من الدولة الصنهاجية، فى أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وليها بعد وفاة جده باديس بن حبوس سنة ٤٦٥هـ، واستمر فيها إلى أن هاجمه يوسف ابن تاشفين وتغلب عليه سنة ٤٨٣هـ، وأخذه معه فى عودته إلى مراكش، وضم إليه أخًا له اسمه تميم، وأنزلهما بالسوس الأقصى، وأقطع لهما إلى أن هلكا، فاضمحل ملك «بلكانة» من صنهاجة ومن إفريقية والأندلس أجمع.

وهو صاحب كتاب «التبيان» الذى نقدم له اليوم، وهذا الكتاب رآه النباهى مؤلف «تاريخ قضاة الأندلس» ونقل عنه، وسماه النباهى ص ٩٣: «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» ثم نقل عنه بعض الأخبار، ونسبها إلى الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس هذا.

ثم كرر النباهى النقل عنه مرة أخرى فأورده فى ص ٩٧ بقوله: ومن الكتاب المسمى «بالتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» تصنيف أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، وقد تكلم فى أمر المرابطين، فقال ما معناه: «إن أمير المسلمين يوسف بن تاشُفين، لما استقر بسبتة، يروم عبور البحر برسْم الجهاد فى الأندلس، وجه إليه الأمير عبد الله المتقدم الذكر، قاضيه ابن سهل، رسولاً... إلخ».

موضوع كتاب «التبيان»:

كتاب التبيان عبارة عن مذكرات فى ترجمة حياة الأمير عبد الله بن بلكين وحوادث عصره، وهو عصر ملوك الطوائف، ويتناول فيها مقدم بنى زيرى إلى الأندلس، وإمارة والد جده حبوس بن ماكسن، ثم إمارة جده باديس بن حبوس، وحوادث عصره، وحروبه وسِيَر ملوك الطوائف المعاصرين، ومقدم المرابطين وتدخلهم فى شئون الأندلس، ثم يتناول حوادث حياته الشخصية، حتى انتهاء ملكه واستسلامه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد كتب هذا السفر عبد الله بن بلكين أثناء حياته فى المنفى.

هذا وقد أخرج لنا الأستاذ ليفى بروفنسال هذا الكتاب بعنوان «مذكرات الأمير عبد الله» وطبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

أما نحن فى طبعتنا هذه فقد آثرنا التسمية الصحيحة والحقيقية لهذا الكتاب، وهى ما صرح به المؤرخون القدامى الناقلون عن كتاب الأمير عبد الله.

د. على عمر

القاهرة فى فبراير سنة ٢٠٠٦م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ المصنَّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصِّه هنا ـ وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن ـ سبق أن عُرف لدى كلِّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء، وعلى الأخصّ العهد المسمَّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ولقد نشرتُ منه، فى فترتين، أولاً ثلاث قِطَع، ومِنْ ثمَّ قطعتين واسعة كلَّما اكتُشف شيءٌ منها، وذلك فى مجلّة «الأندلس» الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ - ٣٩ وفى عام ١٩٤١، وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية، بعد فترة وجيزة، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديقى الأستاذ، غرسية غومس، للمجموع الذى أُلِّف بين أجزائه اليوم، ما عدا الصفحة الأولى، وفراغًا طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب، وستصحب هذه الترجمة بمقدِّمة مفصَّلة وبمجموعة من الملاحظات التأريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطَّلع بتفصيل على المؤلَّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتأريخية.

سأقتصر هنا إذًا على بعض الإشارات الأساسية، فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكًا أو شخصيات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم، فكتبوا مُذكِّراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة، إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق، فإذا وُجد فى الغرب الإسلامى بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) فلا يعرف

من هذا الصنف التأريخى إلا مصنَّفٌ واحدٌ يذكر، وهو كتاب البَيْذَق صاحب المهـدى ابن تومرت مؤسِّس المُوَحِّـديّة، وقد وفِّقتُ منذ أكثـر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال فى إسبانيا ظلَّ مجهولاً إلى ذلك الحين، وإنَّه لتوفـيق آخر ليس أقلَّ سعادة من الأوَّل، أن أحـصل، بعد سنين طويلة، وجزءًا بعد جـزء، على مصنَّف لترجمـة شخصية لا يـقلُّ أهمِّيّة عن الأوّل، وهو مصنَّف الأمير عبد الله، الذى كانت كراريسه مبـعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهملة منذ ستـة قرون على الأقل، فى جناح تابع لمسجد القرويين بفاس.

وقد كنا نعرف، بفضل إشارة واردة فى كتاب «الحُلَل المَوْشية» المجهول المؤلِّف، أن الأمير عبد الله كان قد دوَّن تأريخًا عن الدولة التى أسَّستها أُسرتهُ فى إسبانيا والتى كان هو آخر ممثِّليها، وعندما أصدرتُ فى ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتـعلق بالأندلس من كتاب «أعمـال الأعلام» لابن الخطيب، جلبت انتباهى الفقرة الآتية (ص ٢٩٩): «وقفتُ على ديوان بخطِّ عبد الله بن بُلُكِّين ألَّفه بعد خلعه بمدينة آغمات وقرَّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله، أتحفنى به خطيبُ المسجد بآغـمات، رحمه الله» وبفضل إشارة أخرى وردت فى نفس الكتـاب، نعرف أنَّ ابن الخطيـب قد زار آغـمات وزار قـبر المعـتمد بن عبّاد فـى سنة ٧٩١ (١٣٩٠) فيمكننا أن نتسـاءل بأن المخطوط الذى استعـملناه، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة، فهـو على الأقل نسخة ثانية كُتبت عن الأصل وقُبلت معه، كما تثبت ذلك الإشارة المتردِّدة: «صحَّ، أصْلٌ».

وأُخيراً، اكتشفت لى صدفة من صدف المطالعة العنوان التامّ لمذكّرات عبد الله: ففى فقرة من كتاب «المرقبة العليا» (ص ٩٧) وهو مصنَّف فى مراتب القضاء بالأندلس لمؤلّفه المشهور ابن الحسن النُّباهى (وقد نشرته فى القاهرة سنة ١٩٤٨) يتبيَّن أنَّ كتاب عبد الله كان موسومًا بـ «التِّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زِيرِى فى غرناطة».

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلام عمّا يُقصد منه: فالمؤلِّف الذى عُزل ونُفى قصد إلى سرد تأريخ دولته وظروف عزله.

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا، وأيَّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه؟ فلأكتَفِ هنا بتلخيص ما نشرتُه عنه أخيراً فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية، ج ١، ص ٤٥):

كان عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس حَبُوس بن زِيرِى الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة التى أسَّسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بنى زيرى البربرية الصِّنهاجيّة، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، وُلِد فى سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) وعُيِّن عند وفاة أبيهِ بُلُكِّين سيف الدولة فى عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كولىٍّ عهد لجدِّه الأمير باديس بن حَبُوس، ثمَّ اعتلى بعده عرش غرناطة فى سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) بينما أصبح أخوه تميم المُعِزّ مستقلا فى مالَقة، ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات فى داخل مملكته، والمشادات المسلَّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين، والمواطآت مع ملك قشتالَّة ألفُونْش السادس، وساهم عبد الله فى وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لِيِّط عند تدخُّل المرابطين فى إسبانيا، لكن اتفاقاته مع الملك النصرانى أدَّت

به إلى ضياع عرشه، فقد جاء الأمير المرابطى يوسف بن تاشُفِين لمحاصرته فى غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه، فعُزل عن ملكه وأُرسل إلى المنفى بمدينة آغمات، فى جنوب المغرب الأقصى، حيث انتهت حياته.

أما كتابة عبد الله لمذكِّراته، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية فى آغمات، وإنَّ هذه الترجمة الشخصية تكوِّن أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلَّها تحويرًا، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة، وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التى يحاول فيها المؤلِّف أن يبرِّر موقفه السياسى أمام الأخطار التى كانت تهدِّم مملكته، فإنَّ كتاب «التبيان» يقدِّم لنا سَرْدًا مفصَّلاً جدًا لجميع الحوادث التى أدَّت إلى استيلاء ألفونشُ السادس على مدينة طُلَيْطُلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخُّل المرابطين فى شبة جزيرة إبريا فى السنة التالية.

كما أنَّ مذكِّرات عبد الله هى وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التأريخ التى أُلِّفت من بعد، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعى والسياسى فى الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها، وعلى التقدُّم الذى حقَّقه فى هذا الوقت أنصار استرجاع إسبانيا المسلمة فى النصرانية، ومن جهة أخرى، إنَّ قصَّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضًا أمرٌ جديدٌ وهامٌّ جدًا، ويجب إذًا أن نعتبر مذكِّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض، وذلك ابتداءً من العصر الذى تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان، وإنَّ هذه الفترة التى سأصِفُها بحول الله فى الجزء الرابع فى كتابى «تأريخ إسبانيا الإسلامية» ستوَضَّح بصورة أوسع

وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنية لا يرتاب فيها.

* * *

إن مخطوط مذكّرات عبد الله يحتوى فى مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتيمتر) وهو مسجَّل فى مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦، خطُّه من الخطّ المبسوط الأندلسى، والنسخة على العموم فى حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جدّا.

وقد أرفقنا مع النص ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب «البيان المغرب» لابن عِذارِى المراكشى، ومن كتاب «الإحاطة فى تأريخ غرناطة» لابن الخطيب، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيَّتين هامَّتين فى دولته، وسيجد القارئ خريطة تساعده فى الوقوف على أهم المناطق الجنوبية فى إسبانيا مما جرى ذكرها فى النص.

أودُّ فى الختام أن أنبِّه قرَّائى الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات فى تأليف الأمير عبد الله إلى أن لغته، مع أنها صحيحة، قد تأثَّرت إلى حَدٍّ باللغة العامية الأندلسية، وأنه يلزم الرجوع بصورة خاصة إلى «ملحق القواميس العربيَّة» لدوزى لفهم بعض الألفاظ التى تبدو خاطئة.

وليس من الضرورى أن أنبِّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التى أُضيفت داخل النص للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن موجودة فى النص الأصلى.

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيه ١٩٥٥

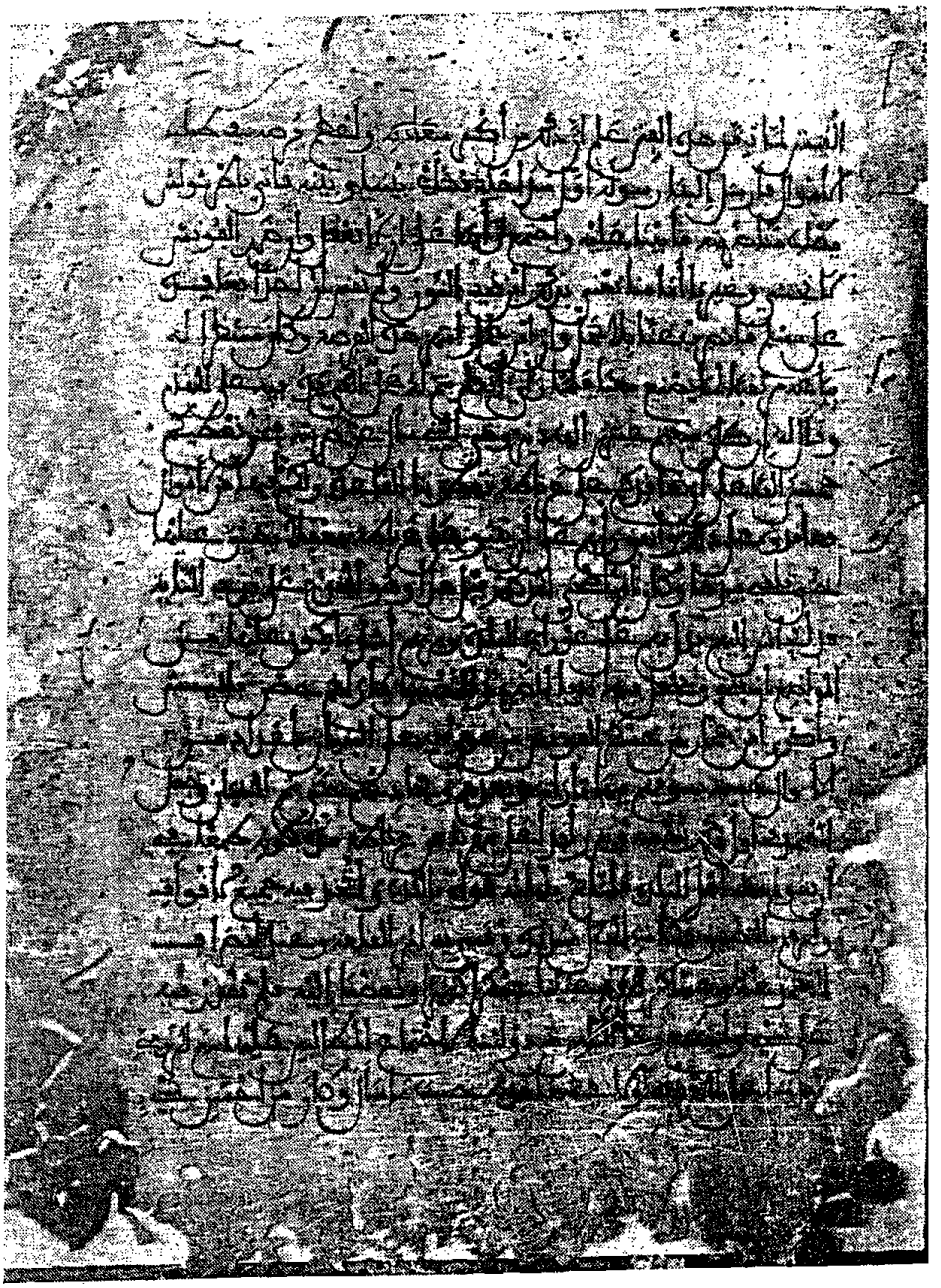

«مذكرات» الأمير عبد الله

صفحة من الأصل المخطوط

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١- القواعد التى يتعين للمؤلف اتباعها:

. . .[١] واستنباط الغريب الذى لا يعقلـه كثير من الناس، فإن ذلك يولد خشونةَ اللفظ، الذى تمجُّه الأسماع.

والكلامُ، إذا خرج من القَلْب، وقع فى القَلْب، ولا خَيْر فى رامٍ رَعِش، ولا متكلِّم هائب، فإنَّ الهَـيْبة فرعٌ [مـن] المخافة، والمـخافة فرعٌ [مـن] الحذر، ومَنْ حذر فـقد عَقَلَه، ومَنْ خاف، تكدَّر عـيشُه، ولا تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان، ويذكى بهـا الجَنان، فالنفسُ إذا منعت ما تشتهى، تُرَى مختلطة، وتصير كأنَّها بطوارقِ الخبل مختبطة.

ولا يجب على الناطِق والكاتب أن يتَّـبع هواهُ فى أَمْرِه كلِّه: فكلٌّ مفـتون ملقِّنٌ حُجَّـتَه، ولا عليه أن يرفق ذلك، فـيكون بانيًا على غيرِ أصْل وعـاملاً لغَيْر نهاية، وعسى بذلك يسعى فيمـا يُصلح غيْرَه ويُفسد حالَ نفسه، وهو لا يشعر، بل يصرف نفسـه على فرقَيْن: يسعَى فى بلوغ أمَله وإدراك مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلا بذكـره ولا غرضًا لعدوِّه، وكلُّ بيـان ما لم يكن صوابًا، فهذَرٌ.

وليس يُحْمَـدُ لواضعِ كتابٍ أو ناظمِ خَبَـرٍ أكثر من جودة التـأليف فقط، لأنَّه إنَّما وضع ما قـد سبقه إليه غيرُه، وكلُّ أحـد ينفق ممَّا عنده، وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئًا، فلو كان نطْقُ الناس إحالةَ بَعْضهم على بَعْض، ما سُمِع أحَدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ، ولا يتبرَّع فى [شىءٍ] ولكنَّ الأولَى

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨).

وليست الفائدة فيما قصَدْنا إليه ذِكْرَ خَبَرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة، أو حكاية مستغربة، أو معنًى يؤدِّى إلى تأدُّب وانتفاع، فلَعَلَّك - أيُّها المتأمِّل كتابَنا - أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تَجِده منصوصًا هُنا، فتُعْجِز واضِعَه: فليس إلا كما قدَّمناه، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون حديثًا يؤدِّى إلى القيام بحُجَّة صاحبه والاعتذار عنه من أمْرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة، فنَطَق هَذَرًا، وساعَدَ عليه أقوامًا لم يخسروا فى عرض غيرهم شيئًا، وطعنوا على غائبٍ أو ميِّتٍ لم يُحرِ الجواب عن نفسه، أو دليلاً لم ينتصر لعَرْضه.

أو أبان المؤلِّف عن نفسه حِذْقًا ومعرفةً تُذْكَر عنه وتُنشر بعده: فإنَّ ذلك من آكَد ما يجب له السعْىُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه فى تلخيصه، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء، وأنفةٌ لسوء المقال، ونشاطٌ على ترفيع الذكر، مع فتور[1] الهمة وصبوة القريحة، وإلاَّ، فالأمرُ ناقصٌ منه، واللسانُ عيىٌّ عنه.

ولا سبيل إلى اجتماع أمرَيْن مختلفَيْن فى الإنسان معًا، ولا فى غيره من جميع المخلوقات، فإنَّه، متى ارتفع أمْرٌ، نزل ضِدُّه: كالحياة، إذا ارتفعت، وجب الموت، وإذا ارتفعت الصحَّة، وجب السقم، وإذا ارتفع الكرب، وجب الفَرَج.

هكذا نسق كلُّ أمرٍ: كالعامل للآخرة محضًا، لا بُدَّ له من نقصان دنياه.

(١) فى المطبوع: «فتوه».

ألا تَرَى أنَّ مؤلِّفَ الكتاب، إن كان غَرَضُه نَظْم الكلام وسَجْع اللفظ، كان ذلك ضارّا بالمعنى، وإن أتَى به، فإنَّما يسوقه بعد تحليق عليه، وربَّما وضعه من غير شكله، وإذا تمَّ المعنَى، نقص بَعْضُ اللفظ، كما قيل: «إذا تمَّ العقلُ، نقص الكلام».

وأرَى أنَّ مساقَ الحديث فى التأليف بَعْضه لبَعْض أحسنُ خرطًا وأفضلُ نظمًا من تقطيعه، ولهذا نُرِيدُ إيرادَه كالحديث «[فالحديث] ذو شُجون» ونضرب المَثَل لبَعْضه ببَعْض: فيتَّفق إيرادُه دفعةً واحدةً، ونصُّه على أكْمَل ما يمكن.

٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به:

ومن كان لا يعرف دنياه التى نشأ فيها، وأدركها ببصره وجميع حواسِّه، فهو لآخِرته أجْهَل [آخرته] التى لا تُعرف إلا بالتفكُّر والاعتبار، بعد ما حض عليه الكتاب وأتى به الرسول - ﷺ - وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ (الرعد: ١٩) وما يصلح لنفسه لا يصلح لغيره، وأصل العلم كلِّه معرفة الإنسان بدينه، و [يقينه] بمَعَاده، وأنَّه لم يُخلَق عبثًا، فإذا صحَّت معرفتُه بذلك، كان أحْرى أن ينتفع به لدنياه التى يشاهِدُها معاينةً.

والرجالُ ثلاثةٌ: رجلٌ عَلِمَ فَعَمِل: فذاك الذى يُدْعَى فى الملكوت، ورجلٌ عَلِمَ ولم يَعمَل: فذاك الذى يُضاعَف له العذاب، ورجلٌ لم يَعْلم ولا عَمِل: فذاك، إن مات، يموت مِيتةً جاهليَّةً، ولا تصحُّ له معرفة دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافِرٍ ولا مُعَطِّل، فإذا حَسُن تمييزُه عن الصنف المُلْحِد،

عرف فَضْلَ ما هو عليه، فاتَّبع على يقينٍ وجودة نَظَرٍ، لا باستهزاء ولا تقليد، فيعجز ويشكُّ.

وأمَّا من كان من الأصناف المُلْحِدة، غير أهل الكتابَيْن من المُشركين ومن سِواهم، فالضلالُ منهم بيِّنٌ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش، وما ما يزعم أهل الكتاب من أنَّهم على الحق، ولهم الدين القويم، وأنَّ قولهم أخلَّ [بغيره] فالردُّ عليهم فى ذلك أن يُقال لهم: «إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ، فلا يكون هذا القياس إلاَّ بأن تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء! ألم تكن قبل موسى شرائعُ وكُتُبٌ مُنزلةٌ وأنبياء عدَّةٌ؟ فلو كان على مذهبكم، لا ينسخ دينٌ دينًا، لم يجبْ لكم أنْتُمْ شيءٌ!».

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤) وقد كانت الضلالة بيِّنة فى الفترات من عبادة الأوثان وتعبُّدهم بعضهم لبعض، ما لم يكن فى حكمة الله ومشيئته أن يترك المرءُ ودينه، ولا يمهل من يعبد سواه حتى بعث محمدًا ـ ﷺ ـ بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا، فصدع بالقرآن، وجاهد فى الرحمن، وسنَّ السُّنَن، وأمر بالمعروف، ونهى عن المُنْكَر، وكان فى ذلك الزمان قد ضلَّ أهلُ الكتاب، واختلفوا، وردَّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحَّ لفرقة منهم شريعةٌ مع الأخرى، وكانوا كما...[1] الله تعالى، فختم الله الرسالة بنبيِّنا ـ ﷺ ـ ليبيِّن له ما فرضه عليهم، ويُظهره على الدين كلِّه! إن يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾ (المائدة: ١٩) وقال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) فالحجَّة عليهم ظاهرة على ما بيَّنَّاه فيما يعطى العقل

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والقياس، وأمَّا تِبْيان نبـوَّته ـ ﷺ ـ فى الآيات التى جرت على يده، فأكثر من أن توصف.

وإذا قتلتَ أحَدَهم ببعض هذه الحُجَج، فمن يـنتحل منهم فِقْهًا فى علمه وسدادًا، يرجع إلى أن يقول: «إنَّما كان رسولاً إلـى العرب!» فتأمَّلْ تناقُضه، وكف أثبت له الرسالة، ومـتى وجب إثبات الرسالة، فقد أوجـب على نفسه التصديق فى كلِّ مقالة وما أتى به، ثُمَّ الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨) وقال ـ ﷺ: «بُعِثْتُ إلى الأسْوَد والأبْيَض والحُرِّ والعَبْد» فهم لا يصحُّ لهم الإنكار جملة ولا الإيمان بأمْرٍ دون أمْرٍ.

٣- قصور القياس دون عون من الوحى:

وقد كانت معرفة البارئ تعالى بالعقل اضطراراً لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخـرف: ٨٧) ولو تُرِك الناس فى ذلك على قيـاسهم وما تدركه عـقولهم، لكان خـوضهم فى هذا المـعنى قليلاً، مسـتـضعـفين، لا يطيقون نصر ما عُهِدَ إليهم ممَّا يريدون من الأمر المعروف والنهى عن المُنْكَرِ ولغلب جُهَّالَهم وعامَّتَهم التظلُّمُ، ولم يلتـفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه، فكانت النعمة ممَّا أراد الله من صـلاح العالم أن بعث فيهم الرُّسُل، ليكون ما أتوا به دواء لِمَا فى الصدور وهُدًى ورحمةً، فـمن عرف الله قبل بالعقل، أتمَّ عليه نعمته، فقد عرَّفه نفسه باليقين، وبشَّره بالثواب، وأنذره العقاب، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامَّة الناس طوعًا أو كرهًا.

ألا تَرى أن لا شىء من أُمـور الدنيـا يصحُّ بـالظنِّ دون اليـقـين؟ فكيف الآخـــرة التـى لا يوقن...[1] الذين أبانوا عنهـا، والظنُّ أكْـذَب الحـديث

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والشرع، ومن تقلَّده بطل [رأيه] وليس حكْمُ البارئ تعالى ممّا يجرى على قياس: كيف؟ وهو خالق القياس، وهو واهب العقل الذى به أدركنا جميع الأشياء، ألا تَرى أنَّ النفس لم يقف أحدٌ منها على حقيقة؟ ما هى إلاَّ اختلافٌ بين العلماء الشرعيِّين وأهل الطبيعة والدَّهْريَّة، والحقُّ إنما يكون فى طرف واحد، فهم يخبطون خَبْط عَشْواء وإذا قِسْتَ على الحقِّ، فإنما تجده عند أهل السُّنَّة لما بأيديهم من القرآن وحديث الرسول ـ ﷺ ـ فهم يتكلَّمون على أصل، وغيرُهم على قياس: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦).

وترى من المُلْحِدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول: «إنَّما أعلم ما تُدْرِكه حواسِّى من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابس، وما أدركتُه بعقلى مما كان، ولا أعلمُ ما يكون، وإنما أنا آنُ الآن» فالردُّ عليه أن يقال له: «أتدرى بمَ عرفتَ هذا كلَّه؟» سيقول: «بالنفس، وعلمتُ النفس بالعقل الذى هو أرفع الدرجات» فنقول له: «إذا عرفتَ بالعقل ما أنتَ فيه، لم يكن لك شىءٌ متقدِّم تعرف به العقل، ولا استطعتَ لنفسك، ولا علمتَها قبل، فتركب فيها عقلاً وتدبيراً، وواهبُ العقل الذى خلقك ودبَّرك كيف شاءَ، قادرٌ على أن يعيذك ولا يجعلك هملاً، ولم يخلقك عَبَثًا! ولو أنك تعلم ـ أيُّها الشقىُّ ـ أن العقل، إذا جحدتَ به آيات ربِّك، كَلٌّ عليك وحَمْلٌ يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأحقاف: ٢٦) وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (يس: ٧٨) وقد أتت الرسُل بالآيات التى هى خارجة عن حكم الطبيعة ليكون

ذلك فى العالم أشدَّ استغرابًا وعجزًا يـؤمن به أكثرُ البَشَر، وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قـد غاب عن العقل والقياس، ولا يعجـز الله فى قدرته على ما يشاءُ جاحِدٌ كافِرٌ.

كقول أهل الطبيعة: إنَّها هى تُدَبِّرُ كلَّ شىء، وإنَّها أعلم [من] كلٍّ عليم وأحكـم [مـن] كلٍّ حكيم، فنجع من فعلها فى الأبدان مـا لا تُدركه الأطِباءُ باجتهادها.

وقال غيرُهم: «الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شىءٍ لا يُدرَى ما هو» فالحُجَّة عليهم: أهِيَ طبـيعةٌ واحـدةٌ، أم طبائعُ كثـيرةٌ؟ بل، سيـقولون: «لكلِّ شىء طبيـعةٌ، فأرى أضدادًا لا تصحُّ لأحـدها إلاهيَّةٌ، وغَيْـرُها مُناقِضٌ لها، وهى كانت حُجَّة إبراهيم على قومه وردَّه على من قال: إنَّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها، فـقال ـ عليه السلام: «أرى الظِّلَّ يفعل ضدَّ مـا تفعله الشمس، والخالقُ لا يُضادُّ!» فأثبت الوحدانيَّة بالحُجَّة القاطعة الواضحة.

وقد ذُكِـر عن سُقْـراط، وكان فى زمن جـاهليَّة، أنه قال، بـما أوتى من الحكمـة، مـخـاطبًا البـارئ عـزَّ وجـلَّ: «يا أزَل الأزَل! ويـا أوَّلَ الأوائـل! ويـا قـديمًا! لم يَزَلْ مِنِّى نارُكَ لعِـلْمِى أنَّ هذه المخلوقـات من آثارك؟» ولم تكن معه فِئَةٌ يتَّبعونه على قوله، ولا يعقلون ما قال، حتى أمروا بقتله.

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَه أنَّ شرعًا لا يتم بقياس العلماء وخواصِّ الناس دون الرسالة، على أنَّه لا يشكُّ ذو عـقل أنَّ المخلوقات قد جـعلها الله عِلَلاً بعضـها لبَعْض، ولم يـخلقها عَـبَثًا، ولكلِّ عِلَّة عِلَّةٌ إلى أن يـنتهى ذلك إلى البارئ عزَّ وجلَّ، فهو الذى لا فوقه شىءٌ، وهو قول إفْلاَطُون لموسى ـ عليه

السلام ـ إذ قال له: «يا أخى؟ رَسولُ مَنْ أنتَ؟» أراد استخبارَه، فقال له موسى: «أنا رسول العِلَّة» فقال له إفلاطون: «ما العِلَّة؟» قال: «لا أدرِى! ولو كنتُ أدرِى، لكنتُ أنا العِلَّة! إنَّما أنا متَّبع!» فقال له إفلاطون: «اذهبْ وبَلِّغْ ما شئْتَ! فالآن صحَّ عندى أنَّك رسولٌ حقّا!».

وكذلك الجُزْءُ لا يُحيط بالكُلِّ، والكلُّ مُحيطٌ بجميع الأشياء، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وكذلك أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنَّها مخلوقةٌ مصرَّفةٌ لما [فيه مصلحة] العباد، والعاقل منهم يقرُّ بذلك، غير أنَّه نُهى عن النظر فيها الاجتهاد فيما نُهى عنه، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة، والفسادُ أسرعُ من البنيان، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء «وَدَعْ ما يُريبك إلا ما لا يُريبُك».

وَهُمْ يقولون: إنَّ فيها سعودًا ونحوسًا، إنَّما فى الفلك سعدَان ونحسَان، يعنون بها المُشْتَرِى والزُّهَرة وزُحَل والمَرِّيخ، ونَيِّرَان، وهُما الشمس والقمر، ولا يصحُّ لعالِمٍ أن يتكلَّم عليها إلا بمزج بَعْضِها ببَعْضٍ، فكيف يكون لها الحكمُ، وهى أضدادٌ، والحَاكِمُ لا يضادُّ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كلُّه؟ وهو مصرِّفُ الدهور بما يشاءُ! لا إله إلا هو، العزيز الحكيم!.

وليس فى العالم أمرٌ يثبت، وعلى هذا بُنيت الدنيا، وكذلك الدُّوَل والمِلَل: كلٌّ يأتى فى أوانه، ولا يتعدَّى وقته، والدينُ صلاحُ العالَم، ولا عدْلَ إلاَّ به، والمُلْكُ يعضده ويحميه، وهو قوام العالَم على ما رتَّب البارِئ عزَّ وجلَّ.

٤- ضرورة التعليم والتجربة:

واعلَمْ أنَّ العقل محتاجٌ إلى التَعلُّم، ولا يستحكم تَعَلُّمٌ إلاَّ بتَجْرِبة، ولا تتحكَّم تَجْرِبَةٌ إلا ما كان فيها بعض النكد والإشغاف، فالإنسانُ على ما ضرِى وعلى أن السعيد مَن اتَّعَظَ بغيره، لكن من شأن الإنسان التسويف و«لَعَلَّ» و «عَسَى» فإذا احْتِيجَ فى ذاته، أعقبه ذلك يقظةً وحنكةً، وكذلك من أَحْوَج إلى نفسه كأنَّما لا يتَّكل على غيره، فينبغى للعاقل أن يعمل نفسه فى رياضة ذلك، والتمرُّن فيه، إن لم يحوجه الدهر، وإلا: فليتعب ذهنه، ويشغل باله بالفكرة فيه، خوفًا أن يُضطرَّ إليه، وإنَّ الدعة غير دائمة، فإن احتاج إلى نفسه، وَجَدَها، وإن استغنى عنها، عرف فَضْلَ ما هو فيه، وكانت لذَّتُه به أشد تمكُّنًا: فإنه لا يعرف قدْرَ الخير مَنْ لا يعرف الشرَّ، وإعمال الفكرة فى هذه المَعانِى كالتجرُّب بها: فإنَّ بالاهتمام بما لم يكن بلاءٌ فى النفس كائنٌ، وذلك البلاء مؤدِّبٌ، واعِظٌ، نافِعٌ، مضمحلٌّ، خيرٌ من بلاءٍ موجع حال.

وقيل: ليس العلم بكثرة الرواية، إنَّما هو نورٌ يضَعَه الله فى القلوب، ولا عذر للإنسان فى أن يجهل علمًا يليق به، لقول الله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣) ومن حُسْنِ إسلام المَرْء تَرْكه ما لا يعنيه، وليس كلُّ ما حضَّ عليه ونهى عنه على العموم، بل لذلك كلِّه حُكْمٌ يحسنه العاقل، والجاهل لا يحسنه، وإن جهد جَهْدَه.

٥- التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنَّا ـ مَـعْشَرَ أهـلِ بيتِ المملكة ـ نَرى من آكَـدِ ما نتأدَّب به إعْـمالَ السياسة فى طلب الرياسَة، والسَّـعْىَ لها بكلِّ الوجوه، وإحضارَ الأذهان، ما لَو أنَّ المُـفْرِطَ فى بعض ذلك منّا يكون أفْـقَهَ الناس فى سـائرها من العلوم، لكان عندنا ناقصًا، لا يصلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافُسُ على ذلك.

وقَتلْناها نَحْنُ عِلْمًا لرياضة أنفسنا لهـا، وما أجْرانا عليه آباؤنا، ويصَّرونا فيه من أولِّ نشأتنا.

وتلك صناعةٌ وجب تَعَـلُّمُها لضرورة الـحال، كسائر الصـنائع التى منها معايش الناس، ولا بدَّ لهم من إتيانها، ولَعَـمْرى إنَّ الوالى أكثر عِلْمًا وأحسن عَقْلاً: فإنَّ جميع عقول الناس تعرض لدَيْه، ويجرِّب فى موضعه ما لا يجرِّب غيرُه فى تقلُّبه فى البلاد، وإليه تهـدى الأخبار، ويتخاصم الناس، وعنده يقع الطلب، وترفع الحاجـات، وتقع العِنَايات، فيرى ويسـمع كلَّ يوم جديداً لم يَرَهُ أمس، وقـال عمـر بن عـبد العـزيز ـ رضي الله عنه ـ: «لَسْتُ كـخَبٍّ، ولا الخَبُّ يخدعنى!» وقيل: «فلانٌ لا يعرف الشرَّ» قال: «ذلك أجْدَرُ أن يَقَعَ فيه!».

ولما كـان المُظَفّر جَدُّنـا ـ رضي الله عنه ـ قد أوتِىَ من الدعاء والتـمييـز لأحوال الزمان مـا لا خفاءَ به، وأنَّه من آكَـد ما يَجِب له النظر فـيه ترشيحُ أحَـد بَنِيه للولاية بَعْدَه، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بتـمرينه وإعمـاله فى جميع خِدْمـته، كَىْ يتدرَّب ولا يخفى عليه من أُمـور الدولة ما يحتاج إليه فيـه نفسه، كُنْتُ ممَّن وفَّقه الله لبِـرِّه والانصياعِ لوصيَّـته، فأمر بإخراجى من المكْـتَب إلى التصرُّف

بين يديه، وقال لى ـ نضَّر الله وجهه: «مَعَكَ من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك! وهذا أولَى ما تتعلَّم! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون منِّى وما ينقضى فى دولتى أيَّامَ هذه الفِتَن، فإنَّ الزمان أشَرٌّ، والأيَّامُ أقْصَرُ من أن تُدْرِك تَعْلَم كلَّ شىءٍ يعنى به الملوكُ لأبنائهم!».

فامتثلتُ حدَّه، وأخذتُ نفسى أولاً بالتواضُع له واختصارِ كلِّ شىءٍ يَقَع منه في نفسه أنِّى أشْرَهُ به إلى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة، بل كنتُ أتأبَّى له عن ذلك، ولا أحْكُم بين اثنَيْن إلا عن مشورته ومشاركة أهل السنِّ والعَمَل من وزرائه، وأنْزِل نفسى لهم بمنزلة الابْن، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعًا ارتضونى به للخلافة من بَعْده، واتَّفق فى ذلك رأْيُهم مع رأى الجدِّ ـ رحمه الله.

ولم يكن منها نهارٌ إلا وأستفيدُ فيه فائدةً من تَجْرِبة وحُنْكة.

وما كنتُ أجهلُه من الأشياء، أجِدُ له أعوانًا من الوزراء، يعلمونني بالصواب فيه لقلَّة خِلافى عليهم وبِرِّى بهم.

كلُّ ذلك [من] الأسباب التى أذن الله من أجْلها ولايتى من بعده، وقد كان من أهل بيت المملكة مَنْ يصلح لها قَبْلى، ومعى من أَخٍ كبير وعَمٍّ وقرابةٍ أتَوَقَّعُ استهدافَهم إلىَّ وتَغَلُّبَهم علىَّ، ما لو أنْفَقْتُ مِلْءَ الأرض على كفايَة شرِّه، ما استطعتُ له، فكفانى الله تعالى ما كنتُ أتوقَّع، وأرانى الخيرة فى عاقبة كلِّ أمْرٍ كنتُ فيه أكرهُه، فنحنُ جُدَراءُ بتعداد نِعَم الله والإنصاف فى شُكْره، كما حضَّ الله عليه فى قوله لنبيِّه ـ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١).

وقد كان أبونا سَيْفُ الدولة[1] ـ رحمه الله ـ مُرَشَّحًا للمملكة، كثيراً حبُّ أبيه له، وجَمْعُه الأموال من أجْله، وتدريبُه عليه بكلِّ وَجْهٍ، وكان ـ رضي الله عنه ـ من العقل والكرم وحُسْن الخُلُق والحِلْم ما شُهِرَ به فى البلاد، واجتمع عليه محبَّة العباد، ولم يكن للمُظَفَّر جدِّنا غيرُه، فتوفِّى ـ رحمه الله ـ ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا، وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا، إن شاءَ الله.

٦- صعوبة الإنصاف التاريخى:

وأوَّلُ ما ينبغى تقديمُه ذِكْرُ دُخولنا الأَنْدَلُس، وكيفيَّة ولايتنا إيَّاها، إلى هَلُمَّ جرّا.

فإنه، متى أتَيْنا على خبر يطيب ذِكْرُه فى هذا التأليف، للمُعْتَرِض أن يقول: «هذا أحْسَنُ لو كان على أصْل يُحْمَد، وعن ولايةٍ تُرْتَضَى!» فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف، على أنَّ الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا فى مُدَّتها وأيَّام سعادتها، ولو كانت ظالمةً، فلا يقع فيها الذمُّ إلا بعد تَوَلِّيها، ولو كانت عادلةً، والناسُ مع من سبق إلا مَنْ نظر بعين العدل، لا بعين الهوى، وقليلٌ ما هُمْ!.

ولترَى أن لا شىء فى العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرَيْن لا يشوبه غيرُه، ولا يتعلَّق بالسعادة إلا كلُّ مستحسنٍ من غير تكدير، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور، وليس مع الإقبال إدبارٌ إلا تمام المُدَّة.

---

(١) هو بلكين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بن مناد الصنهاجى، الأمير الملقب بسيف الدولة ـ والد مؤلف هذا الكتاب ـ (توفى سنة ٤٥٦ هـ) وترجمته مطولة لدى لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة ١/ ٤٣٤.

ولا يتَّفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمِّه: فإنَّ رِضَى العامَّة أمْرٌ لا يُدْرَك، ولا بدَّ للوالى أن يقضى عند حُكْمه لأحد الخصمَيْن على الآخر ضرورة، فالمَقْضِيُّ عليه انقلب ساخطًا، والمَقْضِيُّ له انقلب راضيًا، وكِلاهُما يتكلَّم على شهوة نفسه، فكيف يتَّفِق إجماع العامَّة على خير واحدٍ أو مدحه؟ وإن الله تعالى كان قادرًا على أن يُسوِّى بين [أُمور خَلْقه، وجديرًا، وإن] كُيِّفَتْ، أن يرفع بَعْضَهم فوق بَعْض دَرَجاتٍ.

٧- المصادفة وأثرها فى التاريخ مثل المنصور:

وإذا اعتبرتَ أحوال هذا العالم على شىءٍ من أمر الدنيا، فإنما تجدُه كائنًا بأرقِّ سَبَب: فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذق مُمَخْرَقٍ، وإذا بَعْثَرْتَ على ما هو فيه، أَعَنِ استحقاق تصيِّر إليه، لم تختبرْ من فعاله ومقاله شيئًا يشذ عن العالم، ولا يَشِفُّ على رأى من تَزْدَريه عَيْنُك، ولأنَّ الجهل فى العامة أغلب، والباطلَ إلى عقولها أسْرع: استعظَمتْ ما هو عند اللبيب حقير، وتكلَّمَتْ على ما ظهر إليها، ولم تقِسْ عليه بعقولها، ولله ما بَطَن، وللناس ما ظَهَرَ، ولهذا تَرَى صاحب الناموس أرْفَعَ ذِكْرًا وأطْيَبَ ثناءً، وإن كان يُرائى.

وقد كان المنصورُ بن أبى عامر، على دقة شأنه قَبْلُ، ولأنه لم يكن من أهل بيت المملكة، فيستحقَّها عن الآباء، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا، قد حصَّل على عظائم بدهائه ومخْرَقته على العامَّة، مع ما هيَّأت السعادةُ له (وكان أقوى الأسباب فى سلطانه) وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنَّه مَنْ كان طالِعُه من البروج الحوت والقَوْس كان أعظم الأسباب فى سلطانه أو عقاره.

ولولا قيامُه بدعوة الخليفة، وإظهارُه الانخضاعَ له [فى جميع] ما يأتى ويَذَر إلى طاعته وإقامة أوده، وتوليته الحجابة والوزارة، وإخماله لأهل الدولة الحكَمـيَّة، وتقـصِّيهم بـالقتل، متـأوِّلاً فى ذلك أنَّ دولتَـه تصفو بـه ويقوى سلطانُه، وأنَّ فى بقائهم كـثرة الخلاف وإيثار الفِتَن وهلاك المـسلمين، حتى اتسق له مـا أمَّل، وبلغ من ذلك كلَّه الغاية القـصوى ـ ولو أنَّ أحـدًا اشتـهر ببعض ما أتى هو به دون تعلُّق بسَبَب أو إظهار طاعة [لكان قُتِلَ] من ساعته، ولو كان من أهـل بيت الخلافة ـ إلى أن ورث الأمـر ابنه من [بعده، فـسار المنصور] بأحْسَن سيرة وأحْمَد طريقة، وكانت له فى بلاد العدوِّ فتكات، نال الإسلامُ فى أيَّامه عِزّا ما كان بالأَنْدَلُس [مِثْلُه] وأذلَّ ما كان النصارَى عليه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثانى

الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة، أيام زاوى بن زيرى وحبّوس بن ماكسن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٨- الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور

قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دول الطوائف:

وتوقَّـع [المنصـور] من أجناده الاتِّفاق على بعض مـا يخلُّ بدولته، إذ كانوا صِنْفًا واحدًا، وتألُّبـهم على معصية أمره، متى أمر بمـا أحبُّوا وكرهوا، فنظر من ذلك بعـين اليقظة، وسـوَّل له رأيُه أن تكون أجنادُه قبـائلَ مُخْـتَلفةً وأشْتـاتًا متَـفَرِّقـةً: إن همَّ أحدُ الطوائف بخـروجٍ عن الطاعة، غـلبها بـسائر الفِئَات، مع احتياجه إلى تَقْـوية عسكره، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلُّل بلاد العـدوِّ وتدويخهـا متى شـاءَ، فاسـتجلب من رؤَسـاء البَرْبَر وحُـماتـها وأنجادها مَنْ بلغه فـروسيَّتُه وشدَّتُه، وتسامَعَ الناسُ بالجهـاد، فبادر إليه من شَرْق العِـدْوة مَنْ كان لهم من الآثار والمـكارم والبأس على النصـارى ما لا خفـاءَ به، وبهم كان يصول ابنُ أبى عـامر على العدوِّ، وهُمْ كـانوا العِدّة فى الجـيش والموثوق بهم عند الـلقاء ومـعتـرك الوغاء، وكـان من أدْهَاهم رأيًا وأبْعَدهم همَّةً زَاوِرى بن زِيـرِى عَمًّا، وبعـده حَبُـوسُ بـن مَاكْـسَن ابنُ أخيه ـ رَضِيَ اللهُ عنهُ ـ فإلَيهما كـان الرأى والمشورة فى الأمر، والحُكْم على مَنْ دونهم من الأجناد.

فرتَّب ابنُ أبى عامر الرُّتَب، وأظهر هيـبة الخلافة، وقمع الشِّرْك، وحضَّ المسلمـين عامَّة على الـغزو، فعجـز عن ذلك رعيَّـة الأندلس، وشكوا إليه ضعفهم عـن المُلاقاة وشُغْلَهم بالغَزَوات عن عِمـارة أرضهم، ولم يكن القومُ أهْلَ حَرْبٍ، فقـاطَعَهم على أن يشتغلوا بعمـارة أرضهم، ويعطوا من أموالهم

كلَّ عام مـا يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيـهم ذلك، على اتِّفاق ورضًى منهم، فضرب عليـهم الأقطاع، وحصَّل فى الدواوين جميعَ أمـوال الناس، وكسرها عليهم [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش، فبقيت تلك الأقطاع عليهم إلى [أن عمَّت الأندلس] عدّة الثوَّار و [اتَّبعو] هم على تلك الآثار [ودأبُه] فى ذلك إنما كان على ما وَصَفْناه.

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم فى الناضِّ والطعام والمواشِى، يقسـمون ذلك على المساكـين بكلِّ بلدة، ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلا ما يقـيم به الجيش والدولة التى هى قـيام العالم، ولولا حـماية السلاطين للرَّعيَّة، وعزُّ دُولَهم، وذَبُّهم عنهم، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزَّ بهم قـرارٌ، فكان ذلك كلُّه عن سـداد وصلاح وتأوُّل الخـيـر، ولم تزل الأنْدَلُس قديمًا وحـديثًا [عامرةً] بالعُلماء والفُقَهـاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأُمور مصروفة، إلا ما يلزم المَلِك من خاصـتَّه وعَبِيده وأجناده من الأخْذ من واحدٍ ودَفْعه لآخر، لينخِّل بذلك عـسكره ويتخيَّر أفْضَلَه... فيه للمـسلمين كفاية وعُدَّة، إذ كانت الأموال التى يعطونها من غيـر أُصولهم، ولا اكتسابهم، إنَّما كان ذلك من وجه النظر للمـسلمين، وأمّا ما كان بَيْنهم من مظلمـة أو قضيَّة وكلُّ حُكْم يرجع للسُّنَّة، فإنَّما كان لقاضى البلدة.

فلمـا تمَّت الدولة الـعامـريَّة، وبقـى الناس لا إمـام لهم، ثار كلُّ قـائد بمدينتـه، وتحصَّنَ فى حِـصْنه بعد تَقْدمـة النظر لنفسـه، واتِّخاذه العسـاكر، وادِّخاره الأموال، فتَنافسـوا على الدُّنيا، وطمع كلُّ واحد فى الآخر، وكذلك لا يصحُّ أمـرٌ بين نَفْسَـين، فكيف سلاطين كـثيـرة وأهواء مختـلفة؟... إلا الله... من كان ظالمًا منهم يتعدَّى... للقدر الذى شاء ربُّنا لا شريك له

٩- استقرار بنى زيرى فى إلبيرة[١] بناء على طلب أهلها:

فلما رأى سلاطينُ صِنْهاجة وبنو زِيرِى اقتطاعَ كلِّ أمير فى بَلَدٍ لنفسه، وذهابَ ما كانوا عليه من عزٍّ وأَثَرٍ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العِدْوة، ليرجعوا إلى مُسْتَقَرِّهم، فانعقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذِكرُها، وظهور فساد كثير أضرَبْنا عن إيراده كلِّه، إذ كان مَقْصَدُنا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً، ولا بُدَّ من ذِكْر لُمَعٍ من غَيْرِها عند الاحتياج إليه.

وكان أهل إلْبيرة فى بَسِيط من الأرض، وكان بهم من الغشِّ بَعضهم لبَعض ما إنَّ الرجل منهم ليتَّخذ بإزاء داره مسجداً وحَمَّامًا فراراً من جاره، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حُكْم والٍ، وكانوا مع هذا من أجْبَن الناس وأخْوَفهم على مدينتهم، لا يستطيعون على قتال أحد، ولو كان الذُّباب، إلا بمن يحميهم ويذبُّ عنهم، فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس، وأنَّها أضرمت ناراً، وتوقَّعوا أن يتخطَّفهم الناس، وجَّهوا إلى زاوِى المذكور، شاكين ممَّا هم فيه، ويقولون: «إن كُنْتُمْ جاهَدْتُم قبل اليوم، فهذا الجهاد آكَدُ عليكم: أنْفُسٌ تحيونها، وديارٌ تحمونها، وعزَّةٌ تأوون إليها! ونحن شاركوكُمْ بأموالنا وأُنفسنا: لكم منَّا الأموال والسُّكْنَى، ولَنَا منكم الحماية والذبُّ عنَّا!».

---

(١) إلبيرة: من كور الأندلس، جليلة القدر، نزلها جند دمشق العرب وكثير من موالى الإمام عبد الرحمن بن معاوية، وهو الذى أسسها وأسكنها مواليه ثم خالطهم العرب بعد ذلك، وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخربت فى الفتنة وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهى اليوم قاعدة كورها (الروض المعطار).

فقبل القومُ قَولَهم، واغتبطوا بمكانهم، واستبشروا باستفتاح البلدة لغيرها، و... أنفسهم من الغدر لتَشَتُّتهم ورجوع أمرهم كلِّه إليهم دون فِئَةٍ [تحميهم] ولا جماعةٍ يتوقَّع عُصْبَتُها، فأتوهم مُحْتَشِدين متألِّفين، قد انقطع إليهم كلُّ من انتمى من البَرْبَر وتعلَّق بهم، ونزلوا ساحتهم، وحيَّوهم بالتُّحف والأموال، وشاركوهم أحسن مُشاركة، راضين بهم لا ساخِطين، واستجابت لهم عند ذلك مَعَاقِلُ كثيرة، منها جيَّان[1] وأنظارها، وحِصْن آشر[2] من الغَرْب.

فلما طاعت لهم البلاد، اجتمع رأيُهم على أن يتقارَعوا عليها، وكانت عادةً في البَرْبَر، كَيْ لا يأنفَ أحَدُهم ممَّا يصير إلى أخيه، فرجعت إلْبِيرة في قرعة زَاوِي، وحِصْنُ آشَر مع جَيَّان في قرعة حَبُوس ابْن أخيه جَدِّنا ـ رحمة الله عليهم ـ وتعاقَدَ جميعُهم على أنَّه، إنْ طرق العَدوُّ جِهَةَ صاحبه، يكون الآخَرُ يحميها بنفسه ورجاله.

١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة[3]:

فلما بصر بفعلهم ثوَّار الأنْدَلُس، جذعوا منهم، وحذروا أن تقوى شوكَتُهم، فيطرقوهم ويحصِّلوا على بلادهم، لِمَا اختبروا من شدَّتهم

(١) جيان: مدينة بالأندلس، وهى كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل (الروض المعطار).

(٢) لدى الإدريسى فى نزهة المشتاق: «وهو حصن حسن حصين كثير العمارة آهل، وله سوق مشهودة.

(٣) غرناطة (أيضًا: أغرناطة) مدينة بالأندلس، وهى من مدن إلبيرة، وهى موروثة من أيام الثوار بالأندلس، وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى أغرناطة، ومدَّنها وحصَّن أسوارها وبنى قصبتها حَبّوس الصنهاجى، ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس، فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن (الروض المعطار).

ورأيهم، فاجتمعوا فى مُنازلتهم وقَصْدِهم إليهم بأحشادهم، كراهيَةَ تَوْطيدهم بذلك المكان وبُغْضِهم لجنْسِهم، وقَدَّموا على أنفسهم إنسانًا سمَّوه بالمُرْتَضَى، زعموا أنَّه قُرَشىٌّ، كَىْ يستهِلُّوا بخلافته عامَّةَ الناس، وليرجع أمرُهم إليه، ونزل الجمع على مقربة منهم.

وكان قبل ذلك، لما بلغهم احتشادُهم وتأَلُّبُهم، جمعوا أهلَ إِلْبيرة المذكورة وقالوا لهم: «نحن لم نأتِ لفساد ديارِكم، ولا قَهَرْناكم على استيطانها، وإنَّما كان ذلك على اختياركم لنا، وهذه الفِئَات مُقْبِلةٌ لطلَبنا: فإن استوثَقْنا منكم، دافَعْنا عنكم، وإن كانت الأُخرى، فأعلمونا: نَمْضِ عنكم على أجمل وَجْهٍ، فَلَنْ نعدم الخَيْرَ بسيوفنا!» فأجابهم القومُ: «اثبتوا فى قتال عدوِّكم والدفاع عنَّا وعن أنفسكم! فنَحْنُ رعيَّتُكم الطائعة وأسيافكم القاطعة!» فقال لهم زاوى بن زِيرى: «إذا كان هذا رأيُكم، فأرَى من الصواب أن نرتحلَ عن هذه المدينة، ونختارَ لأنفسنا فيما يقرب منها مَعْقِلا نأوى إليه بأهلينا وأموالنا... والحَرْبُ سِجَال...[1] يصيب عندها ولا يصاب، فقد يُظَنُّ عجزًا! وقد أمر النبى ـ ﷺ ـ عند احتشاد المُشْركين على المدينة أن يُخَنْدَق حَوالَيْها، وسنَّ الحَزْمَ، مع مدِّ الوَحْى له، فكيف نَحْنُ؟».

وقالوا لأهل إِلْبيرة: «لَسْنا نكلِّفُكم من الأموال ما تسرَّعتم به، إلا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مدينتكم بحشود رجَّالةٍ منكم، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعوانًا: تصرِّفونهم حَرَسًا وجواسِيسَ وما أشبه ذلك، وتحملون من تعرفون أنَّه يستطيع على الجُنْديَّة، أو تبنون لأنفسكم سورًا

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

يتوقَّع بتَـرْكه ثلمـةٌ تدخل بها الداخلة عليكم، وأمَّـا سِوَى ذلك ممّـا يخصنُّا نحن، فاعلمـوا أنه لم نأت الأندلُس إلاَّ وأجْلَبْنا مع أنفسنا من الأمـوال ما لا نحتاج فيه إلى أَحَدٍ، بانين على الإقامة إن اضطَرَرْنا إليها، ولم نَأْتِها عن فاقةٍ ولا سعاية، إنَّما جـئناها رغبةً فى الجهاد، وأن تكون كفايـتُنا التى شهرْنا بها على العدوِّ دون سائرهم، وأن نفنى باقى أعمارنا فى طاعة الله، إلى أن دفعَتْنا الأقدار إلى مـا تَرَوْن، ونَحْنُ لم نطلب أحَدًا، ولا تعـدَّيْنا على بشر! وهؤُلاء باغُونَ متطاوِلُون، وَمَنْ ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ (الحج: ٦٠) ومن قُتِل دون ماله وأهله، فهو شهيدٌ!».

فرضى القوم من قـولهم، وزاد ذلك فيهم رغبـةً، واتَّفق رأىُ الجميع أن يخيِّروا لأنْفُسهم جبَلاً مُنيفًا ومَعْقِلاً شامخًا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلَّتهم وكـثرتهم، ويجعـلونه القاعدة، ويخـربون له إلْبيرة المـذكورة. . .[1] فوقعت أَعْـيُنُهم على بسيطٍ جميل، قـد جمع الأنهار والأشجار، وجـميع ما يليـه من البَلَد كلِّه ينسـقى من وادى شَنيلى[2] المنحـدِر من جبَل شُلَيْـر[3]، وبصروا بالـجبل الذى فيـه الآن مدينةُ غَـرْناطة موسِّطة للبَلَد كلِّـه: الفَحْصَ أمامَه، وجِهَتَيِ الزاوِيَة والسَّطح بجنبتَيْه، ونظَرَ الجبَل وراءَه، فأفْتَنَهم المكان، وعملوا عليـه كلَّ حساب، ورأوا أنه فـى وَسَط النِّعَم وجمهـور الرعايا، وأن العدو، متى نازَلَهُ، لم يطق له إحصارًا، ولا منعه داخلاً ولا خارجًا البتة، فى كلِّ ما يحـتاج إليه الناسُ من المرافـق، فشرعوا فى بُنيـانه، وتولَّى كلُّ امْرِئٍ منهم إقامةَ داره من أَنْدَلُسٍ وبَرْبَرٍ، وخربَتْ عند ذلك إلْبيرَة.

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

(٢) انظر فى ذلك: نزهه المشتاق ٢/ ٥٦٩.

(٣) انظر فى ذلك: نزهه المشتاق ٢/ ٥٦٩.

١١- خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته:

فلم يكن إلا مُدَّةٌ يسيرةٌ قبل أن يستكمل البُنيان، فإذا بالطوائف الباغية قد أقبلت طامعةً متألِّفةً، ويظنُّون أنَّهم، عند وصولهم، لا ترتفد لهم ساعةً، وقدَّموا كتابًا إلى زَاوِى المذكور، يأمرونهم - بزعمهم - بالخروج أمامَهم على الأَمان، وأن لا سبيل إلى البقاء، ولا يتركونهم بذلك الموضع: يُبْلون بذلك العذْر عندهم، وإذا ظفروا بعد هذا، أن لا يقيلوا لهم عثرةً.

فلما قُرِئَ على زاوى كتابُ المُرْتَضَى المُقام لهذا الناموس، جمع رجاله، وخاطَبَ ابنَ أخيه حَبُوسًا، يأمره بالقدوم عليه، فأتى فى جميع عسكره، ودخل المدينة على أعْيُنهم، غير مُجانب لهم، ولا مُتكامن منهم، واجتمع بغَرْناطة من صِنْهاجة دون الألف من خيرة الخيرة، وكانت الطوائف الباغية فى نحو من أربعة ألف فارس.

فأمر زاوى المذكور [بكتب الجواب من] إملائه، وقال للكاتب: «لا تَزِدْ شيئًا على ما أُمْلِى عليك! اكتُبْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (التكاثر: ١ - ٤).

فلما ورد الجواب عليهم، عجبوا من دهائه، وقالوا: «إنَّ هذا الرجل لم يأبَ الطاعة لنا، إلا أنَّه واثِقٌ بنجدته وبمن معه، أو مُوَطِّنٌ على الموت، أو معجبٌ محيِّنٌ!» فزحفوا إليه.

وهشَّ القومُ إلى مُلاقاتهم، فأمرهم زاوى بالثبوت وتَرْكِ الطَّيْش، حتّى يبدو له ما هم فيه، فقالوا بأجمعهم: «لا خَيْرَ لنا فى غير مُلاقاتهم، إذ قد

أَيْقَنَّا بأنَّهم لا ينفعنا معهم شيءٌ إلا الظفر بهم أو الموت على أيديهم، ولا مَهْرَبَ لنا فى الأرض دون قتالهم! إن بقينا، لم يبارحونا، وأحصرونا مع رعايانا إن لم يروا منَّا دفاعًا عنهم! فإمَّا هُلكٌ وإمّا مُلك! وأنَّ موتَنا فى مُلاقاتهم، بعد إبلاء العذْر، أحبُّ إلينا من تغلُّبهم على مدينتنا!».

فخرجوا إليهم بأنفس جريئة وعلى الموت مُوطَّنة، وقلوب حَنِقة وللموت طالبة، فلم يكن إلا كصَفْقةٍ بالكفِّ على الكفِّ حتى ولَّوهم الأدبار، وانهزموا أمامَهم مذعورين، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، لا يلوى منهم أحدٌ على صاحبه، واتَّبعتْهم صِنْهاجةُ، وانبسطت عليهم أيدى البَرْبَر، يقتلون منهم نهمةَ أنفسهم، ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسْلِحتهم، حتّى امتلأَتْ من ذلك أيديهم.

وكانت تلك الوقعة أوَّلَ ظفر ثبتوا به فى أوطانهم، وهَابَهم الناسُ، وانقادت لهم الرعايا، وتوطَّد مُلْكُهم بغَرْناطة، وطاعت لهم أكثرُ بلاد أعدائهم المهزومين.

١٢- رحيل زاوى بن زيرى[1] إلى إفريقية وموته هناك مسمومًا:

وإنَّ زاوى بن زيرى، لما بصر بهذه الحال، ورأى تألُّب أهل الأندلُس عليهم وبُغْضهم لهم، عمل بذلك فِكْرَته وقال: «قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون دابَهم أبدًا، وإن كُنَّا قد مُنحنا الظفر فى أوَّل صفقة، لم نأمَنْهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين! وهُمْ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ، خَلَفَهُ أَلْفٌ، مع مَيْل جنسيِّهم من الرعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنّا! ولا يموت لنا

(١) انظر فى زاوى بن زيرى: الإحاطة ١/ ٥١٣.

نَحْنُ أَحَد ونخلفه أبدًا!» فنظر من المكان بعين الحقيقة، وزَهِدَ فيه، مع ما عَلِمَهُ من وفاة بَادِيس بن المنصور، والِدِ المُعِزِّ، مَلِكِ القَيْرَوان، وأنَّ ابنه وَلِيَ طفلاً صغيرًا، فشرهت نفسه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، للقَدَر الذى قدَّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه.

وكان لزاوى بَنُون، يعدل كلُّ واحد منهم ببَدَنه مائة فارس فى نجدته وقوَّة بأسه ورأيه: منهم بُلُكِّين[1] بن زاوى، فأعاب هذا الرأى على أبيه، وقال له: «بَنَيْتَ لغَيْرك، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير! لا تترك حاضرًا لغائب! واثبتْ بمكانك الذى لم تحصِّل عليه إلا بعد مشقةٍ وإشرافٍ من نفسك على الهلاك!» فقال زاوى: «نستخلف على المدينة من شيوخ تَلْكاتَة الموثوق بهم فى المُهِمّات مَنْ يثقِّفها، وينوب منابى فيها، حتى أُباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوان وكيفيَّة دَوْلَتها، فإما أن يتهيَّأ غَرَضُنا، وإلا انصرَفْنا إلى مَرْكَزنا».

فتهيَّأ للمسير على سبيل المشاركة للمُعِزِّ، وأن يكون له بالأنْدَلُسِ عُدَّةً وعَبْدًا، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَل فى المُشاركات واتِّصال الأيدى على المُهِمّات، واستَحْلَف من استحْلَفه من الشيوخ ألا يدخلوا عليه داخلةً ولا يُسْلموا من أحواله شيئًا لابن أخيه ولأَحَدٍ من خَلْق الله، يُريهم فى مسيره النظر لهم والسعْىَ فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك.

ثمَّ خرج عن البلدة كأنه يُقاد قودًا، فلم يخرج منها بمرحلة إلا وكُتُبُ

---

(١) جرى الناسخ على كتابة اسم «بلقين» بالقاف، ولكنا فضلنا كتابتها حيثما وردت «بالكاف» أى «بلكين» وهو الرسم الذى يورده ابن خلدون، أوثق حجة فى الأعلام البربرية، وكذلك السلاوى فى «الاستقصاء» وابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ١/ ٢٨٧ ولديه: وبلكين، بضم الباء الموحدة واللام وتشديد الكاف المكسورة.

مُستَحْلفيه سائرةٌ إلى حَبُوس بن مَاكْسَن، يسفِّهون رأى زاوى ويقولون له أن يُعَجِّل بالقدوم إلى البلد، وأنه أحَقُّ بولايته من غيره، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه، أو يَشْرَهَ إليه من فَغَرَ فَاهُ إليه بزوال زاوى عنه، فلم يتأخر عنه إقبالُ حَبُوس، وتَلقَّتْهُ صِنْهاجة بالطاعة والانقياد لمُلْكه، وسمع بخبَره زاوى، وهو فى طريقه على مسقربة من غرناطة، وندم على ما كان منه، ولامَهُ وَلَدُه على ذلك.

ويُذْكَر أنّه، لما وصل إلى القَيْرُوان[1]، وأحَسَّ بمَذْهَبه بعضُ وزراء المُعِزِّ نكروه وخافوا دواخِلَه عليهم، وأن يكدِّر ما صفا، ورأوا أن ولاية المُعِزِّ على طفوليَّته، وعيشهم معه، وتحكُّمَهم عليه، أخَفُّ عليهم من تَوْلية داهيةٍ مثل زاوى، لا يملكون معه من قِطْمِير، فَدُسَّ إليه مَنْ سَقاهُ السُّمَّ، ومات بتلك البلاد.

١٣- إمارة حبوس بن ماكسن[2].

وصَفَا الأمْرُ لحَبُّوس بن مَاكْسَن، وسار بأجْمَل سيرة وأعْدَل طريقة، وصرف أحكامه أجمع إلى قُضاة البلاد، وتعفف عن كلِّ شىء، وجَمُدَتْ يَدُه على الحرام والأموال، فأحبَّه الناسُ، وأمِنَتْ معه السُّبُلُ، وقل الفسادُ، وارتفع الجورُ.

---

(١) القيروان: هى قاعدة البلاد الإفريقية وأمّ مدائنها، وكانت أعظم مدن المغرب نظراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، وأربحها تجارة، وأكثرها جباية، وبالجملة فمدينة القيروان دار ملك المغرب، ورأت من الممالك والمملوك والدول والفقهاء والعلماء والصالحين ما لم يكن مثله فى قطر من الأرض، ثم محنت بالعرب والفتن، وخلت من الناس وذهبت نضرتها ومحاسنها (الروض المعطار).

(٢) انظر فى حبوس بن ماكسن: الإحاطة ١/ ٤٧٧.

وكان الرجلُ مُحِبّا في أقاربِه وبنى عـمِّه، لم يستأثر عليهم بشىء، وقسم عليهم البلاد، وأمـر كلَّ قائد أن ينتخب من الرجال عـددًا يليق به وما يكون فى قدر مـا أعطاه من الجهَات، وأنهى إليـهم: «إلا فائدة تفيـدونى بها تُنَفِّق عندى من مال أو تحـفة غيـر الاستكثـار من الأجناد، فَمَتَى دعـوتُ أَحَدَكم لمُـهِمَّـة، وبَصَرْتُ عـسكرَه أكثـر عددًا وأجـود خيـرةً، فذاك الأثيـرُ عندنا، والحَظِىُّ لَدَيْنا» فسـارَعَ الأجنادُ إلى اللحقة، وزاد الجيش فى أيـامه، وقامت هِمَمُ الرجال على ساق، وتنافسوا على خصال الحروب ومقاطع الشجعان.

وكان بنو عمِّه كلُّ إنســان منهم سُلْطانًا فى ناحِيَته، قد حاز جِـهَتَه وانفرد بعسكره، وكان حَبُوس ـ رحـمه الله ـ لا ينفرد برأى دُونَهم، ولا يقطع مقطعًا إلا بمشورتهم، حتى إنهم ليجتمعون معه للحُكم فى موضعٍ خارِجَ قصره دون السير إليه، وذلك استحسانًا منه، كَىْ لا يحصل عليهم ما يقع فى أنفسهم منه ذلة ولا ما ينقمـون عليه، وكان رفيقًـا بهم، مُحْسِنًا إليهم، مؤلِّفًـا لكَلِمتهم، وكان من قـوله: «إنَّ صِنْهاجة عندى مثل الأسـنان فى الفم: إن عدمتُ منهم واحدًا، لا نخلفـه أبدًا!» فكانت له بهم الصولة على النـاس والاستطالة على العدوِّ، ومـا كان كلُّ أَحَدٍ يرى تَرْكَه غنيـمةً والسلامـة منه من أعظم الفائدة، فضلاً أن يطمع فى شىء من جِهَاته، أو تُحَدِّثَه نفسُه بغزو بعض بلاده.

١٤- المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يَدّير بن حباسة

موت حبوس:

وكان لحَبُـوس بن ماكْسَن ـ رحمه الله ـ ابن أخ يُعْرَف يَدَّير ابن حُـبَاسة، وكان عنده آثَرَ من ولَده، للَّذى كان يرَى من نباهته، وإقباله على قراءَة الكُتُب

ومُجالَسة الفُقَهاء، وهو الذى كان يلقى به الرُّسُل، ويصرفه فى المُهمّات، وكان بارا بحَبُوس وبجميع أهل المملكة، وكان من أحَبِّ الناس فيه كاتِبُ حَبُوس المعروف بأبى العباس، ولِمَا يرَى من تواضُعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب، وطار له بذلك نامُوسٌ كبيرٌ عند صِنْهاجة حتى آثَرُوه على غيره.

وكان بَادِيس بن حَبُوس جَدُّنا ـ رحمه الله ـ كبير النفس، عالى الهمَّة، حادَّ المزاج، لا يستطيع أحَدٌ [أن] يمَخْرق عليه فى أمرٍ من الأمور، ولا ينكسر لأحَدٍ من بنى عمِّه، ثِقَةً منه بسعادته، وإنَّ الانخضاع والتمريض فى القول لا يَعْنِيه ذلك ولا يزيد فى أيَّامه، وكان ذلك كلُّه منه فى حزم ورَوِيَّة، لا يفسد جانبًا حتى يصلح آخَرَ، ويضرب بعضهم ببعض، فوجست أنْفُسُ البعض منه، وأُشْرِبوا هَيْبته ومخافته، وتوقَّعوا، إن صار الأمر إليه، أن يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أبيه، فأضمر أكثرُهم لهُ الغوائل، وآثَرُوا عليه يَدِّير المذكور، وتمنَّوا بولايته: كلُّ ذلك لشقائهم وتمام أيَّام سعادتهم!.

وسَمِعْتُ المُظَفَّرَ باديس ـ رحمه الله ـ يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه ويقول: «كنتُ وافقًا بين يدى حَبُوس أبى ـ رحمه الله ـ حتى انْتُدِبَ إليه من شيوخ صِنْهاجة من قال له: «إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولِّى على أمرك مَنْ يخلفك ممَّن تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّك! فإنَّ الموت يغدو ويروح!» فقال أبو العبَّاس كاتِبُه: «ليس يصلح لهذا الأمر إلا يَدِّير، لطهارته، وعفافه، ومحبَّته فى الناس!» وكان فى الجُمْلة من شيوخهم صديقٌ لى اسْمُه فِرْقَان، قد اصطنَعْتُه واستملْتُه، فسمعتُ ردَّه على أبى العباس، وهو يقول له:

«ما ينبغى لك أن تتكلَّم بهذا! كيف يُقَدَّم للأمْر غَيْرُ ابنه، وهو مستطلعٌ بجميع الأُمور، وقولُك أنْتَ وقولُ غَيْرك باطِل! كأنِّى، والله، أرَى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده، وإنَّ يَدَّيْرَ سيتحامَق على باديس، ويظفر به، ويقتله!» قال باديس: «فسرَّنى كلامُه، وأعطيتُه عليها ألف دينار».

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقان، ثمَّ إنَّه اطَّبَى من وجوه صِنْهاجة أقوامًا، ووعدهم بالإحسان، وسعى بجهده على حلِّ تلك الصفقة، إلى أن كلَّموا أباه فى تَوْليته، فرضى ذلك، وأمر الناس بانصياعهم له، وزجر يَدَّيْر فى ملأ من الناس، وقال له: «لا تشره ما ليس لك، يا بن حُبَاسة!» يُخاطِبه بهذا اللفظ.

فوقع من ذلك فى نفس يَدَّيْر عداوة مجدَّدة لباديس، وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرته وإجماع الجماعات عليه، وشتَّت أقوامًا من صِنْهاجة، حتى صاروا معه، ووَالَى بُلُكِّين شقِيقَ باديس ـ رحمهما الله، وكان من أهل البأس والنجدة، غير أنَّه لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك، ولمّا رأى بعضُ أصحابه موالاته لبُلكِّين وسعْيَه له فى ظاهر الأمر، لامَهُ على ذلك، وقال له: «إن كنتَ لا تسعَى لنفسك، ويكون من سَعْيك لغَيْرك ما نَرَى، فباديسُ أحقُّ بذلك، الذى هو الأكبر والأسعد، وله الرياسة!» فكان جوابُه لقائل ذلك: «ليس سَعْى لبُلُكِّين إيثارًا منِّى له على نفسى، غَيْرَ أنَّه صحيحُ النيَّة، غَيْرُ حاذِق بمكايد المملكة، وهو شقيقُ الذى أطْلُبُ، ولن أجِدَ لطلَبه أقْدَرَ على ضرِّه من أخيه! فإنَّما أنا أصيدُ به! فلو اتَّسقت لى الأُمور، وتهيَّأ قَتْلُ باديس على يدى أخيه، كان أمْرُ بُلُكِّين من بَعْده هيِّنًا، وخَلْعُه مُمْكِنًا!».

فكان أبَدًا يحضُّه على قتل أخيه، ويُريه السعْىَ له، وكان الأَخُ فى ذلك مُتَشَبِّثًا فى أمره مُشْفِقًا على أخيه، إلى أن تُوفِّى حَبُوس بن ماكْسَن ـ رحمه الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(١) من أوليتها إلى موت ابن نغرالة

١٥- أولية إمارة باديس بن حبوس[١] وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم:

وولى الأمر من بعده جدُّنا باديس ـ نضَّر الله وَجْهَه ـ فحاوَلَ أموراً كباراً، وشَقِيَ مع كلِّ أُمَّةٍ: صِنْهاجة يطلبون مكانه مع يَدَّيْر، وسلاطينُ الأندلُس يرمُون بلاده، وهو فى ذلك كلِّه حسنُ السياسة، صبورٌ على الأذيَّة.

وكان أبو إبراهيم اليهودىُّ كاتبًا بين يدى أبى العبَّاس كاتب حَبُوس، ولمَّا توفِّى أبو العباس المذكور، وترك بَنِينَ، أقام حَبُوس ـ رحمه الله ـ أكبَرَهم عِوَضًا من أبيه، واستعمله مكانه، وكان فى الابن صبوةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة، فمكر به أبو إبراهيم اليهودى، ولزم خدمة الرئيس، وصار، متى عاب وَلَدُ أبى العبَّاس، يحضر أبو إبراهيم، فيسأل عنه حَبُوس، فيقول معتذرًا فى الظاهر ومطالبًا له فى لَحْن القول: «وَلَدُ أبى العبّاس، كما ترى، صبىٌّ يُؤثِر الراحة، وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامة عذره، وأنا عَبْدُه، أنوبُ منابَه، فمُرْنى بما شئْتَ: يتهيَّأ ذلك!» فلم يزل على هذا أبدًا حتى تمكَّن، وظهرت خدمتُه وسَعْيُه فى ضمِّ الأموال.

وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادتَه ودهاءه، فافترض السَّعْىَ له والتخدُّمَ لإرادته ما دَامَ أَمْكَنَهُ ذلك، فى وقت المناوِينَ له والقائمين عليه، للذى قدَّر من أيامه معه.

---

(١) انظر فى باديس بن حبوس: الإحاطة ١/ ٤٣٥.

فلما اتَّفق أعداؤُه مع يَدَّير عليه، شاركوا فى ذلك أبا إبراهيم، واجتمعوا فى منزله، يرومون قَتْلَ باديس وإقامة يَدَّير، وَعَدَهم على الاجتماع عنده، وتقدَّم إلى باديس، وأخبره الخبر، وأتى معه إلى المنزل، وقال له: «ليس الخبر كالعيان! اسمَع بأذْنِك وَعِ بقلبِك!» وهو بموضع مرتفع على البيت الذى يرومون فيه عَمَلَهم، وأبو إبراهيم فى ذلك كلِّه يقول عند محاورتهم كالمخاطِب للبارئ: «يا مَنْ يَرَى ولا يُرَى!» وهو يعنى بذلك باديس جدَّنا الذى يَرَاهم ولا يَرَوْنَه، فشكر ذلك باديس لأبى إبراهيم، وأيقن بِثِقَته وأمانته، وصار له خادمًا من ذلك النهار، وشاوَرَه فى أكثر رأيه مع بنى عمِّه.

وكان فى اليهودى من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذى كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله لذلك استيحاشًا من غيره، ولِمَا كان يَرَى من طَلَبِ بنى عمِّه له، ولأنَّ هذا يهودىٌّ ذِمِّىٌّ، لا تشرهُ نفسُه إلى ولاية، ولا هو أَنْدَلُسِىٌّ، فيتَّقَى منه إدخالَ داخِلةٍ مع غير جنسه من السلاطين، ولاحتياجه إلى الأموال التى يطَّبى بها بنى عمِّه، ويحاول بها أمْرَ المُلْك، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال، ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ فى حق ولا باطل، ولأنَّ الرعايا أكْثَرُهم بتلك البلدة، والعُمَّال إنَّما كانوا يَهُودًا، فكان يجبى منهم الأموال ويعطيه، فيلقى ظالمًا منهم إلى ظلمة، يأخذ منهم ما [يملأُ به] بيت المال، وإقامة أود المملكة أَوْلَى به منهم.

١٦- فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس

فلما ولى باديس، كَثُرَ عليه الخلافُ والهَرَجُ، واتَّفق رأيُهم على ما قدَّمنا على قتله وتوليةِ يَدَّيْر. وأعطى على ذلك أقوامًا المثاقيلَ والصكوكَ بالإنزالات القويَّة.

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلة، وبإزائها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُوس أبوه، وكان لها بابانِ [فاتفقوا] على أن يقيموا المَلْعَبَ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنْيَة، وهُمْ قد تسلحوا بالدروع من تحت الثياب، عازمين على الشرِّ.

وكان ممَّن ارْتُشِيَ على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعْرَف بِفرْقَان، أُعْطِي خمَسمائة مثقال وصكًا بقَرْيَةِ قُولْجَر من عَمَل السَّطْح، فقال فى نفسه: «لم أَجِدْ فُرْصةً نحظى بها عند باديس أَمْكَنَ من هذه!» فجعل أَنَّ الفَرَسَ زَادَ به فى جَرْيِه، كأنه جمح، حتى دخل المُنْيَة، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب، فقال له مختلِسًا: «انْجُ بنفسك واخرُجْ من الباب الآخر! فإنَّ الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك!» وأراهُ الدنانيرَ التى أُعطى على ذلك، فخرج باديس من الباب الآخر، يجدُّ فى السير إلى قَصبَتِه، وهُمْ لا يشعرون، ينتظرونه.

فبينما هُمْ على ذلك، إذا بعَلِيِّ بن القَرَوِيِّ وأصحابه من وزراءِ باديس وثقاته قد أقبلوا إليهم، فقالوا لهم: «إنَّ السلطان وَرَدَ عليه من بعض أَنْظاره خَبَرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له، فاعذروه فى تخلُّفه عنكم! ومع هذا، فإنَّه لم

يَخْفَ عليه شيءٌ!» فلما سمع القومُ بذلك، فكلٌّ من كان فى نفسه خَبَرٌ هرب على المقام، وهرب يَدَّيْرُ بنُ حُبَاسة، لا يلتفتون على شيءٍ، يطلبون النجاة بمُهَجِهم.

ثمَّ افتضحت القضايا كلُّها لباديس من بعد هرويه، ومشى إليه بالنصائح كثيرٌ ممَّن بغاهُ قبل ذلك، وطلع إليه أخُوهُ بُلُكِّين، وبكى بين يديه، وسأله العَفْوَ عمّا أَدْخَلَهُ فيه الفاسقُ ابنُ عمِّه، وأنَّه لم يَزَلْ به أبَدًا يروم ذلك منه لولا تَثَبُّتُه وشفقتُه عليه، وإنَّ يَدَّيْر خرج عن البلدة، وصار فى حيِّز الأعداء، وكلُّ رئيس قد انتدب إلى فتْنة جدِّنا ـ رحمه الله ـ ينحازُ هو إليه، ويصير من أعوانه وعلى أجناده، يَدُلُّ بهم البَلَد، ويُريهم المَخادِع، ويكشف لهم من عَوْرات الجِهة ما خَفِيَ عنهم، لا يفترِ بالضرب عليه وتَهْتِيكِ بلاده، وجدُّنا فى هذا لا يأوى معه إلى راحةٍ، ولا يقرُّ به قَرارٌ.

وصِنْهاجة مع هذا يخاطِبُونه، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس ـ رحمه الله ـ كُتُبٌ كثيرةٌ من عند صِنْهاجة إلى يَدَّيْر، تضمَّنت أزْيَد من مائتىْ رَجُلٍ من الأكابر، فغضب لذلك، وهَمَّ بقتلهم، وشاوَرَ أبا إبراهيم فى الأمر، فقال له: «أرى من الرأى ألاَّ تُؤَنِّبَ أحَدًا على هذه الكُتُب، ولا تعلمهم أنَّها صارت إليك، وأن تأمُرَ الآن بنارٍ تحرقها بها وتطفئ أثَرَهَا، ورأسُ العقل مُداراةُ الناس، فإن عاقَبْتَ، كم عَسَى [أن] تُعاقِب، وهُم أجْنادُك وأجْنحَتُك! فاحتَلْ للأمر بغَيْر هذا الوجه!» فقبل نصيحته، واستعان ببَعْضهم على بَعْض، وأفشى العطايا، وضرب الابْنَ بأبيه والأخَ بأخيه.

فكان دأب يَدَّيْر هكذا أبدًا، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك

بلا سآمة ولا فترة، إلى أن أظفره الله به وصار فى ثِقافه، وذُكِرَ أنَّه مات مقروعًا حَتْفَ أنْفه، وتأتَّت الأُمور لباديس من بعده، وصفا له الجوُّ.

١٧- انتصار باديس على زهير صاحب المرية (١).

وأوَّل فَتْحٍ أفاءَ الله عليه هزيمتُه لزُهَيْر الخَصىِّ والِى ألْمَرِيَّة، وكان له كاتبٌ، يُعرف بولَد عبَّاس، من أشدِّ الناس حماقةً واستخفافًا، مُثيرًا للشرِّ، مؤَرِّشًا بين الملوك، وكان الغالِبَ على أمر زُهَيْر، إذ لم يكن زُهَيْر يصلح لشىء لغباوته وجَهْله، وكان قد جمع كلَّ خَصىٍّ بالأنْدَلُس واحتفل، فبالغَ، وأدركه الطمع فى غَرْناطة، لِمَا بلغه من موت حَبُوس بن ماكْسَن، فأتى حتى نزل على مقربة منها، بموضع يُعرف بالفُونت، محتقرًا لمن وَلِىَ غرناطة، يزعم أنَّهم أصاغِرُ وأمْرُهم مختلٌّ بعد حَبُوس، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلالك جنسيِّه الخصيان.

وكان جدُّنا باديس، رحمه الله، قد رأى عند ذلك رُؤيا أنَّ الحَوْرَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه، فهالَهُ ذلك، وخشى أن تكون الوقيعة عليه فأرسل فى [طلب] المُعَبِّر وقصَّ عليه، فقال له المُعَبِّر: «أبشرْ بهذه الرُّؤيا! إنَّ الحَوْر

---

(١) سوف ترد فى السياق أكثر من مرة، وقد وضعها المحقق فى حرف الميم، والصواب وضعها فى حرف الألف، والمرية Almeria ثغر من ثغور الأندلس الشهيرة يقع فى جنوب أسبانيا على البحر المتوسط شرق مالقة، وهى مدينة مشرقة جميلة الموقع والتخطيط، وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعظم ثغورها الجنوبية، وكان سكانها يومئذ يزيدون على مائة وخمسين ألفا، وهم اليوم لا يعدون ستين ألفا، وقد سقطت ألمرية فى يد النصارى سنة ١٤٨٩م، وما تزال تقوم بها حتى اليوم أطلال العقبة الأندلسية القديمة، وبها عدة أبراج منيعة تشرف عليها من علٍ، ولألمرية ميناء جميل يرسو به كثير من السفن (الإحاطة ١/ ٢٣٩ هامش ٤) وانظر لذلك أيضًا: الروض المعطار، ص ٥٣٧.

شبيهٌ بالخصيان، الذى لا طَعْمَ له، ولا أصل يتورَّك عليه، وهُمْ بهذه المرتبة، ولا شكَّ فى سقوطهم وبوارهم على يديك!» فكان ذلك.

وقدَّم على العساكر أخاه بُلُكِّين، وكان من أشجع الناس، وكان باديس، عند موت أبيه، قد اختصَّه بكلِّ ما شاءَ وفَضَّلَه فى الميراث على نفسه إلاَّ الناضَّ الذى تحتاجُهُ المملكة، فلقى العسكر المرذول، فلم تكن إلاَّ ساعة من النهار حتَّى انهزم وقُتِل جميعُ من كان فيه من الخصيان، وخفى زُهَيْر عن العسكر، فلم يوجد حيًّا ولا ميتًا، وكانت تلك أوَّلَ سعادة باديس، كما كانت هزيمة المُرْتَضَى أوَّل سعادة أبيه، ثمَّ افتتح البلاد، وصارت إليه الأنظار التى تَلِى ألْمَرِيَّة، وظفر بعدوِّه كاتِبِ زُهَيْر، وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة، ونقم عليه أشياءَ كثيرةً قَبْل ذلك، من أقاويل خَشِنة ومُعامَلات قبيحة عَرَّفَهُ بها.

وقرَّ مُلْكُ باديس جدِّنا قرارَهُ، وطار له الذِّكْرُ، وكانت له من الهَيْبَة فى الناس أن لم يَجْتَرِئْ عليه أحَدٌ بعد تلك القضيَّة.

ثمَّ إنَّ بلكّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلا يسيراً حتى مات ـ رحمه الله ـ وكبرت سنُّ سَيْف الدولة فى حال الحداثة، وهو أبونا، وترك عمَّه بُلُكِّين ابنًا كان يناوئُه ويخشى منه ضرّا كثيراً، ويتوقَّع على نفسه من المُطالَبات بتلك الأخبار، فخرج عن البلد بجميع مالِهِ وتركةِ أبيه، لم يعترض له شيءٌ.

١٨- شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف:

ولم يكن للمُظفَّر جدِّنا غير بُلُكِّين أبينا ـ رحمهم الله ـ وكان رفيقًا به، مشفقًا عليه، حَذِرًا من أعدائه وبنى عمِّه أن يُبلغوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه، فكان لا يحسُّ من أحَدٍ داخلةً ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمْره من إخمال أو نَفْيٍ أو أخْذِ مالٍ، لئلاَّ يبقى لابنه مَنْ يُناوئُه ويُذِلُّه.

وكان سَيف الدولة حليمًا رَفيقًا، ضدَّ أبيه فى كلِّ حال، فإنَّه لم يجرِّب من الأمر، ولا ابتُلِىَ بما ابْتُلِىَ هو به، وكان يَعِدُ الناسَ بالجميل، ويقول لهم: «أنا أُنسيكم طريقةَ أبى!» ومن استوجب من أبيه القتل أو أدنَى ضَرَرٍ، كان هو الذى يعنى بأمره، ويتشفَّع فيه عند الأب، حتى يتخلَّصه، فأجمع الناس على محبَّته خاصَّةً، وعامَّةً للذى يرون من مكارِمِه، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال.

١٩- نشاط يوسف بن نغرالة اليهودى ومؤامراته:

وكان فى زمانه للمُظَفَّر أبيه وَزِيران ابنا القَرَوىِّ: أحَدُهما علىٌّ، والآخر عبد الله، ممَّن نشأ معه، وكانا حَضِيرَيْهِ فى المكتب، وكانا قائدَى العسكر، وإليهما كان يرجع الرأىُ فى أُمور الفِتَن، وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤذنًا لهما، مستعينًا بهما.

فلما توفِّى أبو إبراهيم، وترك ابْنَهُ وزيرَ جدِّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرةً، ووصَّاهُ بأن يسعى فى طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التى منها يكون حَتْفُ كلِّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستئثارهم بالجبايات.

فجعل الخنزير نَفْسَه لذلك، وكان المُظَفَّر - رحمه الله - لا يقبل منه مُطالَبةً لمُسْلِمٍ، ولا عرَّضه لذلك، غير أنَّه كان يتلطَّف بالأموال، ويعطى لثقاته وعَبيده ما يجعلهم فى المُطالَبة على هواهُ، وهو ساكتٌ، لا يتكلم بشىءٍ مثل أن يَدُسَّ فى طَلَب أحَدٍ على يدى مُوَفَّق الخصىِّ صاحِب المدينة من ثِقات باديس، وكان منتصبًا لهذه المشَابِه، فيأتى مُوَفَّق المذكور بنصيحة

إلى السلطان ممّن يزعم أنّه من أهل الشرِّ، فيُرْسَل فى اليهودىِّ ويُقال له: «بلغنى أمرٌ كذا وكذا» فيُريه اليهودىُّ التبرُّؤَ من ذلك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِل إليك كذبٌ، فتثبتْ!» فيقول له الرئيس: «أخْبَرَنى مَنْ لا شكَّ عندى فى نصيحته!» فكان آخرُ ما يقول له: «ما قَطْعُ الشرِّ إلاّ سياسةٌ» وكان لمبُاهاته ومَخْرَقتِه، يُرى الناسَ أنّه يقدر، ولم يكن ذلك منه، إلاَّ عن تحيُّل ومكرٍ،

فلما توفِّى أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنُه فى سنِّ الصبا، كَرِه توليتَه جدُّنا، وقال لعلىٍّ المذكور: «التزِمْ خدْمة المملكة، فأنْتَ أحقُّ بها!» فأبى ذلك علىٌّ، واطَّباهُ وَلَدُ أبى إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغبُ إلا أن أكونَ عَبْدَك وتَرْبيَتَك، ولك الأمرُ، وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بنَفَقَتك كلِّها، ولَوْ كان أهْلُكَ عَدَدَ الحَصَى!» فطمع علىٌّ فى قوله: وكلَّم السلطان فى ذلك، وقال له: «إن أبْقَيتَ على وَلَد أبى إبراهيم ناصِحك، فأنا أرجو ذلك لوَلَدى من بعدى، وأنا المُشْرِفُ عليه» ففعل السلطان ما قال، وقدَّمه على العُمَّال والجبايات، وكان يعطى لعلىٍّ صدراً من دولته إلى أن كَبِرَت سنُّه.

وأظهر [ولَدُ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حظِىَ بها عنده، وتَبَرْمَكَ على علىٍّ وغيره، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأل به عن علىٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله، وكان فيما قال له: «إنَّ الذى يأخذ علىٌّ أنتَ أولَى به، والرجلُ كثيرُ الأولاد والضَّفَف، ويذهب مالُكَ إن لم تَحْمِنى وتعضدنى، وهو متى تملأ، طَمِع فى مُلْكك! وأنا رجلٌ ذِمِّىٌّ لا همَّةَ لى إلاَّ خِدْمَتك وجَمْع الدراهم لبيت مالك!» فوَثِقَ الرئيس بقوله، وقاس عليه بعقله، ومنع

منه عليّا وجميعَ الناس، ولما رأى علىٌّ تأخُّرَهُ وتَقَدُّم اليهودىِّ، ندم على ما كان منه أوَّلاً، وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان، وغَاظَه ذلك وأكْرَبَهُ.

وكانت مَدِينة وادِى آش[1] بيَدِه، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله، وكان يأكُلُها طعمةً، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم، وهى تُساوِى أزيَد من مائة ألف دينار ثُلُثيَّة، فدخل عليه اليهودىُّ بهذه المُطالبة وقال للسلطان: «اقبض وادى آش من عنده، ولك منِّى فيها أزيد من مائة ألف!» فقال له: «لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه، فتكون مفاسدةً، وهم متصرِّفون فى خِدْمَتِها» فوجد اليهودىُّ السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسْمِ سيف الدولة أبينا، وقال: «لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ، فأضعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها، ويَرَى لى ذلك عن تخدُّم ونصيحة!».

فقال لأبى: إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذى أنا لأبيك، وأراك كثيرَ الذُّرِّيَّة، تلزمك نفقَات وتجمُّل الرياسة، ومن الغبن أن يكون وزراء والدِكِ أغنى منك! وهذه وادى آش، بِنْتُ غرناطة، لا تجمل إلاَّ لك، وأنا أثَمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف!» ففرح لقوله والِدِى ـ رحمه الله ـ وشكر له رأيه، ووعده بالزيادة فى مرتبته إن صار الأمرُ إليه.

ثمَّ مضى إلى الوالِد، فأخبره الخَبَر، وقصَّ عليه أمْرَ ابنه، فقال له

(١) وادى آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرَّد حولها المياه والأنهار، ينحط نهرها من جبل شلير، وهو فى شرقيها، وهى على ضفته، ولها عليه أرحاء لاصقة بسورها، وهى كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون، والقطن بها كثير، وكان بها حمامات، ولها بابان: شرقى على النهر، وغربى على خندق، وعليها سور حجارة (الروض المعطار، ص ٦٠٤).

المُظَفَّر: الآن وجب أَخْـذُها من أولاد القَرَوِىِّ» فأرسل على المـقام فى علىٍّ وقـال له: «إن ابنى مـحـتاجٌ إلـى المال، وطـلب منِّى وادى آش، ولو كنت آخذَها منك ومُـعْطِيَهـا لقِرْنك، لَعَـزَّ عليك! ولكن يجب لك أن تتسـرَّع بها لابْنى» فلم يكن جـواب علىٍّ إلا أن قال لـه: «ما صَلُح للمَـولَى على العَبْـدِ حَرَامٌ!» فضمَّهـا اليهودىُّ خادمًا لأبى فيها، وشرط عليـه أن يعطيه رَسْمَها فى أنْجُم العام، واتفقَا على ذلك، وصارت المودَّة متمكِّنة بين الابْن والوزير مُدَّةً طويلةً.

٢٠- موت الأمير بلكين مسمومًا:

فلما رأى وزراءُ الدولة وعـلىٌّ وأخوه تَمكُّن اليهـودىِّ عند السلطان وعند الابْن أغـاظهم ذلك وأقْلَقَـهم، وبلغ منـهم كلَّ مـبلغ، وأجـمع رأيهم على الدخـول بينه وبين أبـينا، وكـان أولاد على وعـبـد الله وزَرَاء لسَـيْف الدولة ونُدَماءَ، ولا يُفارقونه، فعملوا عليـه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنيهم، وقالوا لسَيْف الدولة: «إنَّ الأموال التى يغنم اليهودىُّ ويستأثر بها، أنتَ أحَقُّ وأولَى، وقد أَخْمَلَك وأَخْمل الدولة أجمع! ولو أنك قَتَلْتَه، لم يقلْ لك أبوك فى ذلك شيئًا! وما عسى أن يصنع بابنه؟» أرادوا ـ الفَسَقة ـ قَتْلَ عدوِّهم على يدى ابن الرئيس، ليخـرجوا أيديهم من المسـألة: فإن عاقَبَ، عـاقَبَ ابنَهُ، إن شاءَ، وحـصَّلوا على الدولة دون مـلامة مـن السلطان، فلم يزالوا به أبدًا، ينمُّـون باليهودىِّ، ويكذبون عليه، ويمضـون إلى اليهودىِّ بالكذب على لسانه، حتى تغـيَّر أبونا عليـه وتغيَّـرت له نفسُ اليهـودىِّ، مع قلة تجارب سَـيْف الدولة لمكايد الناس، فـعمل على قـتله، وكان يتـحدَّث بذلك، ويفـشى سرَّه إلى

الوزراء الرافعين إليه، فـلا هو يعزم على قتله، ولا هو يتكتَّم بالأمر، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهودىِّ، واعتزم رأيُه على أن يسبقه بالأمر، ورأى عيانًا تغيُّره عليه، وكان أبونا، لمـا همَّ بقتله، وأعَدَّ لذلك عبـيدَه، فكَّر فى سطوة أبيه، فكَفَّ.

وكان لسَـيْف الدولة أَخٌ صغيـرٌ اسْمُه مَاكْـسَن، عمُّنا الشهـيدُ فى وقيـعة بَطَلْيَـوْس[1] فعمل الخنزير رأيَه مع مَشْـيَخَة اليَهُود، وأخْبَرَهم بتـغيُّر سيف الدولة عليـه، فـقـال له أَحَـدُهُمْ وأدْهَاهُم رأيًا: «لا تطمع فى الفـلاح بعـد الشـيخ، ولا فى سَـيْف الدولة! ولكن انظُرْ لـنفسك فـيـمَنْ تُقِـيمُ إن مـات رَئِيـسُك: أوجَـدْتَهُ؟ وتحـيَّلْ فى سَقْـى سيف الدولـة، وهذا مَاكْـسَن أخـوهُ مـخمـولٌ، فـإن قَـتَلْت أنت هذا، ووَلَّيْتَ هذا، قـدَّمْتَ عنده يدًا لا ينسـاك عليها!».

فسوَّلَتْ له نفسُه سَقْيَهُ، وكـان متمكِّنًا بذلك، لأنَّ أبانا كان كثير الشرب معه والتكرارِ عليـه فى منزله، فشرب يومًا عنده على عـادته، فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان فى جوفـه، واستلقى على الأرض، فلم يَسْتَطِع المشى إلى منزله إلا عن مشقَّة، ولبث يومَيْن يجود بنفسه، حتَّى مات ـ رحمه الله عليه.

ولقد سـمعتُ كبيـرًا من خِصيْان باديس يقـول: «أَرْسَلَ فى سَيْفُ الدولة يومًا وقال لى: «انهضْ إلى أُمَّهَاتِى وقُلْ لهنَّ إنى اعـتزمتُ على قتل اليهودىِّ» يقول الخَصىُّ: «فـقلتُ له: أنا لا أمضى بهذه الرسالة! فإنَّ الخَبَـرَ لا مَحَالَة

(١) بطليـوس: بالأندلس من إقليم ماردة بينهمـا أربعون ميلا، وهى حديثة بناها عـبد الرحمن بن مروان المعـروف بالجليقى بإذن الأمير عـبد الله فى ذلك، فأخذ له جـملة من البناة وقطعة من المال فشرع فى بناء الجامع واتخذ مقصورة وبنى مسجداً بداخل الحصن (الروض المعطار).

عنده! لو أنَّك تريد قَـتْلَهُ، ما كان نبـغى لك أن تُسْمِـعَنِي ذلك ولا أَحَدًا من خلق الله!» فعلمتُ أن حاله تَئُولُ إلى مثل ذلك.

وممّـا أعان على الفـساد قَبْلَ ذلـك أَنَّ أبانا كان مع أُمَّهَـاتِه، اللائى رَبَّيْنَ وَلَدَهُ المُـعزَّ أخـانا، على ضدٍّ من الأمن، لإفـراغِـهِنَّ المال على ابنه طفْـلا صغيرًا ومَنْعِـهِ هو منه، فاحتاج إلى اليهودىِّ عن المـال، وكان أُمَّهَاتُهُ يُطالِبْنَهُ ويمنَعْنَهُ عن صحـبة اليهودىِّ، حـتى شعرَا بذلك، واتَّفق رأْيُهُمـا على مُطالبة النساء عند الرئيس، وتجريحهنَّ بسرقـة المال وإرساله إلى البلاد، فلما وقف جدُّنا على المقـالة، وقد وقعت المفاسدة بينـهُنَّ وبين ابْنِهِنَّ، صار مَلُومًا من الأَب والنسـاء، وتحيَّل النسـاءُ على أن بَرَّأْنَ أنفُسَـهنَّ ممَّا قُـذِفْنَ به، ودَعَت الضرورةُ سَيْف الدولة أن يتصالح مع النساء لرجـوع أبيه معهُنَّ، ورُدَّت القِصَّة فى رأس اليهـودىِّ، فكان ذلك ممَّا زاده غـائلةً ونفورًا، وجـرى على يديه ما قدَّر الله به لتمام المُدَّة.

وكان فى أوَّل المفاسدة قد احـتبس له بكثيرٍ من جباية وادى آش وشكا به سَيْفُ الدولة لأبيه، فتحـيَّل الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشرابٍ، حتى سكر، وأَمَرَ بخروج بنيه وعياله فى ثياب الحزن، فهالَ ذلك أبانا لِمَا رأى من حالهم وبكـائهم، إلى أن قال له: «هل مات عندك أَحَـدٌ؟» فقـال له: «مات عندى مالٌ كـبيرٌ لا يمـتسك عنك إلا بمطلِ الرعيَّـة! وهذا يومٌ طيِّبٌ: فأنِّس أَهْلى بكَتْب براءَة تبرِّئنى بهـا إلى أن يَرِدَكَ مالكَ، فإنَّهم قد وجـسَتْ نفوسُهم وفزعوا، فأَتِمَّ إحسـانَك بكَتْب البراءَة!» فافْتَرَصَه فيها، وكـتبها، ثمَّ ذهب بها إلى أبيه وقال له: «إنَّما ينفق مالَهُ على الوزراء والشرابِ المُدْمِنِ! وهذا إبْراؤُه

لى: فأينَ شكواه؟» فرجع مَلُومًا من الأَب زائدًا، وصار فى خسارة مع الوزير والنساء، لِمَا أراد الله من تمام المـدَّة، والله ينفعه بجميل نيَّته وصَـفَاء مَذْهَبه للخاصَّة والعامَّة!.

٢١- ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع:

فلما توفِّى أبـونا، وكانت من أكبـر الرزايا للناس، لِمَا كـانوا يرجونه من العـدل على يدَيْه، هاج الناسُ بأمره، وهمُّـوا بقتل اليـهودىِّ، وكـانت تلك مقـدِّماتٌ لهلاكه، غـير أنَّهم كانوا يتـوقَّعون مـعاقبـة الرئيس، وزاد فى طَلَبه لأولاد القَرَوىِّ، وصـوَّر عند المُظَفَّر أن بنيـه زيَّنوا لابنه الإدمان على الخـمر حـتى هلك، وأدركتْ لذلك أولادَ القَرَوىِّ منـحسـةٌ عظيمـةٌ من نَفْيـهم عن أوطانهم، وأَخْـذِ أموالهم، وقَتْل بعض الـوزراء الذين كانوا حَوَالَى أبيـنا لِمَا اتُّهِمُـوا به، وجانِى القضيَّـة لا يُوبَه له، وتَبَرْمَكَ اليهودىُّ بعـد سَيْف الدولة، وسعى فى إقامة مَاكْسَن عمِّنا.

وكَبِرتْ عند ذلك سنُّ جـدِّنا، وأخْلَدَ إلى الراحة، وزَهِدَ فى طَلَب البلاد لكبر سنِّه وموت ابنه، وألقى بمـقاليده إلى اليهودىِّ فى الخدمـة عنه، فتمكَّن بما شاءَ من الأمر والنَّهى.

٢٢- استيلاء باديس على مالقة[1]:

وإنَّما كان طَلَبُ جدِّنا أكْثَرُهُ وسَعْيُه على أَخْذ مالَقة، فإنَّه، متى كان يأخذ شيـئًا من مَعاقِل الأنْدَلُس، يبلغـه من المُعِزِّ بن باديس أنَّه يقـول: «يخاطِبُنى

(١) مالـقة: بالأندلس، مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر، والبحر فى قبليها، وهى حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار (الروض المعطار).

صاحبُ غرناطة بأَخْذ الكُوَر والقُرَى! أمَا أنَّه لو أَخَذ مثل قُرْطُبة[1] ومالَقة وما أشبهـهما من القـواعد، كُنّا نبايع له فى ذلك!» فجـعله كلامُه يجدُّ فـى خبرِ مالَقة، وللَّذى كان يرَى من اندبار سلاطينها، وتوقُّعه على أن يأخذ البلدةَ مَنْ يُدْخل عليه الداخِلة منهـا، فلم يزل يعاوِدُها سِنين بلا سآمة ولا فـترة، حتى حصل عليها.

وبنى قَـصبَتَـها بنيـانًا لم يقدر علـى مثله أحَـدٌ فى زمانه، وأَعَـدَّها عُدَّةً للمُهِمَّات، وجـعل فيها جميع ما ورث لابنـه، وزاد عليه، وكان الذى يتوقَّع من كَلَب سلاطين الأنْدَلُس واتِّفاقهم عليه لذلك أن يتـحصَّن فيها ما استطاع، وإلا، فيجـوز منها إلى عِدوة بنى عمِّه بأهْله وذخـائره ومُذْ أَخَذَها، حلَّ عن نفسه.

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَبَّاد، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبَة، فوجَّه إليها عساكِرَه، وهزمه عليها، ورجعَتْ إليه بعـد اليأس منها، ولم يُلاقِ سلطانٌ على مدينةٍ ما لاقى هو على مالَقة من طول الـفتَن ونفقة الأموال، فلمـا بلغ منها الغاية من آمـاله، حلَّ على نفـسـه، وتمتَّع بمُـلْكه، ومن ذلك دخلت عليـه الدواخِلُ باستنامته إلى الوزراء وولاةِ البلاد، على حسب ما نقُصُّه بعد هذا.

ولولا ما كـان غَرَضُنا وَصْفَ دولـتنا خاصَّةً، لذَكَـرْنا لُمَعًـا من دُوَل بنى حَمُّود فى مـالَقة، واختلالِ أمرهم واحِـدًا بعد واحد، حتى تصـيَّر الأمْرُ إلى جدِّنا ـ رحمه الله ـ لكن نقتصر على ذِكْر ما نحتاج إلى إيراده إن شاء الله.

(١) قـرطبـة: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقـر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وهى فى ذاتهـا مدن خمس يتلو بعضها بعضًا، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات (الروض المعطار).

فتهدَّنت الحال، وتأتَّت السعادات، وامتلأت بيوتُ الأموال سِنين لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يُرَى معها تشغيب، إلى أن اختلَّت الأحوال بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديِّ ـ لعنه الله ـ وتَصْيير وادى آش وجميع أنظارها لابن صُمَادِح، واستئساد الرؤساء على البلاد، حتى إنه لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمُنكَّب[1] وباغُه وقَبْرة، ولما شاع عند الرعايا خبر موت الرئيس الأجَلِّ ـ فإنَّه كان مُحتجبًا أبَدًا ـ خلَت المَعاقِل من الرجال، وافترصَتْها الرعايا بأسبابٍ نَحْنُ نَذْكُرُها إن شاء الله بعد هذا.

٢٣- علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب ألمرية:

والأَوْلى أن نقدِّم وَصْفَ ولايةِ ابن صُمَادِح لأَلْمَرِيَّة[2]، وعضد جدِّنا ـ رحمه الله ـ لرياسته، وإثباتَه له فى مُلْكه عند قيام ابن أبى عامِر عليه، طالبًا له لخلافه عليه، وأيادى كريمة سلفَتْ من المُظَفَّر قبله، لم يسبِقْه إليها أَحَدٌ من جنسه، ولم تكن مكافأتُه على ذلك إلاَّ أن افترص بلادَه وقَبِل دواخل إلى الإفْرَنْج، يَعِدُهم بالمال الكثير، وأجابَهُ مُجاهِدٌ لِمَا أشار به عليه، وعملت الكلمةُ فى نفسه، فلما هَمَّ ابن أبى عامِرٍ بالرجوع عن لُرْقة يُريد ألمَرِيَّةَ، تأَخَّرَ عنه مُجاهِدٌ، وتبيَّنَ للمَنْصُور قعودُه عنه وخذلانُه إيَّاه، وسألَهُ عن ذلك، فقال مُجاهِدٌ مُخاطِبًا له ولأعلام قوَّاده: «يا قوم إن كنتم لا تعرفون البَرْبَر، ولا جرَّبْتُم حُروبَهم، فأنا، والله، عليمٌ بها! فإياكم أن يكون بَوَارُكم على أيديهم، وأنتُم [ستعلمون] أنَّ فِتْنة عشرين سنة خيرٌ من مُلاقاة ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ فيها

(١) المنكب: بالأندلس، مَرْسى المنكب صيفيٌّ يكن بشرقيه، وله نهر يريق فى البحر، وعليه حصن كبير لا يرام، به ربض وسوق جامع، وفيه آثار للأول كثيرة (صفة جزيرة الأندلس).

(٢) فى المطبوع: «للمرية».

تتلف الدُّوَل، وينتقل المُلْك، ويستأصل الجمع، فعليكم بالتأنِّى!» فقال له ابن أبى عامر: «جَبُنْتَ! ارجِعْ إلى دانِيَة ولا تفسد علىَّ الجيش!» فأقلع على المقام مغضبًا من قذفه.

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم، وأدرَكَ الإفرَنْج الطمعُ، وطلبوا منه ما لا قدرة له به، وانصرف خاسئًا.

وجمع المُظَفَّرُ رجالَه وقال لهم: «كيف تَرَوْن هزيمة هذا العَسْكَر من غير قِتال؟» فأجابوه أن: «قد وُفِّقْتَ! وأنتم، مَعْشَرَ الملوك، لم تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها، وجعل عقولكم أَجَلَّ وأَنْفَسَ من عقول الناس، وبذلك فضَّلتم من دونكم!» ورجع المُظَفَّرُ غالبًا منصورًا، وصار أبو الأحْوَص [ابن صُمَادِح] طاعةً له، لا يروم شيئًا من كلِّ ما بِالْمَرِيَّة إلا وصار إليه، ولا يأمر فيها بأَمْرٍ إلا وكان مِلْكَ يَدَيْه، وبقى الأمرُ على ذلك سنينَ.

وكانت قُرْطُبة فى ذلك الزمان بمنزلة الْمَرِيَّة، إذ كان فيها ابنُ السَّقَّاء، لا يمتنع على المُظَفَّر من رغباته فيها شيءٌ، إلى أن توفِّى أبو الأحْوَص، وترك ابنه هذا المتوفَّى بالمرية ـ رحمه الله ـ عند ظهور المرابطين عليها، وهو إذ ذاك صغير السنِّ، فأرسل إلى المُظَفَّر يرغب إليه أن يكون له فى العضد والحماية بالمنزلة التى كان عليها لأبيه، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقيادًا من أبيه، وسأَلَهُ تجديد العَهْد معه والاجتماع به، فأجابه المُظَفَّر إلى كلِّ ما سأل، ووعَدَه بالذبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه، واجتمع به وجدَّد معه عَقْدًا، وثبَتَتْ رياستُه، وقَرَّ حاله قراره، وداما على ذلك دَهْرًا طويلاً، لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يكابد معها تشغيبٌ.

وكان فى ذلك [الوقت] خدَّامُ دَوْلَتنا مُتَّفقين مع اليهودىِّ، إذ كان وزير السلطان وصاحبَ سرِّه: فمنهم صَنِيعَةٌ له قد استغْنَى معه، ومنهم عَدُوٌّ له، مُؤَازِرٌ فى الظاهِر استدفاعًا لشرِّه، فاتَّسَقَت الأمور بذلك، وأعان بَعْضُهم بَعضًا على خدمة السلطان، وأنِسُوا إلى ثِقَته بهم وعَضْدِ[1] بعضِهم لبَعْض، ولما تهيَّأت له الأُمور، وتوطَّدت الدولة، بعد كلِّ ما ذكرنا من تلك الفِتَن وغيرها، وحصَّل على مدينة مالَقة بعد المكابدة واليأس منها، حلَّ عن نفسه، ومال إلى الراحات التى يستريح إليها الملوك، وفوَّض أمْرَه إلى الوزير والخَدَمَة.

٢٤- وصول النابة إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى:

وفى أَمْكَنِ ما كانت الدولة وأَبْهَجِها، قصدَه النَّابَة، عبدٌ كان للمُعْتَضِد ابن عَبَّاد ـ رحمه الله ـ وكان من جُمْلة من اتَّفق على غدره مع ابنه المشهور خَبَرُه، فأتى للقَدَر الذى لم يكن عنه محيصٌ، واعتنى به جماعةٌ من كبار العَبيد، وطلبوا له من السلطان العَطَايا، فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّنًا لسرورهم، كَىْ يزيدوا فى خِدْمته ونصيحته، وقالوا له: «قَصَدَكَ هذا الإنسان عن مفاسَدة لغَيْرِك وتعويلٍ عليك، وقد أَمَّلَكَ، فما تصنع فيه إنَّما تُسديه إلينا» ودخل غرناطة فى أسْعَدِ وقت له، وأشْغَبِه على الدولة، وسار فى أوَّل أمره مع الخَدَمة بأجمل سيرةٍ وتواضُعٍ لهم، حتى حمدوا طريقته، ونفعوه عند السلطان، إلى أن استعمله فى بعض خِدْمَته وصرَّفه فى ولاية بعض عسكره، وكان لطَلَبِه الثأر من بنى عَبَّاد، قد اكتفى فِى فِتْنة مالَقة واستمال أقوامًا من الجُنْد، وكان فيها مُتَصَرِّفًا بين يدى مُقاتِل بن يحيى قائدها، ولم يزل مُقاتِلٌ المذكورُ، متى خَرجَت مُغيرة إلى بَلَد ابن عَبَّاد، يُعلم المُظَفَّرَ بكفاية النابة

(١) عَضَدَهُ عَضْدًا: أعانه ونَصَرَهُ.

المذكور فيها، حتى كاد يجعل له الحسَّ كلَّه، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركًا بينهما، وصار قائدًا معه فى البلدة، وزاد جِدُّه، ونَما خَبَرُه، وتَضَاعَفَ إحسانُ المُظَفَّر إليه، وكان، متى ما أتى مالَقة، نزل السلطان فى داره، وشرب معه، مع تنويهه به والتزيُّد له من ذلك مع الأيَّام.

وكان، مع تقريب السلطان له مَتَى انْفَرَد به أو افْتَرَصَه على الخَمر، يجرِّحُ عنده اليهودىَّ، ويقول له: «قد أكَلَ مالَكَ، وتملَّك بأعظم من مالك، وبَنَى خَيْرًا من قَصْرِك! فالله الله فى إزاحته والتحبُّب إلى المسلمين بفَقْدِه!» والمُظَفَّرُ فى هذا كلِّه يَعِدُه ويقول له: «لا بُدَّ لى من ذلك، وأُوَكِّلُكَ على قتْلِه!» فَرُبَّما لفظ بذلك بمَسمَع من لا يُؤْبَه له من عبيده والمُتَصَرِّفين بين يديه، فينقلون ذلك على المقام إلى اليهودىِّ ليَصِلَهُم عليها، فلا تزداد نفسُ الخِنْزِير إلاَّ حماقَةً ومُنافَرَةً، ويكاد أن يموت همًّا وحنقًا، مع حسده له على المنزلة التى خُصَّ بها دونَه، ورام مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام، فلم يقبل منه، فلما رأى أنَّ منزلته لا تزداد إلا ترفيعًا، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته، انقطع رجاؤه من كلِّ وَجْهٍ وقال: «إنَّما اسْتِهْزَاؤُنا بالناس من أجْل عزِّ السلطان! وأَمنَّاهُم على أنفُسنا بحمايته وعنايته، وأمَّا الآنَ، فقد انقطع الرجاءُ: لا سلطان نأمَنُهُ وقرين سُوْءٍ يطلُبنا عنده، وعامَّةٌ تريد هلاكَنا، ونَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُون فى الأرض!».

٢٥- إجلاء الأمير ماكسن بن باديس:

وكان [اليهودىُّ] قد ألقى يَدَه فى عمِّنا ماكسن، رجاءً منه أن يسند إليه، فكان من أشدِّ الناس عليه، ولم يكن حَوَالَيْه رجلٌ رشيدٌ يُسَدِّده ويأمُرُه

بالمُداراة، إلى أن قال له مواجَهَةً: «أتُرِيدُ أن تقتلنى كما قَتَلْتَ أخى؟» فعملَتْ فى نفس اليهودى، وكان ماكْسَن مع هذا كُلِّه سَيِّئَ الطريقة، قليلَ البِرِّ، خَشِنَ الكلام، يَعِدُ الناس بالشرِّ، حتى كرهَهُ أَهْلُ دولة أبيه وأبغضوه، وكَثُرَ عليه الطَّلَبُ عند أبيه.

وكانت أُمُّهُ تَتْرُك معاملة الوزير الذى ألقى يَدَه فيه، وتميلُ إلى خَالِه: يهودىٌّ يُعْرَف بأبى الربيع بن المَاطُونى، وكان قابض الوجيبة، فتخاطِبُهُ أبدًا، وتَطْلُبُ منه مالاً باسْمِ السلف، فغارَ الوزيرُ لذلك، وعمل على طَلَبه وطَلَبِ أُمِّه وحاشِيته، وافترى عليهم عند السلطان، وشهد له على ذلك جماعةٌ من أهل الدولة، ممَّن نقموا على ماكْسَن قَبْلَ ذلك ما قدَّمْنا ذِكْرَه، وأُغْرِىَ بهم حتى جعلَتْه الأنفة من مكروه ما نُقِلَ إليه أن يأمر بقَتْل أُمِّه ودَايَاتِهِ وبَعْضٍ من انتمَى، وقتل الوزيرُ خَالَهُ غدرًا فى منزله على الشراب لخلافه عليه فى هذا وغَيْرِه، واتَّقى منه نصيحة السلطان، وأعطاه على ذلك مالاً جسيمًا، لئلاَّ يثرب عليه قَتْله، فقبل السلطانُ ذلك منه، وودَّ أن لو قَتَلَ كلَّ يومٍ يهوديًا، فيُغْرِمَ عليه مالاً.

ثمَّ أمر بعد ذلك بنَفْىِ ولَدِه، وكان من آكَدِ الأسباب فى نَفْيه أن خرج السلطان يومًا لعَرْض الأجناد، وقتَ الفِتْنة مع ابن صُمادِح، فانتدب إليه من شيوخهم من قال له: «ما ينبغى لك أن تُقَدِمَ علينا العَبِيد وغَيْرَهم، وتَتْرُكَ مثل هذا الابن! أرْسِلْهُ معنا، وتتَّبعه فى كلِّ مُلِمَّة!» يعنى ماكْسَن، فعزَّ ذلك على أبيه، مع سَخْطه عليه لما كان يرَى منه ونُقِلَ إليه عنه، وخاف أن يكون وراءَ هذا الكلام فعلٌ بأن يخملوه ويقدِّموا ابْنَه، وجزع اليهودىُّ لذلك جزعًا شديدًا

وقال: «مـا حسبتُ نفـسى فى ذلك اليوم إلا مقـتولاً!» فأعْلَـمَ السلطانَ بهذه الوجوه، وأمر على المقـام بنَفْيِه عن البلَدِ، ووجَّه معه من عبـيده من يُخْرِجه عن نَظَره كلِّه، ووصَّى اليـهودىُّ ـ لعـنه الله ـ ذلك العبـد أن يَصِلَ معـه إلى موضع سمَّاهُ بحيثُ يخفى أمْرُهُ، فيضرب فيه عنقَه.

وكان أخونا الـمُعزُّ قد ربَّاه جَدُّه، ونال مـعه الكرائم، وأحبُّـوهُ فى حُرْمة أبيه، واتَّفق رأىُ الجمـيع مع اليهودىِّ على قَتْل ماكْسَن وتوليـةِ المُعزِّ، حذراً على أنفسهم من ماكْسَن أن يثور عليهم ويعـاقِبَهم بمَحَبَّتهم فى [ابـن] أخيـه وتَرْبيتهم له، فكان من ذلك ما أمَّلُوهُ.

وخرج عَـمُّنا على أسْوأ حال، مـذعوراً، خائفًا، بَعْـضُهم يُشيـر بقَتْله، وبَعْضُهم يـأبَى إلا إزاحته عن النَّظَر كلِّه، حتَّى صـار ببعض الطريق، وانحلَّ عن غُمومه بهلاك اليهودىِّ، على ما نذكُرُه بعد هذا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢- من موت ابن تغزالة إلى نهايتها

٢٦- مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله:

وإنَّ الخنزيرَ ـ لعنه الله ـ لما رأى طغيان النساء، وكلُّ فرقة منهنَّ تُريد ولاية مَنْ تُربِّيه من أبناء السلطان، ورأى تغيُّر مولاه عليه وإمعانَ الغاية فى مُطالَبته والازدياد فى جاهه، لم يَجِدْ فى الأرض مَهْربًا، ولا وجد إلى التخلُّص سبيلا، وشاوَرَ فى ذلك مَشْيَخَته من ذوى الرَّأْى، فقال بعضهم: «انْجُ بنفسك، وقَدِّمْ جُلَّ مالكَ إلى أىِّ البلاد أحْبَبْتَ، تَسْتَوْطنها غَنِيًا آمنًا!» فقال: «ذلك مُمْكِنٌ لولا أنَّ الرئيسَ الأجَلَّ، إن أرسل فىَّ إلى صاحب تلك الجهة، يقول: «ذهب وزيرى بأموالى: إمّا أن تصرفه علىَّ، وإمّا أن أُفاتِنَك!» أتَرَى أنه يبيع الرئيس عنِّى؟ هذا ما لا يجوز إلاَّ أن أُصيِّرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما، ونأمن على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يُمكنه إسْلامى، وأنا قد وضعتُ فى يده بلادًا ومجدًا كبيرًا!» فاتَّفق رأيهم على مُخاطبة ابن صُمادِح، وأنَّه الأولَى لجيرته وقربه من كلِّ أمْرٍ يحتاج إليه فيه.

وأخبرنى رسولُ ابن صُمادِح ابنُ أرْقَم، وكان قد تخيَّروه للرسالة حينئذ، قال: حضرتُ يومًا مع المظفَّر ـ رحمه الله ـ وقد خرج إلى بعض متنزَّهاته والنايةُ معه، واليهودىُّ وراءه، حتى بصر النايةُ بحكيم كان للوزير، يهودىٍّ، فأمر بإهانته وإرجاله عن دابَّته بحضرة الرئيس، وتوقَّح فى ذلك، وأبلغ فى شتم اليهودىِّ، فاستعظم اليهودىُّ ذلك وقال لابن أرْقَم: «حسبك هذه

الإهانة، ولا صبر عليها! فإن كُنتم تستطيعون لى على شىء، وإلاّ فلا بدَّ من الترامى على غَيركم!» فقال له ابن أَرْقَم: «أنت جديرٌ بالتثبُّت فى هذا الأمر! وأى ضرورة دفعَتْك إلينا وبيدكَ الرعايا، وإليك تُجبى الأموال؟ والسلطانُ لم يغيِّر عليك شيئًا أكثر من همزات هذا المُطالب! فاحتَلْ بأن تُصابِرَ الأُمور إلى أن يموت الشيخُ، لا سيَّما أنه قد أَسَنَّ، وتُلقى يَدَك، فى حفيدة المُعزِّ، وتبقى حالُك معه حسب ما كانت مع جدِّه، وهو أَقْرَبُ إلى السلامة!» فقال له اليهودىُّ: «كنتُ أفعلُ ذلك لولا أنَّ المُعزَّ صغيرُ السنِّ، وله أَمَّهات وطبقات جَمّة من النساء والحاشية، فكيف نرجو معهم الفلاح؟ والحال إذ ذاك تكون علىَّ أشدَّ لاختلاف أهوائهم، وقد صحَّ عندى أن الصبىَّ يحقد علىَّ ما قاله الناس من سَقْيِ أبيه، وقد أَدَرْتُ هذه الوجوه، فلم يتَّجِهْ لى منها أَمْثلُ من الترامى على المُعتَصِم!» فقال ابن أَرقَم: «دخلتُ على المُظفَّر، وألقيتُ إليه من الكلام رُموزًا، وقلتُ له: «أَيَّدَكَ اللهُ! تَيَقَّظْ! فإنك لم تَطْعَن فى السنِّ، ولا بلغتَ فيه مبلغًا يولد عليك الغفلة عن دَوْلَتك» وجاءَ منِّى أن يستَفْهِمَنى عن الكلام وأَقُصَّ عليه بَعْضَه، فدعا اليهودىَّ وقال له: «انهضْ إلى ابن أَرْقم وقلْ له: لأىِّ وجهٍ قال لى الآن: تَيَقَّظْ!، واستَفْهِمْهُ عن ذلك!» فجاءَنى اليهودىُّ وأخبرنى بالقضيَّة، فدهشتُ لها ومِتُّ، ولم أجِدْ جوابًا، فاتَّهمنى الخِنْزِيرُ، وخاطب بأمرى المعتصم وأشار عليه أن يُقعِدنى عن الرسالة ويوجِّه فيها من يشقُّه، فسفر فيها رَضِيعَه وأَمَرَه بنسج الأمر معه، وكيف الحيلةُ فى تصيُّر الدولة إليه، وغرناطة معدن الجيش، وفيها من صِنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم؟ وقال له: «لا تُدْخِل نفسك

والمُعْتَصِمَ فيما لا يتمُّ وتَفتضِحُ فيه مع المظفَّر، وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة! وتخزى معه، وتكون سببًا إلى هلاك نفسك والفساد عليه!» فرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِجَ من البلاد كلَّ من يتوقَّع قيامَه.

وتخيَّر من كبار صِنْهاجة وغيرِهم من العبيد، الذين يخشى معرَّتهم، أقوامًا، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقِلِ المُهِمَّة، وصكَّك لهم بها، وقال لهم في سرِّ الأمْر: «أنتم إخوتي، وقد أُخْمِلتُم معي، ورأيتمونى! وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغي لكم إنكارُه بأن يقدِّم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنُكم، وتبقى ولايتُه عارًا عليكم وشنارًا ما بقي الدَّهرُ، وقد نصحت السلطان في أمره، فلم يقبل منِّي، ولا يُقدر على مُضادَّته، والآن أتوقَّعُ على هذه البلاد الشريفة والمَعاقِلِ الفارهة أن يليها من قِبَل النايةَ مَن يشقى به الجميعُ، ولا نقدر معهم على إمساك الدولة، وتكون لهم الصولة علينا، ثم لا مَهْرَبَ إلا إلى يديه، فإذا أمْسكْنا معاقلَنا وكان بنو عمِّكم بالحضرة، يتجسَّر على تَبْديدِيكم، وكان أمره بعد ذلك هيِّنًا، متى أراد التغيير، قتلناهُ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدِنا وأمر بنَفْيِهِ على يديه، لَجأَ إلى مَعْقِلِ صاحبِه».

فقبل القومُ قَوْلَه، مع شَرَهِهِم إلى ولاية البلاد، وبادروا إلى ذلك، فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنكَّب، ومُسكَّنَ بن حَبُوس المغْرَاوِيَّ إلى جيَّان، ومَن سِواهُم إلى غيرها من القواعد، وزَيَّن للسلطان أن ذلك من وجْه النَّظَر له، وأنَّه لا يحمي القواعد إلاَّ كِبار الرجال، وأن المعزولين قد صَحَّ عنده غفلَتُهم وتضْيِيعُهُم، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه المشَابِه، لِثِقتِه به.

وكتب [اليهودىُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القَوْم الغَوْغاء من المدينة، وأنّه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَه له، ويحصدهم سَيْفُه إذا دَخَلَها، وأنّه مُتَهَيِّئٌ لفَتْح أبوابها متى جسر وطرقها، وضيَّع النَّظَرَ فى سائر الحصون غير القواعد، وأهْمَل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه الغفلة، حتى خلَتْ.

والمُظفَّر، فى هذا كلِّه، لا خَبَرَ عنده إلا الإقبال على الشرب والدَّعة، فلما خَلَت المَعاقِل، وصحَّ عند أهلها، بإهمالهم واحتجابِ السلطان عنهم، أنَّه قد مات لا مَحالةَ، وتصايَحَت بعضُها لبَعْض، وَخَلَّتْ بأقطارها، وافْتَرَصَها رجالُ ابن صُمادِح، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إلا حِصْن قَبْرَيْرة، على مقربة من غرناطة فى طريق وادى آش.

وأرسل اليهودىُّ على المقام لابن صُمَادِح، يلحُّ عليه فى الإقبال إلى المدينة، وأن لا مانِعَ يمنعه، فالتوى عن ذلك ابن صُمادِح، وجزع من الجسر على مثل غَرْناطة، إلى أن اتَّسع الخَرْقُ وتَمادَى النفاق، وصار اليهودىُّ مُتَنَقِّلاً من داره إلى القَصَبة حِذْرًا من العامَّة، حتى يتمَّ ما أمَّل، فأنكر ذلك الناسُ، مع بُنْيانهِ لحِصْنِ الحَمْراء على أنه، إذا دخل ابن صُمَادِح البَلَد، صار هو بأهْلِه إليها، إلى أن تتوطَّد الحالُ، فأنفت العامَّة والخاصَّة لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال، ورأوا من الرُّتَب خِلافَ ما عهدوه.

وللَّذى أراده الله من هلاكهم فى يوم السبت لعشر خَلَوْن من صَفَر [من سنة ٤٥٩] استعمل اليهودىُّ الشراب تلك الليلة مع أقوامٍ من عَبيد المُظَفَّر، كانوا قد عاقَدُوه واتَّفقوا معه، وبعضُهم فى السرِّ يشنأُهُ، فأعْلَمهم بأمْر ابن

صُمادِح، وأنه وارِدٌ عليهم ومسوِّغٌ لهم من القُرَى فُلانة وفُلانة من فَحْص غرناطة، فانتدب إليه أَحَدُهم ممَّن كان يكمن بُغْضَه، وقال له: «قد عَلِمنا هذا! فأَخْبِرْنا عن تسويغك هذه الإنْزَالات، أَهُوَ مولانا حيٌّ أو ميِّتٌ؟» فردَّ عليه بعضُ حاشية اليهوديِّ، ووبَّخه على قوله، فأنف ذلك العبدُ وخرج فارًّا على وجهه [وهو] سكران، يصيح بالناس ويقول: «يا معشر من سمع المُظفَّر قد غدره اليهوديُّ! وهذا ابنُ صُمادِح داخِلٌ فى البلدة!» فتسامع لذلك الناس أجمع خاصَّتُهم وعامَّتُهم، وأتوا عازمين على قتل اليهوديِّ، فتحيَّل على المُظَفَّر حتى أخرجه إليهم، وقال: «هذا سلطانكم حيٌّ!» ورام الرئيس تسكينَهم، فلم يقدر، واتسع الخَرْقُ على الراقِع، وهرب اليهوديُّ بنفسه إلى داخِل القصر، واتَّبَعَتْهُ العامَّة حتى ظفروا به وقتلوه، وأحالوا السيف على كلِّ يهوديٍّ بالبلدة، وحصلوا على عظائم من أموالهم.

واستأسدت إذ ذاك صِنْهاجة، وطَغَوْا بما صنعوه على الرئيس، مع الفِتنة المُصْطَكَّة عليه من كلِّ قطر، وكانوا هُم الوزراءَ ومُدَبِّرى الدولة، والمُظَفَّرُ من هذا كلِّه تحت خوفٍ وذلٍّ، قد حقد عليهم ما صنعوه بوزيره، من غير أن يَعْلَم بشىء من دواخِله، ولا صدق قَوْلهم عليه، وسائرُ أمرِه معهم بالمداراة والصبر، إلى أن تفتَّحت له البلاد، ورجعت طاعته إليه بما نَحْنُ نذكُرُهُ بعد هذا إن شاءَ الله.

ولما مضى مُسَكَّن إلى جَيَّان، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، أَلقَى فى طريقه عَمَّنا ماكْسَن، يحمله الصِّقِلِّيُّ، فاستَنْقَذَهُ، ومشى به إلى جَيَّان، وقال: «لا فائدةَ أكبر من هذا: ابن الرئيس يكون معى حُجَّةً على ما أُريدُه من مُلْكِ جَيَّان أو

غيرها؟ وسينقاد إليه الناسُ، ونحصل على عظائم!» كالذى كان، فوَلِىَ جيّان باسْمِهِ، وصار حاكِمَها مع بنى عمِّه، وحصَّل إذ ذاك من أموال اليهودى فيها على ما لا يتحصَّل، وبقى ثائراً على أفضلِ حال.

٢٧- الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع

وادى آش من أيدى ابن صمادح:

وإنَّ المُظَفَّر، لما رأى ما نزل به من كَلَبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه، وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ، جمع الناس وقال لهم: «ما تَرَوْن فى أمرِ وادى آش، وتصيُّرِها إلى ابن صُمادِح، واستحواذِه على أنظارِنا؟» فأجابه قوَّاده وجملةُ رجاله أن: لا دواءَ لهذا، إلا أن تبذل الأموال، وتترك الدَّعة، وتُباشِر الأمر بنفسك!» فقال لهم: «مَثَلى ومَثَلُ ابن صُمادِح كمَثَلِ القُبَّعة التى كان بإزائها عشٌّ إوزّة، فأعجبها بيضُها، فقالت: «لأحضننَّ هذا البيض، يكون خيراً من متاعى!» فلما رامت ذلك، عجزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحاها عن التحضين، فلما رجعت إلى متاعها، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ، وكذلك ابن صُمادِح: تعدَّى على بلدى، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديمًا بيده» فقَوِيَتْ نفوسُ الناس، وادَّرع الحزمُ والعزمُ، وتأهَّبَ للمسير، واجتمعت إليه الأجناد [وفرَّق] فيهم العطايا، ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَها.

وكان فى أوَّل الفتنة، للذى رأى من قيام رعيَّته وخشى خلاف الجميع، قد وجَّه لابن ذى النُّون، صاحبِ طُلَيْطُلَة، يعلمه بما دهمه من الأمر، ويسأَلُه صِلَةَ يده به، وأنّه ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار، فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك، ولحق به، وهو على وادى آش قد حاصَرَها

وقَرُبَ مَرامُها، واجتمع معه إلى أجْمَلِ هيئة وأتمِّ رتبة، وفى قَصَبَة وادى آش ذلك الوقْتَ وزراء صاحبِ ألْمَرِيَّة وأكابرُ رجاله، فاشتدَّ عليها الحربُ، وكَثُر الإنفاقُ، حتى إنه انتهت النفقة عليه، على ما رأيته مكتوبًا بخطٍّ يد جدِّى ـ رحمه الله ـ ستَّةَ بيوت من المال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً، البيتُ منها ألفُ ألْفِ دينار ثُلُثِيَّةٍ.

وصار ذلك مَثَلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه.

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَة من أكابر أهل ألْمَرِيَّة ما دهمهم، وأنّه لا مَلْجأ لهم إلا الهرب أو السَّيْف، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، تحيَّلوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون، وهُمْ على الهلكة، يعلمونه بما هم فيه وقَطْعِ رجائهم عن إمداد صاحبهم، ويسألونه أن يتوسَّط أمرهم مع المُظَفَّر، ويأخذ لهم العَفْوَ، ويخرجُون على سلامة، ووعدوه على ذلك، إن هو استنقذهم، أن يُصيِّروا ألْمَرِيَّة مُلْكه، وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يَنْتَهِ إليها مَلِكٌ، فطَمع فى قولهم ذلك، وترامَى على جدِّنا، ورغب إليه، فأَسْعَفَهُ، حتى خرجوا وأخْلَوْا له القَصَبَة، وثَقَّفَها بحماة رجاله.

واستنجز ابن ذى النون وَعْدَه، وقال: «إنَّ الذى أُريد من هذه البلاد بَسْطَةَ[1]» فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من إنجاز وَعْده، وأمر بإخلائها له، وتفتحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أربت على التى انصرفت إليه.

وأرسل إليه ابن صُمادِح بعد ذلك، يسأله العَفْوَ والإغضاءَ على ما كان منه، وأنَّه لا يتعرَّض من ذلك شىءٌ لولا اليهودىُّ، وخوفًا، إن أهمل البلد،

(١) بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادى آش، عامرة آهلة حصينة ذات أسوار، وبها تجارات وفعلة بضروب الصناعات (الروض المعطار).

أن يتعدَّى عليه من يخشى داخلَته، وترامَى على جدِّنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك، ويجدِّد عقـدًا، ففعل وقبل اعتذاره، ويُحْكَى أنَّه، عند اجـتماعه به، كان أوَّلُ ما خاطَبَه به: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧) فأجابه المُظَفَّر على البديه: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (يوسف: ٩٢).

٢٨- الحركة الموفقة التى قام بها باديس

لانتزاع مالقة من يد ابن عباد:

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده، وتوطَّدت له الدولة، وكان قبل أَخْذِه لوادى آش قد أَخَذَ مـالَقة، وقدَّمها قَـبْلَ شغْله كلِّه، وكان قائدُ عـسكره إليها تلك السفرةَ يحـيى بن يِفْران، وكان الرجلُ من أكابر تَلْكَـاتَة وكان مُطاعًا فى قومه، قـد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنـة، ولمّا استأسَدَ صِنْهـاجة، على ما قدَّمنا ذكره بعـد قتل اليهودىِّ، تَرَأَّسَ فيهم يحـيى المذكور، ونال من الرئيس كثيراً من ماله وعرضه، فحـقد ذلك عليه، وكان عازمًا على أنه، إذا انصرف من فتح مالقة، أن ينظر فى خلعه، ويثور عليـه مع بنى عمِّه، وكان الخَبَر قد طرأ إلى جدِّنا، فـقضى الله تعـالى أن مات يحيى المـذكور فى تلك السـفرة مقتـولاً فى الوقيعة، فـقال عند ذلك المُظَفَّر: «أَتَتْنا فى يوم واحد فـرحتان: أَوَّلُهما مـوتُ يحيى، والأُخرى فَتْحُ مالَقـة!» ثمَّ نهض على المقام إلى وادى آش، ففعل عليها ما وَصَفْناهُ.

وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مالَقة المذكورة قبل هذا الفتح، وامتنعت له القَصَـبَة لِمَا كان فـيها من كفـاة المَغَارِبة، وقـائدُها ذلك الوَقْت مَخْلُوفُ بن مَلُّول، شيخٌ كبيـرٌ من ثِقَاته، وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبْرًا منهم، وكـثرةَ بُقْيَا،

وأَنَفةً من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقَصبَة المذكورة، إلى أن ورد العسكرُ، وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد، فمُنِحوا عليهم الظفر، ودخلوا عَنْوةً.

وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لداخلةِ أهلها ومَيْلِهم إليه، اختياراً له علينا، على إحسان المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ إليهم، وأنَّه وجدهم على أَسْوَأ حالة، فأصلح من أحوالهم كثيراً، وحمل فُقَهاءَها ومُقْرِئيَها على المَطايا، وأنزلهم على أفضل المَراتب، ما كان مشهوراً عنه فى الأقطار، إذ كانوا قَبْلُ فى حال قلَّةٍ وعلى غير رتبة، ثمَّ كافأُوه بما فعلوا، وبعد ظفره بهم، عفا عن ذلك كلِّه، وزاد فى مَراتبهم، ولقد اختُطِبَ لابن عَبَّاد مُدَّةَ كونه فيها، وحُكِيَ أنَّه قيل فى الخطبة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) فلم تعطِ السياسة مُعاقَبةَ أحَدٍ منهم، إذ كانوا فيه سواء، ولا يصحُّ إمساكُ بلدةٍ إلا بأهلها.

فقرَّ مُلْكُ جدِّنا قَرَارَهُ، وجبر الأموال، وزادت الجِبَايات.

٢٩- الكشف عن أمر فنيانة[1] وفتنتها:

ولما انصرف من فِنْيَانَة، غزوتَه تلك الوادى آشِيَّة، دعا بقائدَيْه [النابة وعبد الله بن القَرَوِيِّ] وكانا على العسكر مُدَّةَ فتْنة وادى آش، وامتحن على أموالهم أين أُنْفِقَتْ: أكانت فى واجبٍ أَمْ زِيفَتْ، لِمَا استعظم من النفقة، وجمع القائدَيْن والكَتَبة، وكشف على ذلك غاية الكشف، وكان النابة من أهْلِ التجربة والفكرة فى العاقبة، قد عمل هذا الحساب، وأخرج منه نَفْسَه:

(١) قرية بقرب وادى آش من الأندلس جامعة خطيرة كثيرة الكروم، وكان بها طرز للديباج، والمياه تطرد فى جميع جنباتها (الروض المعطار).

فمَتى وردَتْ أموالٌ من غرناطة للعَطَاء، يتحرَّى عنها، ولا يقبض منها شيئًا، ويقول للذى يأتى بها: «احْمِلْها إلى خِباء الشيخ عبد الله بن القَرَوىِّ، فهو أَعْلَمُ بما يصنع، وهو أَسَنُّ وأَدْرَبُ!» فاحتجَّ النايَةُ بهذا الفعل عند المُظَفَّر، وأتى على ذلك بالبُرْهان، وتبرَّأ منها، وغضب الحاجِبُ على عبد الله ساعتَئذٍ، وأمر بنَفْيه.

وكان أكثرُ الجند يشنأُ النايةَ على ما وَصَفْناه، ويؤثر عبد الله لتَرْبِيَته معهم، فشق ذلك عليهم، وأَدْرَكَهم من الأَنَفة أن خرجوا كلُّهم حُرْمةً فى عبد الله، وأَخْلَوْا عليه المَحَلَّة، وزال عنهم أكابِرُ صِنْهاجة أجمع، فلم يصبح الحاجب بِفْنيانة منهم معه أَحَدٌ، ورَجَوْا أن يكون يرغب إليهم، ويفزعونه بتلك الفعلة، فأتى إليه النايةُ يرعد فَرَقًا، وأخبره بالقِصَّة، فقال المُظَفَّر فى نفسه: «لا خَيْرَ لى فى ودِّ[1] هؤُلاء! فإنَّ ذلك مما يزيدهم طغيانًا، وتجرُّهُم العادةُ، متى أَحبُّوا الخلاف، على أن يمتثلوا هذه الطريقة، ولا حاجة بى إلى إمساكهم، وفى مُضِيِّهم الغنيمة والراحة!» فسكت عنهم وتركهم على أَهوائهم، فصاروا فِرَقًا وأَشْتاتًا، منهم من مضى إلى جَيَّان يريد مُسكَنًا ابْنَ عَمِّهم، ومنهم من انقطع إلى شَرْق الأندَلس، ومنهم من رجع إلى غرناطة على خفاء يُرَى أنه لم يكن فى الجملة.

وأَقْلَعَ المُظَفَّر عن فِنْيانة وأتى غرناطة، لم ينقصه من ذلك شيءٌ، ولا عدم جُنْدًا، واستوزر النايةَ، وبقى على الدَّعة والتمكين دَهْرًا طويلاً.

---

(١) فى المطبوع: «فى ردِّ».

٣٠- استيلاء باديس على مدينة جيان:

ولمّا تمكَّن ماكْسَن من جَيَّان، وثار معه مُسكَّنٌ مع بنى عمِّه، أَقْلَقَ ذلك جدًّا، وخاف النايةُ على نفسه منهم، وجزع من أن يَتَّفِقَ مَنْ هنالك من بنى عمِّهم وسائر البَرْبَر الذين بغرناطة، ويقتلوه، ويسعوا فى ولاية ماكْسَن، ولم يَرَ المُظَفَّر - رحمه الله - لمُفاتَنَته وَجْهًا، وإنَّ مُسايَرته ومُداراته أَوْلَى، وإنَّ فى فِتْنَته من العار وسوء القالة أن يُقالَ: «رجع المُظَفّرُ يُكابِدُ فتْنةَ ابنه، وإن أعياهُ أَمْرٌ عجز!» فتَرَكَه على حاله، ورأى أنَّ السعْىَ عليه بالمُداخَلة أَوْلَى، والناية، فى ذلك كلِّه، يجدُّ ويَجْتَهِدُ، خوفًا على نفسه، ويَبْذُل الأموال للمَغَاربة، ويرسل منهم إلى قَصَبَة جَيَّان مُتَخَيِّسين مَنْ يُداخِلُهم.

وكان مُسكَّنٌ قد أَخملَ عَمَّنا ماكْسَن، واستبدَّ بالرأى، وجمع الأموال دونَه، وصار له ماكْسَ بمنزلة البازى الذى يُصَيَّد به، وماكْسَن لا يقدر على أكثر من الصبر، إذ لا فِئَة غيرهم، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له من الموت، ورأى إقرارَ روحِه فى جسده غنيمةً، فَضْلاً عن طَلَب ما سِوى ذلك، فلم يَزَلْ أبدًا يُداخل عليه بالأموال، حتى استمال جميع مَغَارِبة القَصَبة، وكان، مُدَّةَ كونه بجيَّان، يُخاطِبه أقوامُ من صنْهاجة فى مَحَبَّته، ويقولون بذلك فى المحَافل والمجَالس سرًّا وجهرًا، ويرَوْن ولايته خيْرًا من تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشْبَهَهم، قد سئموا من ذلك، وأشربوا المُظفر من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا لَخَلَعُوه، لكِنَّ السعادة والمُدّة لم يقطع عليها قاطِعٌ! والرئيس من هذا كلِّه تحت أَمْرٍ عظيم، والناية متوقِّعٌ للقتل مساءً

وصباحًا، وتكثُر عليه الأَراجيف مع الساعات، إلى أن نجعت تلك المُداخلة: فقام المَغَارِبةُ بالقَصَبَة على ماكْسَن، وخرج منها فارًا بنفسه، هو وجميع من معه، وهرب مُسكّن، لا يلوى على شىء، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، ووقع فيهم البهتُ، إذ لم يدروا من حيث أتوا لمّا سمعوا النداءَ بالليل: «لا طاعةَ إلا للمُظَفَّر!» وعجَّل الحاجبُ بثقاف جيَّان واستراح من تلك الفئة.

ولقد حُكِىَ عن المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ أنُه لما تهَيَّأَتْ له هذه السعادة، رأى النايةَ مهمومًا، فسأله فى ذلك، فقال: «اهتمَمْتُ لخلاص هذه الشرْذِمة بأرواحهم، ولسنا نأمن شرَّهم فى البلاد! «ومِنْ ثَوْرٍ حَىٍّ لا يُلْبَس هرَاكِيس!» واسْمُ ولَدِك كبيرٌ!» فأجابه المُظَفَّرُ أن قال: «الذى حلَّ بهم أشدُّ من القتل، لخلائهم عن أوطانهم وكَشْفهم فى انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولّى خِدْمَتَهم ويُرْكِبُهم ويُنْزِلُهم، والموتُ دونَ هذا راحةٌ!».

فقصد ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، وصار بها عند ابن ذى النُّون مُكْرَمًا، على حال الجُنْديّة، وتقلَّب مُسكّنٌ فى البلاد، يخدم الجُنْدية، وصاروا أبادِيدَ.

٣١- استيلاء النايةعلى بياسة[١].

وزاد جاهُ الناية بغرناطة، وأَخْمَلَ صِنْهاجةَ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بزَعْمَه على اليهودىِّ وعلى الحاجب فى ابنه، واستخصَّ بنى بِرْزال وأَحْسَن إليهم، وقرَّبهم من نفسه، وهُمْ كانوا أَولياءَهُ وأَنْصاره، وبثَّ فيهم العطايا، وأخلد السلطانُ إلى الراحات.

(١) بياسة: بالأندلس، بينها وبين جيان عشرون ميلا، وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى، وبياسة على كدية من تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، وهى مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وحولها زراعات، ومستغلات الزعفران بها كبيرة (الروض المعطار).

ثمَّ إنه، لما فُــوِّضَ له الأمْر، رأى أن يجعل لنفســه ذِكْرًا وثناءً يؤثَر عنه، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها، فانتدب إلى مدينة بَيَّاسة، وقال للمُظفَّر: «إنَّ مُداخلةَ بعض أهلِهــا عندى!» وكانت إذ ذاك لولَد مُجَاهِد فـقال له الحاجِب: «لا تتعــرَّض إليهــا، ونَحْن فى دَعَةٍ! وكــأنِّى والله أرَى تُنفق عليهــا الأموال، وتُهْلك الرجال، ولا نُـحَصِّل على فائدة!» فـألحَّ عليه وزيَّن له الأمــر، حتى أجابه إلى ما سأل، وأمَرَهُ بالمَسِير، وهَـيَّأَ معه الجيش، وأعطاه الأموال، فَرَامَ من بيَّاسة أمرًا عظيمًا: كلُّ ذلك يتعذَّر من أمرِها ما لا يُرجَى به أخذُها، حتى سئم السلطان النفقة ومنع منه المال.

وكان فى الــمَجْلِس مــمَّن يُطالبه بذلك رجلٌ كــاتبٌ للمُظَفَّر يُعــرف بابن أَضْحَى، ويقول للحاجب: «لم تقِمْ بيَّاسة وعشــرةٌ أمثالُها ببعض هذه النفقات التى كُنْتَ عنها فى غِنًى!» وكلُّ ذلك يتَّــصِل بالناية، فيُخْرِج المــغايرَ، ويغنم الأغنامَ، ويوجِّهُ بهــا إلى مولاه ليَجْبُــرَ منها بعض نفقــاته، فكان ابن أَضْحَى يبيعهــا ببخْسٍ من الثمن، ويُحضر المال بين يديه، ويــقول له: «أين هذا ممَّا أنْفقت؟» فيخرج أخلاق المُظَفَّر عليه، فيــصبر عليها الناية، واستسلف طعامًا كثيرًا من شيوخ جَيَّــان، وكان بانيًا على أنَّه، إن لم يقدر فيها على شىءٍ، أن يكون ذلك طريقَهُ فــارًا، لا ينصرف إلى غــرناطة، إلى أن استفــتحهــا بكثرة المؤَاظبة والمُلازمة، وكانت عليه الصولةُ على مُطالــبيه بذلك، ودخل المدينة فى عِزَّةٍ ورفــعةٍ وإكرامٍ من السلطان جــسيمٍ، مُهَــدِّدًا لمَنْ طالَبَهُ، ومُسْــتَطيلاً بذلك مُعْلِنًا.

وقدم إلى المُظَفَّر يقول له: «لا أدخُل البَلَد حتَّى تأمُر بَنفى ابن أَضْحَى أو

أنْصَرِف من مكانى هذا!» فـرأى الحاجِبُ أنَّ نَفْىَ ابن أَضْحَى أوْلى من فـساد عسكره، فأمر بنَفْيه، بعد تَغريمه وإهانَتِه، وخرج من ذلك الوقت ساعيًا على الدولة ومُطالبًا لها إلى زمان ولايتنا، حـتى أظفرنا الله به، على ما يأتى ذِكْرُهُ بعد هذا.

٣٢- مؤامرة ضد النايه ومقتله:

وإنَّ وزراءَ الدولة وكثرةَ عبيـدها، لمَّا بصروا بما فعل النايه، والزيادة فى أمْـره وجاهِه وأنَّه هو الحـاكِمُ دون السلطان، حتى قـالوا: إنَّه طامِعٌ بالرياسة ولا قيـام مع بنى بِرْزَال، وشنع ذلك عليه، أدركَتْـهُم منه أَنَفَةٌ عظيمةٌ وحـسدٌ شنيعٌ، فاتفق رأيهم أجـمع، أعنى ولاةَ البلاد: منهم وَلَدُ القَـاضِى، صاحِبُ بَاغُه وابنُ يَعيش، صـاحِبُ قَبْرة[1]، ووَاصِلٌ، صاحبُ وادى آش، والـقاضى ابنُ الحَسَن النُّـبَاهىّ بمالَقـة أنَّه متى قدِم إحـدى هذه الجهـات، قُتِلَ فيـها، وأرْسِلَ فى ماكْسَن ـ وقُدِّم ـ أراد والِدُه أم لم يُرِدْ.

ثمَّ إنَّ النفر المـذكور عملوا رأيهـم، وفكَّرُوا فى العاقبـة، ورأوا أن يقتله واصِلٌ العِـلجُ بوادى آش [فـيكون ذلك] أستر لقـتله وأبعد للظنِّ بهم: فإن عاقبَ، عـاقَبَ غُلامَـه وتَبَرَّأوا من ذلك، فـوُعِد واصِلٌ المذكـور على ذلك بالوزارة مكانَهُ، وضمنوا له توْطيدَهم للأمر عند السلطان، حتى تهيَّأ ذلك فى دماغ العِلْج، واستعدَّ لقتله، إلى أن حدث بوادى آش أمْرٌ لم يكن بُدٌّ للسلطان أن يرسل وزيره فـيه، من تحصـيل أموال والكشف على أحـوال، فنهض فى أنحس وقتٍ وأَشَرِّ قـدَر، وكان واصِلٌ هذا المـذكور من أكبـر صنائع النايه،

(١) قـبـرة: مدينة بالأندلس، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا، ذات مـياه سائحة من عيون شتى، وبها سوق جامعة (الروض المعطار).

وممَّن اطَّبـاه بإحسانه، وشـرَّفه عند السلطان، ورفعـه من الحضيض، ففـشَا الأمْرُ عند الناس قبل ذلك أنَّ واصِلاً عازمٌ على قتل الناية.

وحكى لى إنسانٌ من البَرْبَر، قال: «نصـحتُه بذلك وحذَّرتهُ أن لا ينهض إليه، وأنَّ مِثله لا ينزل فى داره، فكان مـن جوابه: «تريدون أن تنزعوا الرَّيبَ من أنفـسكم وتردُّوها على أصـدق الناس إلىَّ!» فلمَّـا توجَّـه إلى وادى آش، ونزل فى منزل واصِل، أشـهر له إكـرامًا وتَبَـجُّلاً لم يكن عليـه قَبْل، حـتى اطمأنَّ، وانصرف عنه أعوانُه، ولمَّـا دخل الليل فى جنَّه، أتاه واصِلٌ برمحه، وهو سكران، فضربه ضربةً أنفده بها، حتى أثَّرَت الضربة فى الحائط، وقطع رأسه وطَوَّفه صبيحة الليلة [بأزقَّة مدينة[1] وادى آش ومُنادٍ ينادى] «هذا جزاءُ من طلب ما لا يعنيه!».

فورد الخـبرُ فـجأة بغـرناطة، وبُهِتَ له الناس، ولم يَدْرِ أحدٌ مـن حيث أُتِىَ، فـمنهم من يقـول: «السلطان دسَّ إلـيه، إذ لا يمـكن لذلك العِلج أن يتعدَّى!» وبلغ ذلك من السلطان مبلغًا عظيمًا، وَعلِمَ أن هذا من اتِّفاق عليه، ودخل منه فى بحر طامس، حـتى أسهر ليله وامتنع من لذَّته، وأشـهر للناس تجلُّدًا، وهدَّده الجـند، وأرسل إلى واصِل بالأمـان، يأمُـرُه بالقـدوم عليـه، ويشكره فيما فعـل، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرئ كيـفيَّة الحال، وينظر لها على مـهل، فزاد بذلك العِلْجُ حـماقةً، وقال مُـعْلِنًا: «لم أُدْخِل يدى فى هذه القضيَّـة وحدى، حتى يساعدنى عليـها من لا يُنال بهم عن أحدٍ!» وأتَى مُشترطًا للوزارة، وكلَّمَ وَلَدُ القاضى المظفَّر فى أمره وقال له: «إنَّ هذا العبد، وإن جنى عليك فى قتل وزيرك، فإنَّـما فعل حُبًّا منه فيك ورغـبة فى قُرْبك،

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «مدية».

وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتُك!» وجعل [أهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له، فأحسَّ السلطانُ ذلك فى نفسه، وأيقنَ أنَّ هذه النَّصْبة لم تكن إلاَّ عن اتِّفاقٍ عليه، وحسب نفسه مخلوعًا لا محالة، فإنَّه، ساعةَ ما قُتِلَ الناية، أُرْسِلَ عن ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، ووُجِّه إليه بخاتم الناية كَى يتحقَّق قتلَه، وقيل له: «ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصُدُّك!» إلاَّ أنه لم يتجاسر حتى يَرَى إلى ما تَئُول الأحوالُ، فكظم الحاجب هذا فى نفسه، واحترق له قلبه، ودارَى جميعَهم، وصوَّب فعلَ واصِلٍ، وقال: «هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذنى منها إلا إطفاؤُها والنظر لها على سَعةٍ!» وأمَرَ بتقديم واصِلٍ على الخَيْل.

٣٣- استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة:

واتَّفق رأىُ الجميع، مع بعض أهل قصره من النساء، أن يُدخَلَ عليه ابنُهُ، ويُخلَع من أجْله على كلِّ حال، فلما رأى المُظَفَّر اتِّفاقهم عليه، وأحسَّ بهذه المصايب، ولم يَرَ لنفسه مع من يستريح، أرسل فى أبى الربيع النصرانىِّ، وكان فيما مضى كاتبَ حَشَمٍ، قد عرف خدمة اليهودىِّ وتصرَّف معه، فأرسل عنه سرًّا، وأتَتْ كُتُبُه قبل ذلك، فراجَعَ عنها بخطِّ يده، فكان ذلك زيادةً فى الشرِّ وخبال الدولة، فلمَّا أحسَّ بهذا ولَدُ القاضى صاحبُ باغُه، شافَهَ المظفَّرَ فى الأمر وقال له: «إن كنتَ تعزم على أبى الربيع، فنحنُ لا نبقى معك، ولا يلتوى أحدٌ حوالَيْك!» فأجابه: «ألاَ أبقى الله منكم أحَدًا!» وضيَّع الحزم فى هذا، لا سيَّما أنه قد عَلِم أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا، فَعَمِلَت فى نفس صاحب باغُه وأهل الدولة، وتغيَّرت الأنفس، وكثر الإرجاف، واتَّفق مع صاحب قَبْرَة، وكان صديقه قديمًا، إلى أن ورد أبو الربيع.

فاستراح إليه المظفَّر على المـقام، وأعلمه بما حلَّ به، وأتاه المذكورُ من دَانِية، إذ كان بها من وقت قتل اليهودى، فقال له أبو الربيع: «قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك، ولا مـختلف عليـه، ولا قـدرة بك على مُكابرة العـامَّـة والخـاصَّة! فـالرأى فى ذلك والحـيلة أن تتلافـى الأمر، وتوجِّـه فى ابنك، وتكْتُبَ إليـه بخطِّ يدك بالعفـو عنه وإيثـارك له على كلِّ والٍ لم يَصلُح لك، وأنك مقـدِّمُهُ لولايتك ومورِثُهُ مُلكَك، فـإنك، إن فعلتَ، هَدَّنْتَ قلوبَ هذا العالم وتَقَمَّنْتَ مسرَّتهم، فإذا وصل ولدُك بين يديك، كنتَ فى أمره بالخيار، وتخدَّمتَ قصَّته على سعـة: فُمكابَدَتُه، وهو معك، خيرٌ من مُكابَدَة شرِّه مع بُعد! ولستَ تأمَن مكرهُ حيث ما توَجَّهَ!».

فرضى المُظَفَّـرُ ذلك من قوله، وأرسل على المقام عنه فـقيهًا كـبيرًا من فُقـهائه يؤمِّنه ويوطِّده، ويبـشِّره بمَذْهَب أبيـه واستخـلافه له، وأنه ليس فى الدولة من بنيه من يُـرْجى لهذا الأمر سواه، وكـتب إلى ابن ذى النون يرغب فى تسريحه إليـه، فسُرَّ بذلك جمـيع الناس، وانصرفت نفوسُهم عـمَّا كانت عليه، وطفَّف العالَم فى مـحبَّة ماكْسَن، ورجَوْا الخـيرَ معه، إلى أن وردَ فى أنحَسِ طالع وأنكَدِ جِدٍّ.

فأَنَّـسَهُ أبوه، وبذل له الأمـوال، وجعل يوصِّـيه بوَصـايا لم تنفـعه، أراد بذلك ضُرَّه وانصراف نـفوس الناس عنه، فأوَّلُ ما أمره به بالـشدَّة والفظاعة، وبغَّض إليه صِنْهـاجةَ، وقال له: «أنت تعلم مـا شقيتُ أنا بهم بعد حَـبُوس! فَصُلْ عليـهم ليهـابوك، وليس فى الدَّولة غيـرك إلاَّ بنى أخيك: فـهم أطفال صغـار!» وكان ماكْسَن من السـفه وعَجْز الرأى وقلَّـة الفطنة بحيث لم يَخْفَ

على أحد، فزاد على ذلك أضعافًا مضاعفةً، ووافق سوءُ طبعه مَقالةَ أبيه، فتحكَّم الشرُّ فيه، ولم يقدِّم شيئًا على شتم الناس والاستهزاء بهم، ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبَّه وسعى فيه، فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوسُ العالم فيه إلى البغضة، وتبيَّن لهم من قلَّة عقله، وأجمَعَ الكلُّ على ألا خَير فيه يُرْتَجى.

وكانت بنت عمِّه أُمُّ العُلُوِّ طامعةً بزواجه، وكانت مُطاعةً فى قوْمها، قد استمالت أكثر نساء الجُند، فأوَّلُ ما ابتدأ بتهجينها وَشَتْمِها، وأنَّها فيما يزعم لا تصلح له، فزاد ذلك فى نحسه والسعْى بكلِّ وجْهٍ عليه، وكانت كريمةُ المُظَفَّر الساعية فى خبره يعد سعيها فى قتل أُمِّه، قد أغارت من أن يكون ماكْسَن يزوج بنت عمِّه، حذْرًا منها أن تجعل منها حاشِيَةً وتمنع حرمَتَه، واتَّقى من ذلك واصِلٌ وامرأتُه، فقالا لها: «أىُّ فائدة لك فى زواج أُمِّ الْعُلُوِّ؟ لكنَّ الأَوْلى بِكِ أن تعطيه صَبِيَّةً من تربيتك، تكونين من أجلها حاكمةً على داره!» ففعلَتْ ذلك وأخرجَتْها إليه بأموال، وصوَّرت عند السلطان أنها تُوفِّيت، لئلاَّ يطلبها فى قصره، باسْمِ أُخرى ماتَتْ عندها.

وشقَّ على بنت عمِّه ذلك كلُّه، ورجَعت تسعى عليه مع نساء البربر وتدخل بين امرأة واصل المذكور، وبين كريمة الحاجب، وتقول لها: «إذا أرَدتِ الانفراد بماكْسَن، فما حمل امرأة العِلْج على السكنى معه؟» فُمنِعت الدخول إلى داره، فأنفت لذلك، وكان مع ذلك زوجُها وَاصِلٌ يؤثر عليها صبيَّةً كانت لها، ويؤذيها من أجْلها، فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لِمَا طُرِدت عن دار ماكسَن، فلم تلبث أن مضت إلى أبى الربيع النصرانى: وقالت

له: «أنا أَمَةُ المُظَفَّر فَلْيَنْظُر من نفسه! فإنَّ الاتِّفاق عليه على وجه كذا وكذا!» وبيَّنتْ جميع ما راموا من غدره، فأتى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً، وقال له: «انْظُرْ كيف تبتدى سعادتُك فى تشتيت هؤلاء القوم! أخْبرتنى امرأةُ واصِل بكذا وكذا! ألمْ أقُلْ لَك[1]...؟».

(١) فى هامش المطبوع: «إلى هنا انتهى ما هو موجود فى نسخة «مذكرات عبد الله» الوحيدة من تاريخ دولة باديس بن حبوس جد المؤلف».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١- مشاكل الاندلس الخارجية وحال الجزيرة
عند ابتداء إمارة عبد الله

٣٤- رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع ابن عمار:

[. . . وأَمَّا] أَلْفُونْشُ، لمّا تيقَّن هذه الفِتَن، عَلِمَ أنَّ ذلك من أكْبَر سعادته وأعْظَم فُرَصِه فى طَلَب الأَموال، فأَرْسَلَ إلينا رسولَه: أَوَّلَ مُداخَلَة نشأَتْ بَيْنَنا وبَيْنَهُ، فأتى باطْرُ شُولِش يطلُب منَّا ضَرِيبتهُ، فأَبَيْنا عليه، واجتمع رأيُنا على أن لا نفعل، وأنَّ ضَرَرَ أَلْفُونْشُ لا يُخشى وغَيْرُنا أَمَامَنا، نعنى بذلك ابن ذى النُّون، ولم نَقِسْ أَنَّ أَحَدًا يُعاقِدُهُ على مُسْلِمٍ، فانصرف عنَّا دون عَمَلٍ.

وإِنَّ ابنَ عَمَّار انتهز هذه الفُرْصة، وكان مُنْتَظِرًا له بِبَاغُه، مُرْتَقِبًا لِمَا يصنع معنا، فلمّا رأى أنه لم يتمَّ له عَمَلٌ، أَلْقَى يَدَه فيه على المقام، وقال له: «إن كنتم مُنِعْتُمْ عشرين ألف دينار (وهى التى سأَل عن ضريبته) فنَحْنُ نعطيكم خمسين ألفًا، على أن نُعاقِدكم على غَرْناطة: تعطونا القاعدة، ولكم ما فيها من الأَموال!» فعاقَدُوه على ذلك، واتَّفق رأيُهم على أن يبنوا على غرناطة مَعْقِلاً يضيِّق عليها حتى تلقى يدها، وكان ابن أَضْحَى، المذكورُ قبل هذا ـ هو المُخْرَجُ على يدى الناية ـ قد انحاش إِليهم، يدُلُّ بهم على عَوْرات البلدة، ويُريهم أشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِعِ إن بُنِيَ، ويجعل فيه ندبًا للضرب والتضييق، فأراهم حِصْنَ بَلِيلُّش.

وأَكْرَى ابنُ عمّار من عسكر أَلْفُونْش ما قوى به على البُنيان بأعداد من

الأموال جسيمة، يسوِّفهم فيها تارات، ويَعِدُهم ويُخادِعهم، حتى تمَّ البُنيان، وجعل المُعتَمِد يُحاوِل ذلك بنفسه، ويبرُز أبَدًا على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنه، طمعًا فى أن يقُومَ معه أهْلُ البلدة، فلمّا تمَّ بُنيانُه، قوَّاهُ بالندب، واتَّخذ فيه جميع الأقوات، وأمَرَهم بالتضييق، وكانت الحالُ شديدةً، ونُسِيَ به أمْرُ القَلْعة.

وعند انصراف المُعْتَمِد عنه وعساكِر الرُّوم، عيَّنّا عسكرًا كثيرًا، ونَهَضْنا إليه، فلم نقدر فيه على شيء، وانقطع رجاءُ الناس من دولتنا، لاجتماع المُطالِبين عليها مع الرومى، ونَدِمْنا على التفريط أوَّلاً فى مُعاقَدته حَسَب ما سأل، وكان من أحسن شيءٍ على السلاطين أخْذُ مَعْقِلٍ بالسيف، فإنَّه، متى اعترض، لم يستطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه، ولا على إحصاره، حتى ينفد ما فيه لقوةٍ تأتيه، فيُقْلِع عنه إلاَّ من كان أقْوَى، ولم نكُنْ نَحْنُ إلا مُتكافِئين فى ذلك: متى ما أعْطَى أحَدُنا لعسكرٍ مالاً، وأراد الآخَرُ نَقْضَه، أرْبَى عليه وأراحَهُ منه.

فكانت بَلِيلُّش قد أفسدت، وضيَّقت على فَحْص غرناطة، ولم يَكْفِ ما حلَّ من أجْلِها حتى جَعَلنا ألْفُونْشُ أن نُغْرِمَ ما فَاتَهُ مِنّا، تباعةً وتذنيبًا لرَفْضِنا إيَّاهُ، واستدفاعًا لِمَا يُتَّقَى من تَماديه على الطَلَب، وابنُ ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر، ويسعى فى تصيير المال إليه، يرضيه بذلك وينتظِرُ فسادَ مَمْلَكتنا، فيَفْتَرِصُها هو أو يأخُذَ منها حِصَّتَه، فكان ـ على ما قدَّمْنا ذكْره ـ عدوًّا فى الباطِن، صديقًا فى الظاهر، وهو مع ذلك لا يزال يُدَاخِلُ قُرْطُبة، ويَسْعَى جَهْدَه فيها، إلى أن قدَّر الله، وافْتَرَصها غُدْرًا بمُداخَلة من بعض

أهلها ممَّن لا خَطَرَ له، واستُشْهِدَ فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْتَمِد] وقائدُه ابنُ مَرْتِين.

فلمّا انقضت بقُرْطُبة هذه الدائرة، وسمع بالخَبَر أهْلُ بَلِيُّش، أخْلَوْها على المقام، ودَخَلَها رِجالُنا، وصارت فى مِلْكنا مُشيَّدةً مَبْنِيَّةً، فَنَظَرْنا منها بالذى نصنع بقَصَبَة غرناطة، وتروَّح مُخَنَّقُها من حيث لم يُحْتَسَبْ.

٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب ألمرية:

وكان قائدَ مدينة بَسْطَة ابنُ مَلْحَان، رَجُلٌ معجبٌ، قد شَرِهَتْ نفسُه إلى رُتَب الملوك، وكان المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ قد فوَّض إليه أمْرَ البلدة عِوَضًا من أبيه، فلما صارت لنا الدولة، وكثر فيها آراءُ الوُزَرَاء، جعل كلُّ واحد منهم يطلبه بمال، ويسألُه مُتاحَفات: فمن لم يعطِه، طالَبَهُ وأذَاهُ، مع صغر سنِّنا، فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه، فترامَى على ابن صُمَادِح وقبله، وصارت البلدةُ إليه، عَلِمَ أنَّه لا يُفاتَن طولَ مدَّة الفِتْنة مع ابن عَبَّاد، ثم إنَّه غدر حِصْنَ شِيلَش، ونحن، فى ذلك كلِّه، لا نفتر عن مُخازاته بالإضرار ببلده، وصار إلينا مع حِصْن شَنْت أقْلَج من مَعاقله ما وَقَعَت المُعاوَضةُ به من شِيلَش، وصالَحْناهُ مُهادَنةً وانجرارًا للحال، حتى نَرَى ما نصنع مع ابن عَبَّاد.

٣٦- مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه:

وبقى ابنُ عمَّار مُرْتَهِنًا بما جعل على نفسه للنَّصْرانىِّ من كراءِ بَلِيُّش فى تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقْطِعُها له، ويَعِدُهُ بها، وأدْخَلَ سلطانَه من

ذلك فى تشغيب، لأنَّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُد إلى راحةٍ لِكَيْ يحتاج إليه فى تلك الفِتْنة لا يقرُّ عن إدخال ضَرَرٍ على المسلمين، ومتى ما كان المُعْتَمِدُ يسعى فى تهدين الأمر، ونرومُ معه الصُّلْحَ، أو تنشأُ مُهادَنَةٌ، لا يَنامُ فى نَقْضِها وإشعالِ نار الفتنة.

فعاد ثانيةً إلى النصرانيِّ ألْفُونْشُ، وزيَّن له أمْرَ غرناطة، وصَوَّرَنا عنده فى صورةِ مَنْ لا يقدر على شيء من أجْلِ الضعف وسنِّ الصبا، وأنَّه ضامنٌ له أموال غرناطة لتَصير إليه بأسْرِها، على أن يُعاقِدَهُ، إذ تمكن من البلدة، أن يجعلها مُلْكَهُ، وله ما لَقِيَ أموالنا، والْقِيَ يَدَه فى ألفُونْشُ، عازمًا عليه فى الإقبال إليها، وأعطى على ذلك أموالاً جسيمة، ووعده بخمسين ألف مِثْقال إذا تمَّت القضيَّة، سيعطيها زائدةً على ما يَجِدُ، لمُساعَدَته على السير.

فأدْرَكَ الرُّوميَّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ، وقال: «هذه نَصْبةٌ لَسْتُ أخْلُو فيها من فائدةٍ، وإن لم تُحَصَّل البلدة! وأيُّ فَائدَةَ لى فى إعطاءِ بلدة من واحِدٍ لآخَرَ إلا تَقْوِيَتُه على نفسى؟ وكُلَّما أكثر الثوَّارُ، ووقع بينهم التنافُسُ كان لى أفْنَدَا!» فأتَى على نِيَّةِ أخْذِ مالِ الفريقَيْن، يكسِّر رءُوسَ بَعْضِهم ببعض، ولا كان أيضًا فى أمَلِه أن يأخذ البلاد لنفسه، فإنَّه عمل فى ذلك حسابًا أن قال: «إنا من غير المِلَّة، وكلُّ الناس يشْنَأُنى، فَبِأَى وَجْهٍ أطمع فى أخْذِها؟ إن كان من باب الطاعة، فأَمْرٌ لا يمكن، وإن كان من وَجْه القتال، فيهلك فيها رجالى وتذهب أموالى، وتكون الخسارة على أكثر ممَّا نرجوه إن صارَتْ إلىَّ، ولو صارَتْ، لم تَتَمَسَّكْ إلاَّ بأهلها، ثُمَّ لا يؤمنون! ولا من المُمْكِن أن نَسْتَبِيحَ أهْلَها ونُعَمِّرَها بأهْلِ مِلَّتى! ولكنَّ الرأىَ، كلَّ الرأى، تَهْدِيدُ بَعْضِهِم

ببَعْضٍ، وأخْذُ أموالهم أبَدًا، حتى ترقَّ وتضعف، ثمَّ هى تلقَى بيدها إذا ضعُفت، وتأتى عَفْوًا، كالذى جَرَى بُطَلْيُطُلَة[1] إنَّما كان من فَقْرِ أهْلِها وتَشَتُّتِهم، مع اندبار سلطانها، وصارَتْ إلىَّ بلا مَشَقَّة!».

وكُنَّا نحن نعلم هذا من مَذْهَبه، على ما كان يُخْبِر به وزَراؤُهُ، ولقد قال ذلك شِشْلاَنْدُ فى حال هذه السفرة، وشافَهنا بذلك، وقال: «إنَّما كانت الأَنْدَلُسُ للرُّوم فى أوَّل الأمر، حتى غلبهم العَرَب، وألْحَقُوهم بأنْحَسِ البِقاع: جِلِّيقِيَّة[2]، فهُمُ الآن عند التَمكُّن، طامعين بأَخْذِ ظلاماتهم! فلا يصحُّ ذلك إلا بضعف الحال والمطاوَلة، حتى إذا لم يَبْقَ مالٌ ولا رجالٌ، أخَذْناها بلا تكَلُّف!».

فكان الجميعُ يُسايرُ الأُمورَ، ويُدافِع الأيَّامَ، ويقول: «مِنْ هُنا إلى أن تتمَّ الأموالُ وتهلكَ الرعايا بزَعْمِهم، يأتى الله بالفَرَج وينصر المسلمين!».

فورد علينا من إقبال أَلْفُونْشُ مع ابن عمَّار هَوْلٌ عظيمٌ، وصحَّ عندنا أنه لم يَأتِ إلاَّ طالبًا لمُلْكنا: قد استَوْثق من أَلْفُونْشُ على ما قدَّمْنا ذِكْرَه، ثمَّ أرسل إلينا ينذرُ بإقباله، ويأمُرُنا بالخروج إليه، يُرَى أنَّه يذهب إلى تجديد العَهْد والاجتماعِ بنا، على ما يفعله مع السلاطين، فلم نشكَّ أنَّ ذلك المتقبِّض علينا وإنجاز ما عاقَدَ عليهم، فاجتمع علينا أهلُ الرأى والمشورة، وقالوا: «ما الذى تذهب إليه؟ هذا عَدُوٌّ قد جاءَ لطَلَبك، ولا قدرة بك على

---

(١) طليطلة: بالأندلس وهى مركز لجميع الأندلس، وكانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق، وهى حصينة لها أسوار حسنة وقصبة حصينة (الروض المعطار).

(٢) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالى الأندلس فى أقصاه من جهة الغرب، وهى بلد لا يطيب سكناها لغير أهلها (ياقوت).

مناواته! وسَواءٌ عليك خَـرَجْتَ أم بَقيتَ! فإنْ أنت بَقـيتَ، حَلّتْ بك الداهيةُ العُظْمَى، ووقعت المُفاسَدة، وأصاب مُطالِبُك سبيلاً إلى العَمَل، وتكون هذه أشَدّ من الأُولى، وَقْت رَفَضْنَا بَطْرُه شُولِش وألقى ابنُ عـمَّار يَدَه فيه حتى بَنَى علينا بَلِيلُّش، والآن لم يتروَّح مُخَنَّقُنَا حـتى نعود إلى ما هو أدْهَى وأمَرُّ، فلو رأت الرعايا بعض خِلاف من هذا الجيش، لم تُبْق ولا تَذَرْ لشعفة ما قد دَهَوْا به قَبْل، وكـان الرجاءُ ينقطع، ويـتلف الكلُّ حتى تُؤخَـذَ هُنا باليد على غَـيْرِ صُلْحٍ، فلا يرقب فـينا إلا ولا ذِمّةً! فالخـروجُ إليه أيْسَرُ لأمْرَيْن: فـإن كانت سلامـة، شكرتَ رأيكَ، وثبت مُلْكُك، وإن كـانت الأُخرى، كـان خروجُك عن أمَان، وصِـرْتَ حَيِّزاً في العافـية! فاعْزَم على لقـائِه، وقُلْ له قولاً ليِّنًا، ولله أن يُنَفِّذَ قضاءَه.

فاستَعْـدَدْنا لذلك جَهدَنا وأجْمَعْنا حَـوالَيْنا مَنْ نَثِقُ به من رجالنا، وأخَذْنا أُهْبة الحـال، ولقيناه على مقـربة من المدينة، وبالَغْنا بالضرورة في إكـرامه، فأعرض علينا وَجْهًـا بَسِيطًا وخُلُقًا حَسَنًا، ووَعَدَنا أنَّه يُحامِـي عنَّا كما يُحامِي عن بَلَده.

ثمَّ وقعت المُعاملة، ومَشَت الرُّسُل منَّا إليه ومِنْه إلينا، يُبَيِّنُ ما عُوقِدَ عليه وأنَّه سِيقَ سُوقًا، ويقول: «إنِّي قد تَشَبَّثُّ في الأمر، ولم نُعَجِّل حتى نسمع ما عندكم، فإن جامَلْتُمونى ورأيتُم لقَصْـدى وَجهًا، وانصرفتُ عنكم على خير، وإلاَّ، فها أنا مع من عاقَدَنى!» وطلب خمسـين ألف مِثْقال، فشكَوْنا إليه قِلَّة البلاد، وأنَّ ذلك لا يقدرُ عليـه، وفيه من القطع لنا ما يَفْتَـرِصُنا به ابن عَبَّاد، فإنه لو أخَـذَ غرناطة، قـوى عُنْصرُهُ «ولم يَنْطَعْ إليك، فَـخُذْ ما نقـدر إليه،

وَاتْرُكْ رَمَقًا لا نَسْتَأصَل من أجْله! وَما تركتَ، تَجده عندنا متى ما طلبت!» فقبل العُذْرَ بعد جُهْدٍ عظيمٍ، وقاطَعْناه لقصْده بخمسة وعشرين ألفًا، نِصْفِ العدَد، ثمَّ أعدَدنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً، استدفاعًا لشرِّه، وَجَمَعْنا ذلك كله فى خِبَاء كبير، ودعَوْناه إليه، ولمَّا رأى الثياب استَحْقَرَها، ووقع الاتِّفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف مِثْقال لِتَتمَّ بها ثلاثون ألفًا، فأكملناها له لئلاَّ ينفسد الأكثرُ عن الأقلِّ، فشكر على ذلك كُلِّه، وطابت عليه نفسُه ورجع إلى ابن عَمَّار يقول له: «كَذَبتَ لى فى قولك: إن غرناطة فى ضَعْفٍ، وإنّ صاحِبها من صغر سنِّه لا يعقل! ورأيتُ من رتبتها وأحوالها ما خَالَفَ قولَكَ!».

فرجع ابن عمَّار يسأله أن يعقد بَيْنَنا عَقْدًا يُوقَف عنده، وَاستمالَه على أخذ إسْطَبَّة من عندنا، وكانت مَعْقِلاً عظيمًا ممّا يَلِى جِهات إشبيلية[1]، قد كان أخَذَه قائدُنا كَبَّابٌ فى الفِتْنة، وَسَألناه نَحْنُ خَبَر القَلْعة، فوقع الاتِّفاق على أن تكون قَلْعَةُ أسْطَلِير عِوَضًا من إسْطَبَّة[2].

وكانت قَاشْتَرُهْ ومَارْتُش المَعْقِلَيْن اللذَيْن على جَيَّان، ومن أجْلهما انقطع صاحِبُهما عَمَّنا [ماكْسَن] ولم يكن لجيَّان مَعْنًى إلاَّ بهما، فترامى ابنُ عمّار فى أمرهما على ألْفُونْش، ووَعَدَهُ على مَارْتُش بأموال كأنّه يشتريها منه، فَعزَمَ علينا فيها للطمع فى المال، ووَعدَنا نَحْنُ على قاشْتَرُهْ بالمَطْمَر، وكان أيضًا

(١) إشبيلية: مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام، وهى مدينة قديمة أزلية (الروض المعطار).

(٢) مدينة بالأندلس على خمسة وعشرين ميلا من قَلْشانة، ومن قلشانة، وهى قاعدة شذونة، إلى قرطبة أربعة أيام (صفة جزيرة الأندلس).

حِصنًا قد اشترك نَظَرهُ مع نَظَرِنا بِيَدِ ابن ذى النُّون، فضمَّن خَبرَه أنَّه يعطيه لنا عِوَضًا منها، فدافَعْنا الأمر جُهْدَنا: فلم نقدر على أكثر فَعْلِ القوىِّ مع الضعيف.

ثمَّ إنَّه عُقِدَ العَقْدُ بَيْن يَدَيْه على ذلك، وأن لا يتعدَّى مِنَّا أحَدٌ على صاحِبِه، وذكر فيه ما نعطى كلَّ عام من الضريبة: فجعل علينا عشرة آلاف مِثْقال فى العام، وطيَّب لنا الكلام بأن قال: «طمع ابن عمّار أن نغدر بك، ومَعاذ الله من ذلك أن يشيع فى الدنيا أنَّ مِثْلى كبيرًا فى الرُّوم يقصدك، وأنت كبير فى جنسك، ثم نغدر بك! فابْقَ على أمان! لا أُكَلِّفُكَ إلا الضريبة، تُوَجِّه إلىَّ بها فى كلِّ عام دون مَطَلٍ، وإن تأخَّرْتَ بها، أتاك رسولى عنها وتلزمك عليه نفقات، فبَادِرْ بها!» فَقبِلْنا قوله، ورأينا إعطاء عشرة آلاف فى العام ندفع بها مَضرته خَيْرًا من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ لم تكن بنا قدرة على مُلاقاته ومُكابَرته، ولا وَجَدْنا من سلاطين الأنْدَلُس عَوْنًا عليه إلا من يسوقُه إلينا لهلاكنا، فبَقِيَت الأُمور على مُصالَحة ومُهادنة ورفاهية، لا يُسمع فيها بفِتْنةٍ.

٣٧- استيلاء ألفونش السادس على طليطلة:

وممَّا هيَّأهُ الله أن فَقَدْنا وسائط السَّوءِ بعد ذلك بفَقْد ابن عمار، وشَغْله فى مُرْسِيَة[١]، وبزوال سِماجَة عنَّا وأشياعِهِ، وتوفِّى قبل ذلك ابنُ ذى النون عند بلوغه آماله بقُرطبَة، وكانت الأنْدَلُس قد ارتَجَّتْ له، وخافه الرؤساءُ،

(١) مرسية: بالاندلس، وهى قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دار العمال وقرار القواد (الروض المعطار).

فلم يلبث بها يسيراً حتى مات: وكذلك الأشياءُ إذا تمَّتْ، وكان أهْلُ العِلْم يخبرون بذلك أنّه إذا حصل على قُرْطُبَة، فقد تمتْ أيامُه وإذا تمَّ شيءٌ، دنا نَقْصُه.

ثمَّ خُلِع من بعده حفيدهُ، وقام عليه أهْلُ بلده، ولجأ إلى ألْفُونْشُ، فصرفه إليها على قَهْرٍ وغلبةٍ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً، أشَدُّها ما جعل على نفسه فى شراء حِصْن من ألْفُونْش على مقربة من طُلَيْطُلَة بمائة وخمسين ألف مِثْقال طيِّبة وخمسمائة مُدي من طعامٍ ضيافةً لكلِّ ليلةٍ مدَّة مقامه عليه: أخَذَها من أهل بلده حتى ضعفوا، ولازمَها ألْفُونْش حتى صارت إليه، وَعوَّض صاحِبَها ببَلَنْسِيَة[1]، ولَم يَعْترِضْ له مالاً ولا أهْلاً غير الذَّهَب والفِضَّة.

وكان حفيدُ ابن ذى النون، فى أقَلِّ ولايته، لم يقدِّم شيئًا على الغدر بوزير جَدِّه [ابن] الحَديدى لسعاية البُغاة أعدائه، وسوَّلت له نفْسُه أنّ قَتْلَه لا يصحُّ إلا على يدى قوم قد سجنهم جَدُّه على بصيرةٍ، فأطلقهم وسلَّطهم عليه، ولمَّا تمكَّنوا منه، كان كَلَبُهم عليه أشدَّ، وصاروا طالبين للثأر وكانوا أقْوَى الأسباب فى فساد مُلْكه، وهُمْ بنو اللّوَارَنكىّ، وبنو مُغيث، ومن انحاش إليهم، وكان قديرًا على قتله دونهم، لكنَّ العَجْزَ وضُعْف الرأى عَمَّيا عليه وجه الصواب.

---

(١) بلنسية: فى شرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجّانة ستة عشر يومًا، وعلى الجادة ثلاثة عشر يومًا، وهى مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس، عامرة القطر، كثيرة التجارات، وبها أسواق وحَطٌّ وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهى على نهر جار ينتفع به، والسفن تدخل نهرها، وسورها مبنى بالحجر والطوابى (صفة جزيرة الأندلس).

٣٨- استيلاء ابن هود على دانية[١] بعض أخبار بنى هود:

وحصل أيضًا ابن هود على مدينة دَانِيَة بغفلة صاحبها عن الرجال وحُبِّه فى الأموال، مع مُداخَلات أُوتى بها من قِبَل وزيرِه ابنِ الرُّيُولُه، الخارج عنه إلى سَرَقُسْطَة[٢]، فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة، ودخل المدينة بلا مشقَّة، وحصل منها على عظائم من الأموال بوفرها، وكان عنده وَلَدُ مُجاهدٍ صاحبِ دَانِيَة مكَرَّمًا حتى مات.

وَإِنّ ابنَ هود، لمَّا حصل على دانِيَة، انفسد طبعُه، وأدركَتْه الرَّغبة فى البلاد، وزال عما كان عليه من جهاد الرُّوم، وطَمِع فى بَلَنْسِيَة عند ذلك، وأعطى عليها أموالاً جسيمة لألْفُونْش، وألْفُونْشُ فى هذا كلِّه، على ما قدَّمنا ذكره، يأخذ الأموال، ولا يحقِّق لأحد أن يُهاوِدَه على أخْذِ بلدةٍ، فتوفِّى ابن هود فى إثر أخْذِه لدَانِيَة وبلوغِه آمالَه منها، وقد كان ابن الخَيَّاط المُنَجِّم ذكر ذلك كلَّه، ولقد قرأتُهُ فى بعض كتُبه قَبْلَ أن ينقضى، حتى رأيتُه عيانًا.

وكانت قضيَّتُه فى دَانِيَة كقضيَّة ابن ذى النون بقُرْطُبَة: فإنَّ ابن هُود اهتزَّت له الأنْدَلُس عند حصوله على دانِيَة، وجزع جميعُ الرؤَساء لأخذِه لها

---

(١) دانية: مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة حسنة لها مربض عامر وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق فى داخل البحر قد بنى بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جدًا، والسفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنها دار إنشائه (الروض المعطار).

(٢) سرقسطة: فى شرق الأندلس وهى المدينة البيضاء، وهى قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن متصلة الجنات والبساتين، ولها سور حجارة حصين، وهى على ضفة نهر كبير (الروض المعطار).

دون قتال ولا زمان، وَأَعَدَّ كلُّ أحَدٍ عُدَدَهُ مُتَأَهِّبًا لشرِّه، إلى أن أراح الله منه، وقبضه على فِتْنةٍ واقتبال أمَلٍ.

ثمَّ قام من بعده ابنُه المؤتَمِنُ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات، وشعر المؤتَمِنُ لابن الرُّيُولُه وزيرِ أبيه بأعمال فاسدة مع أَلْفُونْش، ليتخدَّم له خدمة ابن عمَّار فيرأس لذلك عنده على أهل زمانه خِذْلانًا وطغيانًا، فأمر بقتله.

وتوفى المؤتَمِنُ، وورثه المُسْتَعِينُ حَفِيدهُ هذا الوالى الآن.

وكان المؤتَمِنُ رجلاً عالِمًا، قد طالَع الكُتُب، مع ما كان عنده من الآثار، فرأى مَوْتَه قريبًا، فكان لا يسرُّ بالمملكة، ويزهد فى كثير من الدنيا، ولقد أخبرنى بعضُ من حضر مَجْلِسَه من أعلام جُنْده أنَّه كان يُريهم ذخائره التى لم يجتمَعْ مثلها عند مَلِكٍ، فيُهنئونه عليها، فيقول لهم: «ما أصْنَعُ بها، والمُدَّةُ يسيرةٌ، ولا أدْخُلُ منها قبرى إلا بكفنٍ!» فكان يكدر قولُه ذلك عليهم، حتى مات.

وكان مُنْذِرٌ أخوه بدانيَة، إلاَّ أنَّ أباهُ الشيخَ لم يُمكِّنْهُ من مالٍ، حذرًا منه أن يخالف على أخيه لحدَّته وشدَّة بأسه، فلما توفِّى المُقْتَدِرُ، اضطربت الفِتْنَة بينهما، وكان مُنْذِرٌ منهما يتَضَعْضَعُ له وَيَتكافى به، لِمَا كان من إحسانه للأَجناد ومواساته لهم، إلى أن توفِّى بعد أخيه، وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وزيرُهُ.

٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

وصار ابن عمَّار فى حَيِّز الخِلاف على المُعْتَمِد، وجَعَلَهُ يطْلُب مُرْسِيَةَ، واعتراهُ عليها مشقَّات ونَفقات أموال، وجَرَى من أسْرِ ابن المُعْتَمِد عليها ما قد شهر، وطال مكثُه على مُرْسِيَة، يُحزِّب عليها الأحزاب وينفق الأموال، يُرى سلطانَه أنَّ السَّعْيَ له، وهو فى الباطن يجدُّ لنفسه، لكَىْ يتَّخِذَها مَعْقِلاً يَرْأَسُ فيه، كالذى صَنَعَ، ولقد كان يقول أهْلُ العِلم بالآثار والتأثير: «إنَّ مُلْكَ بنى عبَّاد يتناهى حتى يبلغوا إلى تُدْمِير[1]، ومن ثَمَّ يتمُّ هلاكُهم، وكان الناسُ إذ ذاك يتوقَّعُون عليه الفساد عند محاولَة ابن عمَّار لأمْرها، فلم يكن إلاَّ بَعْدَه بحينٍ، عند بلوغ الكتاب أَجَلَهُ.

وصار ابن عمَّار بمُرْسِيَة بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس، واستعمال المعاصى، والإدمان على الخَمْر، حتَّى أبْغضه أهْلُها، وكان للمُعْتَمِد طاعةٌ فى معصية، واشتهر بأخْذِ عِرْضِه وهَجْوِه بما قد نَزَّهَهُ الله عنه، فِعْلَ الأوغاد والأرذال.

وقدم إلى مُرْسِيَة ابنُ رَشِيق، فكان يطويها وينشرها، وشَبَّكَ عليه المعاقِل بقرابته، واتَّخذ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عمَّار عنه وإقباله على راحته، إلى أن خرج عن مرسِيةَ، يُريد لنفسه فى رسالة النصرانىِّ ليخدم أمْرَ الأقطار[2]

---

(١) تدمير: من كور الأندلس، سميت باسم ملكها تدمير (الروض المعطار).

(٢) فى المطبوع: «الأنظار».

التى تُجاوِره فى الشرق، وعسى يَضَعُها فى يدَيْه، مِثْل شَنْتمريـَّة[١]، ويسْعَى فى إصلاح مـا أفسد عليه ابنُ رَشِـيق، فإنه لم يَجِدْ إليـه سبيلاً لكَلَبِـه عليه، ولما نـهض إلى ألْفُونْش، فـأوَّلُ ما سعَى فى تَصْـيِيـر طُلَيْطُلَة إليه بمُـداخَلة أهلها، ليكونوا حاكمين أنفُـسَهم، ويُؤَدُّوا الجِزْية للنصرانى دونَ رئيس، وأتى طُلَيْطُلَة، وابـنُ ذى النُّون فـيهـا باسْـمِ الرسالَـة، ووافَقَ على ذلك، ومَـحَلَّة ألْفُونْش عليـها، فى حين صَرْفِ حـاجِبِها إليـها بعد خَلْع أهلهـا له، لِيَفِيَ له بوَعْده، ثُمَّ يعكس عليـه القصَّة، فيُقْـتل فشعر لذلك، وغلب حـفيدُ ابن ذى النون الفئَة القائمة عليه، ففَرَّ منهم مَنْ خلص إلى ألْفُونش، وفرَّ ابنُ عمّار.

ولمّا لم تتمَّ له خـدمة ألْفُونْش فى ذلك، نهض إلى صاحب سَـرَقُسْطة، وتخدَّم له خَبَر شقُورَة[٢] (وبها ظُفِرَ به، ووُجِّهَ به إلى المُعْتَمِد) فلما ثبت أنَّه استقـرَّ عند ابن هود، غَدَرَهُ فيـها ـ أعنى مُرْسِيـةَ ـ ابنُ رَشِيق، مع استمـالته لأهل البلدة، واستحـسنوا ولايتَه، ولم تكن لابن عمَّار بعـد ذلك رجعةٌ إلى مُرْسِـيَة، وصـار خادِمًا عـند ابن هُود صاحِب سَـرَقُسْطة، ولمّا احـتلَّ بذلك القطر، أضْرَمَه ناراً، وأهاج فيها فِتْنَةً، وصار سفيراً للإفْرَنْج، وآثَرَهُ ابنُ هُود، وقرَّبه، رجـاءً منه أن ينال على يدَيه ما نال المُـعْتَمِـد، للَّذى قام له عنده من الطارُوس بسعادةِ صاحِبِه، لا بأعماله.

وكانت العداوة الواقـعة بَيْنه وبَيْن المُعْتَمد على يدى الرَّشـيدِ ابنِه، فإنَّه، بفسـوقه، كـان يتكبَّر على أولاده، ويضيِّـق عليهم، ويُسىء الصنيـعةَ مع من

(١) شنتمرية: مدينة فى الأندلس من مدن اكشونية، وشنتمرية على معظم البحر الأعظم، ولها سور، وبها المراكب واردة وصادرة، وبها دار صناعة الأساطيل (الروض المعطار).

(٢) شقورة: مدينة من أعمال جيان بالأندلس (الروض المعطار).

يجب عليه إكرامُه من قرابة سلطانه، والمُعْتَمِد، فى هذا كله، يصبر له، ولأنَّه كان قد استمال النصارى، واندخل معهم بحيلة: فمتى ما دهم أمرٌ من قِبَلهم، وجَّهه إليهم، فيَنْجَلى من أمرهم ما يضيقُ الصدرُ به، وكلُّ ذلك بأموال رَئيسه وسعادة أيَّامه، وهو بجهله يعتقد أنَّ ذلك لا يتهيَّأُ إلاّ بسببه، ويَرُدُّ الحِسَّ كلَّه إلى نفسه، وكانت هذه المعانى ممَّا أحنق عليه المُعْتمِد، حتّى عقَّب عليه بما كان جديرًا به، وأَمْكَنَهُ الله منه، وجازاهُ بما لم يكن له منه بُدٌّ، ولا رآه لغيره أَهْلاً، وكانت شَقُورَة قد أخلها المُعْتَمِدُ، وبَنى صاحِبُها ـ عَبْدٌ من عَبِيدِ سِرَاج الدولة ـ أن يَضَعَها فى يديه، فلما صار ابن عمار إلى سَرَقُسْطة، نهض إلى العبد المذكور، عَسَاهُ يرجع إلى طاعة ابن هُود، فثقَّفَهُ وأرسل به إلى المُعْتَمِد، وعند ذلك قَتَلَهُ شَرَّ قَتْلة.

وإنَّ ابنَ رَشِيق بعد ذلك سوَّلَتْ له نفسهُ الخِلافَ على المُعْتَمِد، واحْتَجَّ بأن قال: «لم يُقَدِّمْنى إلى مُرْسِيَة!» وزعم أنْ أهل البلد اختاروه، وأنَّ مُقَدِّمَهُ إنَّما كان ابن عمّار متى ذهب عنها، وسنَذْكُرُ من أمْره بَعْدَ هذا، عند ذكر أحوال المُرابِطين ـ أعَزّهم الله ـ وقَصْدِهم إلى لِيِّط، ما انقضى من خَبَره عليها مما هو مشهورٌ.

٤٠- عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية:

لَيْسَ كلُّ الناس عَلِمَ سرَّ الأمر كالذى نَصِفُهُ نَحْنُ، والدليلُ على ما قدَّمناه ذِكْرَه من ارتباط المُعْتَمِد إلى الخَيْر وإيثاره للصُّلْح بزوال هذا الفاسق ابن عمَّار عن دولته، لم يُرَ بعده فِتْنة فيما بَيننا وبَيْنه، وحقّق معنا فى كلِّ أمْرٍ، كالذى فَعَلْنا نَحْنُ معه، وجَدَّدْنا العَقْد على ما ارتضيناهُ من مُعاوَضات، سِوَى ما كان

قديمًا بيده، مما خرج عنَّا فى أيام المُظَفَّر، وأخَذَت الفِتْنةُ عليه حقَّها، ولم يوجَد فى طلَبِ ذلك خيرٌ، ولا إلى غير المُصالحة سبيلٌ.

فقرَّت الأحوالُ قرارَها، وتَهنَّى كلُّ واحدٍ منَّا بمُلْكه إلاَّ ما كان من سَيْفٍ بَرَّانِىٍّ يعترض بلادنا من الرُّوم، فكان الرُّزْءُ فيه واحدًا والمشاركة سواءً، وإن كُنَّا لا نقدر على ذلك بالإمداد بَعْضنا لبَعْض لضعْفِ الحال، فكنَّا نتشارَكُ بالمُداخَلة وإعمال الرأى والتحذير من أمْرٍ عسى أن يكون خفى عن الآخر وما أشبه ذلك.

٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته:

وإذا أتَيْنا على ذِكر جُمَلٍ من أحوالِ الأنْدَلس الحادثةِ فيها، المشهور خَبَرُها حسبما استفاض، وتَرَكْنا وَصْفَ الاختلافات، إذ يوجد الحقُّ فى طرفٍ واحدٍ، ولم يكن منها ما طولِعَ بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثرَ من إشاعةِ خَبَرٍ، ذَكَرْنا منه ما ينقاس فى العقل، وحَذَفْنا منه الإكثار والمشتبهات، وإنّه، متى أتينا على ذِكْر خبرٍ حادثٍ فى دَوْلَتنا ممّا حاوَلْناه أو شاهدناهُ أطْنَبْنا فى وَصْفه، وقَتَلْناهُ عِلْمًا إلى آخرِه، وأخبرْنا بسرِّه عن جَهْرِه، وبأرَقِّ الأسباب فيه، والإطنابُ فيما يحاوِلُ الإنسان أبلغُ وأنْعَتُ من وصْف المشاهدة لغير ما يخُصُّه، كما أن وَصف المشاهدة، وإن كان لا نعنيه، أبلغُ من ذِكر المستفاض الذى لم يُوقَف على حقيقته، فإنَّما يُذْكَر منه ما يقبله العقلُ، ثمَّ يَجْتَرى واضِعُهُ على أن يضع فيه من عقله دون الأغْلَب عليه عند العامة، فيصير مُكَذَّبًا.

ولهذا ما اخْتَصَرْنا من الكائنات المشهورة بالأنْدَلس كثيرًا من الأخبار

عنها، واقْتَصَرْنا على الإطناب فيما يخـصُّنا منها، ممّا حاولْناهُ أو رأيناه عَيَانًا، والحقيـقةُ من الخَبر عَوْنٌ كـبيرٌ على ما يرومُ الإنسـانُ من صِفَةٍ فى مَنْظومٍ أو مَنْثُورٍ، كالمـادِح أو الذامِّ، فإنه، إذا وجد إلى المقال سـبيلاً، أطْنَبَ وأبْلَغَ، وإن كانت بعض زيادة، فـإنها لا تمكن إلاَّ فى الأغلب والأكـثر، ويكون فى ذِكر الأمْـرَيْن مصدقًـا لمَعْرِفة النـاس به، ولأن كتابنا لم يكن مَـبْنِيًا إلاَّ على وَصْفِ مَمْلكتنا خاصَّةً «والحديث ذو شُجون» فلا بُدَّ من ذِكر جُمَلٍ من غيرها عند الحـاجة إلى وَصْـفه أو ضَـرْبِ مَـثَلٍ به، تزيينًا للكلام وإقـامةً للبُـرْهان ودورانًا على الحقيقة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢- مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢- عزل الوزير سماجة ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر:

وإنّه، لما تهدَّنَتْ لنا الأحوال وقرَّ مُلْكُنا قَرارَه بمُصالَحة المُعْتَمِد، ومُعَاقَدةِ الرُّوميِّ على المُهادَنة، وتَوْطينِ النفس على ما نُعطيه فى العام، انصرف نَظَرُنا إلى إصْلاح أمْر بلادنا، والفتشِ على رَعِيَّتنا، والكَشفِ على العُمَّال إن كانوا عادلين أو ظالمين، ولمّا شعر بذلك خَدَمَتُنَا ومَنْ كان له مَذْهَبٌ فى نصيحتنا، انتدب جميعُهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على ما خفى عنَّا زمانَ تلك الفِتْنة، فكُنّا لا نقبلِ من أحَدِهم على الآخر إلا بعد رويَّةٍ وهجومٍ على الحقيقة، حذرًا أن يكون مقال أحَدِهم حسدًا للآخر أو طَلَبًا لا يُتَّقَى الله فيه.

وكان سِمَاجَة، وزيرُ دَوْلَتنا المتقدِّم ذِكْره، قد شعر بذلك وأحسَّه منَّا، فاغتمَّ للأمر وعمل فى نفسه، وشكاه إلى إخوانه، وكان فيما قال لهم: «إنَّما كُنَّا نطمع بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكُّن من دَوْلته مدَّةَ أيَّامِ صبوته، يعنى صغرَ سنِّه، وأمَّا الآن، فلَسْنا نَجِد سبيلاً إلى ردِّه عن دَوْلته، لا بِفئَةٍ تحمينا، ولا بصغر سنٍّ نَجِد به السبيل إلى صرفِه عند العامَّة وتسفيه رأيه، لا سيَّما إذ كان رأيهُ النظَرَ من دَوْلته والبَحْثَ عنها» فقيل له: «لَسْتَ تَجِد سبيلاً إلى أكثر من المُدارة له، والإتيانِ لمرغوبه، وقلَّةِ الخِلاف عليه لئلا يتمكن عدوُّك منك، ويشتفى حاسِدك عليك، فهو، إذا وجد منك الذى يرغب، لم يلبث أن يُمِلَّ النَّظَرَ والخِدمةَ ويُفَوِّض الأمْرَ إليك! ثمَّ أنتَ بالخيار عند غَفْلته وإقباله

على راحته! وعليك بإشْغالِه بالنســاء، وعَجِّلْ له ابتياع الرقيق! ولَسْنا نأمن أن يكون يشنأُك من تَحْجِيرِك هذه الشهــوات عليه، فإنه نَظُنُّ به ما يُظَنُّ بمن كان فى سنِّه!».

ففعل ذلك، وكانت هذه الفتــرةُ التى دبَّرها من سعادتنا وتمكيننا من آمالنا فى الذى ذَهَبْنا إليه من الاستبداد بمُلكنا، فإنه شَبَّكَ علينا المَعاقِل بينى عمِّه، وأشَــدُّها علينا مــدينةُ المُنكَّــب، فجــعل يطلق لــنا العِنَان فى كلِّ مــا نُريده، واشترى الرقــيق، وجَعَلَنا نَخرج إلى النزاهة فى البــلاد، يُرِى بذلك الإنصاف والتأَنِّىَ، إذ كان الرجل متَــثَــبِّتًا، خائفًا من سوء العاقبــة، مع أنّه كان خائفًا من قبْل ذلك من أجْلِ كُتُبٍ استَعْــمَلها على أَلْسِنَتِنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفةٍ من صِنْهَاجَــة يأمرون فيــه بقتله، ونَحْن براءٌ منها، فظفــر بالكُتُب، وأنزل بنا التهمة، وأمر بقَتْل أُولئك المُسَــمِّين فى الكُتُب، وغَيْرِهم ممَّن اتّهم من كرَائمِ باديس ـ رحمه الله.

وكانت تلك المعانِى مقَدِّمات تُغازِلُه لعَزْلَتِه، فلمّا كانت وجهتنا إلى وادى آش عن اختياره، وقــد كنتُ علمتُ مُعتَقده فى ذلك كلِّه بالقــياس والمَيْز مع بعض الأخبار، قلتُ فى نفسى: «هذا رجلٌ قد اعتاد الأَمْرَ والنَّهْىَ، ورأى من يَقْظَتنا للدولة ما لم يكن يُريده، وليس فعْله هذا بهواه، وكلُّ شىءٍ يضطرُّ فيه الإنسان، فإلَيْه لا يؤمن خلافه، والرجعة عنه، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه! فنكون أبدًا نكابد منه ما لا يوافِق! وإن فاتَتْنى هذه المرَّة، أكُنْ كَمَنْ نُبِّه على أمْرٍ وحذِّر من نفسه، ثمَّ أوبق نفسه إلى المضرَّات، وإن أغْضَيْنا هذه المرَّة وعاد إلى مــا كان، ثمَّ نَرَى منه خلافًا، لم نقــدر عليه بشىءٍ، إذ يكون

نَظَره لنَفْسه أجْوَد من هذا النظر، فإنَّ هذا الأمْر منَّا جاءَه فجأةً لم يحتسبْه ولا ظُنَّ به، والفُرَصُ تُمرُّ مرَّ السحاب! فما دُمْنا نَحْن عليه، لا نتربَّص حتى يكون هو بالخيار علينا!».

فأراد إشاعة عَزْلَته بالحضرة عند إمكان السَّفَر، فلم نَرَ لذلك وَجْهًا إلاّ ونَحْن خارجون عنها، ليكون أشْنَع فى الناس وأقطَع ليأس الرعايا، مع أنّى، إذا حركتُ هذا بالحضرة، دخَلَتْه الصِّناعة وكتم عن الناس، وشغَّبت امرأتُه من الدار.

فلما وَصَلْنا وادى آش، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بمَظالِمها، وكان عامِلَها ابْنُ أبى جوش، صَنيعةَ سِماجة المذكور، فأمرتُ عند شكواها بثقافه، فأنكر الناس ذلك، وهان عليهم أمره، وجمعتُ الرعايا والوزراءَ، وحَدَّدتُ لهم حَدّا يَقِفون عنده ألا يجعلوا بَيْنى وبَيْنهم واسِطةً، وأمَرْته هو بالتزام ما يخصُّه لنفسه، وأن لا وزير لدَوْلتى إلاَّ نفسى، وحَددت لكلِّ خادم ما تكون طريقتُه أن لا يتعدَّى سِوَاها، فسرَّ بذلك جميع الوزراء، إذ تساوَتْ أقدامهم، وانكشف حِجابى لهم، لكى تكون حوائجهُم إلىَّ دونَ مَنْ هو مِثْلُهم أو دونَهم، واغتبط الرعايا بعزلة الظلَمة عنهم، وعزلتُ كلَّ من يُتَّهم بخيانة، وقدَّمتُ عُمَّالاً إلى الجهات، أُريد تجديد الدولة، وعزلتُ بنى عمِّه من الحصون، ولقد كان فريقٌ منهم، لمّا سمعوا بذلك، يفِرُّون منها ويترُكونها حتّى يوَجِّهَ إلىَّ جُنْدُها عن قائدٍ، ولم نَلْقَ فى ذلك كُلِّه مَشَقَّةً، ولم يَبْقَ إلاّ ابن عَمٍّ له، صاحِب المُنكَّب، فجزع، إن تَرَكَهُ، أن يوجَد إليه السبيل بسَبَبِه، فأخبرنى بالأمر، وسألنى إرْسال قائدِى إليه، فعُزِل، وسأل زَاوِىُ زوالَ

أخيه بَلْبَار عن وادى آش، فكان ذلك كلُّه على أَمْكَن سعادة وأَجْوَد تقدير، للذى شاءَ الله من تمام أيَّام وزارته.

ثمَّ أَمَنْتُهُ فى نفسه، وأبقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إلا الذهب والفِضَّة، وسوَّغْتُه إنْزالاً ينعاش فيه، وأَمَرْتُه بلزوم مَجْلِسى وأنَّه مُكَرَّمٌ طول حياتى، فقَبلَ الرجلُ ذلك كلَّه، وأطاعنا فى كلِّ أَمْرٍ أَرَدْناهُ دون خِلاف ولا إظْهارٍ لمَعْصية، فإنَّه كان جزوعًا، قليلَ الجرأة على العظائم، ولأنَّه لم يَجِدْ فَئَةً تُعينُه، ولِثقَتى بذلك أَمَّنْتُهُ فى نفسه، ومضى عليه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المَجْلِس دون خِدْمة، فلم يَتْرُكْهُ.

وخاف منه مَنْ سعى فى أمره من أهل الدولة، وتوقَّعوا منه العودة، فلم يزالوا يُعْرون به، وينقلون عنه من قبيح القول، ويخافون من مغبَّة أَمْرِه، ما لم نَرَ معه وَجْهًا لإمساكه فى البلدة، احتياطًا على أنْفُسنا، وربَّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل، فهَلَكَ من أجْلِها، ولا استَطَعْنا حينئذٍ على مُعاقَبته لِمَا ارتكب فى صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساء ومَنْ جرى مجراهُنَّ، لشركته فى ذلك مع سِواهُ من شيوخ تَلْكَاتَة، فيسوءُ ظنُّ الجميع، وتفسد من سَبَبِه الأحوال، فلا يقوم فسادُ المَمْلكة وسوءُ عاقبة الأمْر بما يلزم من إقامة الحدِّ، فرأينا من الصواب أن يرتحل عنَّا دون تغير ولا إبلاغ فى عقوبة، استمالةً لأنْفُس الناس، وبَسْطًا لأموالهم، فخرج بجميع أثاثه وخَدَمه ودَوابِّه وجميع ثيابه وفرشه، مشَيِّعًا إلى أَلْمَرِيَّة، فكان المُعْتَصِمُ يُكرمه من أجْلنا، ولا ييأسُ أن نصرفَه إلى منزلته، فيقدَّمَ ذلك الإكرامُ عنه، وخَرَجَت امرأتُه بحَلْيٍ كثيرٍ من الجَوْهَر، حاشى ما خفى عنَّا من المال، وإنَّما صار إلينا ما أعطيناه

بأيدينا من الذهب والفضَّة أوَّلَ ولايتنا، وَقْتَ فَتْح بيتِ المال، ولم نتحقَّق ما اكتسب منها مدَّةَ خِدْمَتِه لنا، ولا بَحَثْنا عن ذلك.

٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة ألمرية

تعاقب أحداثه وحله:

ثُمَّ قُمْنَا من بعده فى أُمور البلاد والرعايا بأحْسَنِ قيامٍ وأتَمِّه، وجَعَلْنا الأُمَناء على البحث والتعَقُّب ورَفْعِ المَظالِم إلينا، ودام الأمْرُ على ذلك دَهْرًا طويلاً.

وإنَّه، فى إثْرِ مَضْى سِمَاجَة المذكور إلى ألْمِريَّة، بَلَغَنا أنَّه حقَّر الدولة لابن صُمَادِح وطمَّعه فيها، لِمَا كان يَرَى من طمع الرجل الذى قد شهر به ـ رحمه الله ـ فإنه كان كثيرَ الطمع، قليلَ الجسر، ضعيفَ المنَّة، فعمل قَوْلُه فى نفسه، ورَجَا أن ينالَ على يدَيْه فُرْصةً بمُداخلةٍ أو إدْلالٍ على مَوْضِعِ فائدةٍ، كالذى تَهَيَّأ له مع اليهودىِّ.

ووافَقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائدَى النَّظَر ما بين فِنْيانَة والمُنْتُورِى مُشاجَرةٌ، على الجهات، ولم يتهيَّأ حيازة ذلك النَّظَر إلاَّ بُنْيَان المُنْتُورِى المذكور، وقد كُنْتُ، عند وجهتى إلى فِنْيانَة، أرسلتُ إليه رسولاً يُعلمه بورودى عليه، وسألْتُه تلك القُرَى المصاقِبة لها وإنَّها أوْلَى بذلك المَعْقِل لقرْبها، وتطارَحْتُ عليه فى المُكارمَة بها، فكان من جوابه للرسول: «هَيْهات! ليست تُمْلَكُ الأقطارُ إلاّ بالبُنيان والسَّيْف!» فلمَّا علمتُ مُهِمَّ ذلك الحِصْن على ألْمَرِيَّة، وبَلَغَنى ما كان من تطميع سِمَاجة، وتذكَّرتُ مُراجَعته عن القُرَى، أغْضَبَنا ذلك ولم نُؤَخِّرْ أن عاجَلْنا ببُنْيان ذلك المَعْقِل، فقام على المقام بالجِدِّ

والقوَّة، وجَعَلْنا فيه حُماة الرجال، وضاقت ألْمَرِيَّةُ من أجْله، واحْتِيجَ إلى بُنيان مَعاقِلَ غَيْرِها، توَقُّعًا أن نسبق إليها، فيكون عِوَضًا عن المُنْتُورِى، فقام بُنيانُها على ساق، وصارت كلها حرزًا للجهات التى لنا، وأقْفالاً عليها، وضَرَرًا على جِهات ألْمَرِيَّة، فعيلَ بالأمر، وضاق به ذرعًا، وكان لا يُوجِّه عسكرًا إلى موضع إلاَّ هُزِم، وأسَرْنا كبارَ رجال على طُرْلُبَش.

وكان عِدَّةُ ما بُنِىَ عليه سبعة حصون، وكنتُ مع هذا آمُرُ أهْلَها بالرفق وحرْزِ جهاتها ألاَّ يتطرَّق إلينا طالبُ شر، وإنِّى إنَّما بَنَيْتُها صَولةً وتَهيُّبًا، حتى نُصالِحَ الرجُلَ على ما يَقَع بموافَقتنا، ويعرف أقدارَنا، وإنَّه، لمَّا ظهر من كَلَب الرُّوم على الأنْدَلُس ما ظهر، ورأيتُ نفسى ظافِرة متى رُمْتُ مع ابن صُمَادِح فِتْنةً، وتبيَّن لى ضعفُه عن المُناظَرة، صرفتُ نفسى عن التمَادى والإلحاح، وقُلتُ: «أنا فى مِثْل هذا مُدْرِكٌ! لا يفوت من الأمر متى أرَدْناهُ شىء، وحسبُنا ما قد ظهر إلينا، فالإبقاءُ أوْلَى، وإصلاح الأمْر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه - خَيْرٌ من تَهيُّئنا لقَوِىٍّ لا يُرام! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرةٍ من إثباته لدَولته وإبقائه عليه، ولنا فيه أُسوةٌ وقدوة!».

فصالَحْتُ الرَّجُل، وأمَرْتَ بهدمِ تلك الحصون، ونُشِرَت ألْمَرِيَّةُ من كفن، وتمكَّن بعد ذلك، ودَنَا، وصار أصدَقَ الناس لنا:

ولا خَيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكُنْ لَهُ
بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرَا

فلم نَزَلْ متعاقِدَيْن مُتشاركيْن فى الحلو والمُرِّ إلى انصرام الأجَل.

٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلكين صاحب مالقة وأخي المؤلف، ونصره إياه:

ثمَّ لم نلبث بعد ذلك إلاَّ يسيراً حتى جاءنا من أخينا تَميم فحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورَنا، وصُلْحَنا مع سلاطين الأندلس، وما صنعناهُ بجهات ٱلْمَرِيَّة، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأُولى، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفِتَن والشغل الشاغل، فحسب الزمانَ كلَّه واحداً، ولما سُكِت عنه قبلُ، لهذه العلَّة على ما قدَّمنا ذكره من بدءِ أمره، تمادى على تلك الأفعال، فأرسل قَطائعه إلى حرب المُنكَّب وشَاط[1]، وخُوَيلةٌ في إثرِها للضرب على النَّظَر المُصاقب لها، وأتاني أهل تلك الجهات شاكين بالأمر، فقلتُ في نفسي: «هذا إنسانٌ لم يُبصِرْه الدهر، ولا حكمَتُه التجارب: ومتى تركناه على هذا ذائبًا، ولم نؤَدِّبْه عليها، تمادى شرُّه، وحسب أنَّ ذلك لهيبته، فازداد، ولا تنفع فيه مَوْعظةٌ ولا قيلٌ!» فلم نجد بُدّاً من تأديبه وزجره، فإنَّ الشيءَ تحقره وقد ينمى! وإنَّما كان ذلك الإغضاءُ لَمَعانٍ تُوُقِّعَتْ، وانتظاراً به لحسن العودة وروية البصيرة، فإذا قد يَئِسْنا من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلنا عنه، فَتْرُكُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق!».

ووَافقَ ذلك الزمان اشتغالُ المُعْتمد بأمر ٱلْفُونْشُ، فإنَّه نازَلَ إِشبيلية لتباعات تسبَّب بها، وضاقت الحال من أجْله، فاتَّفق الأمر وتهيَّأت الأسباب على حين غفلة وٱنتهاز فُرصة، فنهَضْنا بأنفسنا إلى ذلك القطر، فوالله! ما سمع بنا أهل حصونه، ولم نتدارَكْ بالخروج صبيحة ذلك اليوم، حتى وَرَدَ

(١) شَاطُ: حصن بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة، كثير الشجر والفواكه والخيرات (ياقوت).

علينا عن حِصنِ القَصْر بجهة صَالِحَـة أنَّه صار فى مِلْكِنا وطاعَتِنا رعيَّته، وهو حصنٌ أوَّلُ مـن يطوع وآخرُ من يعـصى لذَوِى الغلبة والظهـور، فاسـتبـشرنا بذلك، وصِرْنا إلى الحَـمَّة[١]، نروم منها أمرَ ذلك النَّظَر، فـأُعْلِمْتُ بصَخْرة دوُمِس (ولا مـعنًى لِرِيُّه[٢] إلا بها، وهى موسطة البلد) وقد اجـتمع فيها جلُّ عساكر مـالَقة مع قوَّاد صاحِبـها، فلو انتُزِعَتْ تلك الشوكةُ، كان أَمْـرُ غيرها يسيراً هيِّنًا، فاستَعددْنا لقتـالها، وضارَبناهم فى أوَّل النزوع عليها، فجزع مَنْ فـيهـا من الجُنْد، وأرسلوا إلينا الليلـةَ يطلبون الأمـان، ويخـرجون بخـيلهم سالمين فى مهَجِهم، فأجبْتُـهم إلى ذلك، عسى أن نكون نستميل غيْرَها بهذه الأيادى، وأخلوا الصَّخْرَةَ، وصار فيها جُنْدُنا.

وانتقـلْنا عنهم إلى حِصْنٍ كـان صاحبُ مـالَقة قد بـناه لقطع الطريق بيننا وبينه أوَّلَ قيامه، على ما رسمناه، فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتَخاذَلَ مَنْ فيه، ودُخِلَ قسـرًا، وهو حِصْن أَشْتنير[٣]، ثمَّ نَهَضنا إلى مَـرِيَّة بَلَّش، فألقت بيدها، وأردتُ التمادى إلى بِزِلْيانة[٤].

---

(١) الحمّة: من عمل المرية.

(٢) ريه: كورة من كور الأندلس فى قبلى قرطبة (الروض المعطار).

(٣) كذا فى المطبـوع، والذى فى الروض المعطار: أشْتَـبين: حصن بالأندلـس على يسار الطريق، تحت أصل جبل ممتنع، لا يدركه لمقاتل طَمعٌ.
بنى عليه بعض الملوك حصونًا كثيرة، وحوصر مدةً سنة ٣١٣هـ.
وبعد لأى ما افتتح وذلك فى عقب سنة ٣١٣هـ.
فلعل هذا الحصن هو المحرف فى المطبوع.

(٤) بزليـانة: قرية على ساحل البحر، قريبة من مالقـة، وأرضها رمْلٌ، وبها الحمّام والفنادق (صفة جزيرة الأندلس).

وكان كَبَّابُ بنُ تَميت صاحبُ أُرْجُذُونة[١]، قائدُنا، قد استفْلَك فى تلك الجهة، وزعم أنَّه لا يتعزَّل إلينا، فلمَّا رأى ظهورَنا فى هذه المَعاقِل، خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه، فرام أن لا نَصِلَ إلى بزلْيانة وحذَّر من ذلك، وكان وراءَنا حِصْنُ مُنْت مَاس، ورأيتُ أنه لا تتمكَّن لنا مُنازَلَةُ مالَقة إلا بالراحة منه، فإنَّه يمنع الميرة إلى المَحلاَّت، فانصرَفْنا من بِزِليانة نريد مُنْت مَاس المذكورة، وأظْهَرْنا لكبَّاب الأَخْذ برأيه، فسرَّ بذلك.

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس، رأيتُ مَعقِلاً عظيمًا، قد اجتمعت به جميع الرعايا، فعَرَضْنا عليهم الطاعة، فأبوا، خيفةً منهم أن نكون غَدًا نُصالح أخانا ويُعاقِبَهُم، فأَمَّنَّاهم من ذلك، واجتمع فيه كلُّ فاسِقٍ من أهل الشرِّ، وأعْرَضْنا عليهم الحرب بأَنفُسنا، وتَركْناهم على ذلك، ورتبْنا عليهم الرُّتب وانصرَفْنا إلى غرناطة، وفى انصرافنا، طاعَتْ لنا غيرُها من المعاقِل، مثل أَيْرُش وصَخْرة حَبيب، وكُنا فى أوَّل وجهْتنا قد أَخَذْنا رُيَّيْنَة بالسيف قسرًا، وطاعت لنا جُطْرُون، وهُما قَصَبَتا مالَقة، وطارت فى تلك المدَّة عن يده عشرون مَعْقِلاً، وانْصرَفْنا إلى مُنْت ماس ثانيةً، ويئسوا من تَرْكهم، وطاع أهْلُها، وثقَّفْناها، وهدَمْنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكه بغيره، وأمَّنْتُ الجِهَة وبحثتُ عن فوائدها، وصار ذلك مُقَيَّدًا، وأوْسَقْنا أهْلَها خيرًا.

ولما رأى أخونا ما دهمه من الأمر، وقيامَ رعيَّته عليه، خاف على نفسه من أهل البلد، مع تَبْريزنا نَحْنُ عن مالَقَة فى حين أَخْذِ مُنْت مَاس، واشتغل

(١) أرجذونة: بالضم ثم السكون وضم الجيم والذال المعجمة، وسكون الواو، وفتح النون، وهاء: مدينة بالأندلس (ياقوت).

بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون مَوْضِعنا، وتبعهم أكثرُ عسكرنا، فانتهز أهلُ مالَقة الفُرْصة، لما رأوه من قلَّةِ مَن فى المَوْكِب معنا، وخرجوا على باب فُتَنَالَّة، وحملوا على العسكر حملةً اختلط فيها الفريقان، ولمَّا رأيتُ فُرار مَنْ معنا واختلاطَهم بجُنْد مالَقة، أمْسكْنا على العَلامات، وأمَرْنا بضرب الطبل بعد تولِّيه، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لمَّا رأوا ثبوت العَلامات، ثمَّ كانت لنا عليهم الكرَّة، بعد أن أُسِر بعض رجالنا، فأنقذوهم، وهزموا عَسْكَرَ مالَقة، وكان بها من جُنْد البَرْبَر نحو ثلاثمائة فارِس أنجاد، إلا أنَّ الحزم دآخلَهم، ونزع إلينا أكْثَرُهُم.

ولمَّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزَّة، أشار علينا بالانصراف، وخوَّفَنا من تَقْوِية ابن عَبَّاد أن تَدْخُلَها ما لا يُمكن، فقُلْت: «إن الانصراف على هذه الحالة عَجْرٌ[1]! وسيشيع فى الجهة كلِّها أنَّ رجوعَنا لم يكن إلا عن هزيمة! فالأوْلَى أن نكسِّر يومَيْن نُبَرِّزُ فيها كل يوم فى الموضع الذى الْتَحَمَتْ فيه الْخَيْلُ، نُرِيهم: إن كانت بكم قدرة، فعَاوِدوا ما فَعَلْتُم!» وثقَّفْتُ العسكر لئلاَّ يطيش منه أحَدٌ، فكان ذلك، وأقْلَعْنا بعزّةٍ حتى وصَلْنا نَظَرَنا على أتَمِّ ما يُمكن، ولو رَفَعْنا أوّلَ تلك الوهلة، خَلَتْ جميعُ المعاقِل التى طاعت لنا، وكأنَّنا ما صَنَعنا شيئًا.

فبَقِيَت الحال ضيِّقةً على مالَقة، وأرسل إلينا أخونا، يستعطف ويسأل العَفْوَ وإقالة العثرة، فدبَّرْنا أمْرَه فى أنْفُسنا، وعملْنا فيه رأيًا سديدًا، وعلمْنا ما هو عليه من الحَرْص والشرِه والحدَّة، وأنَّ صَرْفَ المَعاقِل إليه تَقْوِيَةٌ لشرِّه، وأنّه، إن عاوَدَ بما كان عليه، لم نقدر له على شىء، ولا تطوع بَعْدَها رعيَّته

(١) عَجَرَ الرَّجُلُ عَجْرًا: مرَّ سريعًا من خوف أو غيره

إن أرَدْناهم بَعْدُ، لِمَا يَرَوْن من إسلامنا لهم إليه، وخافوا أن يُعاقِبهم، مع ما كانوا ينقمون عليه من سوء الطريقة معهم، يُعْلِنون بذلك، وأخذوا منَّا ميثاقًا غليظًا ألا نُسْلِمَهم إليه، وعاهَدْناهم على ذلك بأيمانٍ مغلَّظة، وظهر من أقاويلهم أنَّهم، متى رُدُّوا إليه، لم يجيبوا، وأدخلوا الداخِلة، وصيَّروها إلى رئيس غَيْرنا، فخفْنا من هذه الوجوه ما يجب أن يتوقَّع.

ثُمَّ لم نَرَ وَجْهًا في الإلحاح عليه، فربَّما أخْرَقَ، وصَيَّرَها إلى سِوانا، كالذى صنع ماكْسَن عمُّنا بجَيَّان، فتكون مُصيبةً للبلدة، وعارًا عظيمًا، من تَوْلية أخينا وشقيقنا إلى غَيْرنا، وتَغريبه في البلاد، وأُمُّه في قيد الحياة، ولو لم تكُنْ، فأبْقَيْنا عليه، وقد أدَّبناه بما كفى، ووسعْنا عليه في النَّظر ممَّا لم تَبْقَ فيه من الرعيَّة، وكان مُهِمًّا عليه، وأخْلَيْنا له رُيَّنة وجُطْرُون، فإنَّ رعيَّتها نصارى، وهُمْ بَيْن النَّظَرَيْن، لا يقدرون على نفاق مع أحَد، وأعطيناه قُرًى يتَّسع فيها لمَرافقه، وبقيَتْ بيده حُصُون الغَرْبيَّة مِثْل قَرْطَمَة، ومِيشش، وحُمَارِش، وأعطيناهُ قَامَرَة، بَلَدَ الزرع، ليتَّسعَ فيها للحَرْث، وحرَّمْناهُ غَيْرَها، التى يتوقَّع من أهْلها ومنه: إن استأسَدَ بها، لم يؤمَن شَرُّه.

وبَقِيَتْ حالُه في أفضل الأحوال، ما رَضِيَتْ به الوالِدة وحَمِدَهُ جميعُ الناس، صِلَةً للرحم، وعَفْوًا عند المقدرة، وتأديبًا لما يخشى عاقبته، وقرَّ حالُه قرارَه، ونَفْسُه في هذا علينا حاقِدةٌ، تَبْلُغُنا عنه أقاويل سيئَةٌ، ونحن لا نعرج عليها ونقول: «إضْرَارُه بالقول خَيْرٌ من إضرارِه بالفعل، لو صَرَفْنا إليه المَعاقِل! وعَلِمْنا أنّه في عافية ونعمة طائلة ممَّا عنده من

الأموال التى ترك جدُّه بمالقة، لم يحوج قطُّ إلى نفقة درْهَم منها، ولا نالَتْه فِتْنةٌ، ولا بلغه مكروهٌ، وكُنَّا نَحْن أمامَهُ نُقاتِل عنه العَرَب والعَجَم، ونعطى عنه الجِزْية، وهو فى دَعَة، فإذا كان بيده فوق ما يكفيه لقِلَّة تَمَوُّنِه واحتياجه إلى نفسه فى التمَوُّن والنفقات، فإنَّ هذا كثيرٌ، وهو تحت نِعَم جمَّة!» فطابت أنْفُسُنا على ذلك، وكَفَّ هو عن كثير مما كان يرتكب من القتل والظلم، حتى أنه لا يَرِدُنى من عنده رسولٌ من أهل بَلَده أو جُنْده إلاَّ ويوصِّى أن نشدَّ بيدى عليه، ويقول لى: «بتأديبك له فَلَحْنا وكفَّ عنَّا، وإنَّه، متى يأمن منك أمْرًا، طغى علينا، وشقينا به، وما فى الدنيا أشْعَرُ منك فى إمْساك تلك المَعاقِل عنه، فإنك كنتَ بعد هذا لا تلجمه أبَدًا!» فخرجت الأُمور خَيْرَ مَخْرَج، وأمَّنَّا جِهَتَه بسَتْره فى مكانه، ولم نفجع فيه أُمَّه.

٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميت وثورة بنى تاقنوت ونهايتهما:

وإنَّ كبَّابَ بن تَميت، قائدنا بأُرْجُذُونة وأنْتَقَيْرة[١]، لمّا رأى ظهورنا على مالَقة، أكْبَرَه ذلك وشقَّ عليه، وعَلِمَ أنَّ الأمْرَ منْجزٌ إليه، إذ كان قد أضْمَرَ نفاقًا وطاعةً فى مَعصِيةٍ، لِمَا تأسَّس به هناك فى حين الفتنة من ضَمِّ الأطْعِمة، والاستحواذ على أموال الناس بقَطْعِه السُّبُل، وانقطاعِ أهل الشرِّ إليه من كلِّ قطر، وكان أمْرُه من ذُنُوب سِمَاجَة عندنا، الذى سوَّغه البلد، وجَعَلَه مِلْكًا فى يده ويدى بنى عمِّه، حتى شقى به، ولمَّا تمَّ صُلْحُنا مع المُعْتَمِد بن عبَّاد، خالَفَنا فيه، وجعل يُفسد وينقض ما أبْرَمْناه من ذلك، ولا

(١) أنتقيرة وبالإسبانية Antaquera أندلسية حصينة تقع شمال غربى مالقة.

يقرُّ عن الضرب، فجَعَلْت أقدمُ إليه المَرَّة بعد المَرَّة، وأنذُره عاقبة اتِّباعِ هَوَاه، وأقولُ له: «إنَّ للمُصالَحةِ وقتًا ينبغى للمَرْءِ حِفْظُها، فإذا أفْسَدْتَها، فأنْتَ من المُطالبين لى!» فلا يَزْدَجِرْ مع هذا كلِّه، ولا ينفع فيه وَعْظٌ، لإعجابه وتحامُقِه، وكانت كُتُبُ المُعْتَمِد أبَدًا تَرِدُ بالشكوى منه، فأضْمَرَ لما من كفِّه غائلةً، وكانت من سعادتنا أنه لم يجمل المُعامَلة مع أحد الفريقَيْن.

فلمّا طال الشكوى به، قلتُ لرسول المُعْتَمِد: «لا أَسْتَطيعُ على عَزْل كَبَّاب إلاّ بالمُجاهَدة فى مُفاسَدته، فإن استوْثَقْنا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه، فنَحْنُ ضامنون لعَزْلَته!» فارتبط معى على أن لا تُقبل له رجعة ولا تُقال له عثرة، فألْحَحْتُ على كَبَّاب فى أن ينزل عن المَعْقِلَيْن، ثِقَةً منِّى بما رَبَطتُه مع المُعْتَمِد، فزاد طغيانُه، وخاطَبَ على المقام إلى ابن عَبَّاد، يرغب فى تصيير الحصون إليه، فأرسل إلىَّ المُعْتَمِدُ بكتابه، وحضَّنى على شدِّ اليد عليه والراحة منه، ففعلتُ ذلك، وهذا مِمَّا تقدَّم ذِكْرُه من إنصاف المُعْتَمِد لنا وقلة خِلافه علينا منُذْ فارَقَ ابن عَمَّار، كالذى أجْمَلْنا نَحْنُ معه فى أمْر بَيَّاسَة، وقتَ نفاق أهْلِها وأرْسَلْتُ كتابهم إليه.

وإنّ كَبَّابًا قبل ذلك، لمَّا رأى صَنِيعنا بمالَقة، على ما قدّمناهُ، نظر ـ فى زَعْمه ـ لنفسه وقال: «هذا ما صنع بأخيه! وطاعت له الرعايا! فكيف بمن هو عبدٌ من عبيده؟» وأحسَّ ذلك فى نفسه ابنُ تَاقْنَوْت، صاحبُ مدينتنا، وكان امْرَءَ سَوْءٍ، كثير الطغيان، بعيدًا من الخير، مؤثرًا للشرِّ، وكان له أخٌ بحصن جَرِيشة، قد سَوّغَهُ أيضًا سِمَاجةُ إقليم نِيمَش كلَّه، وطال مكثُه فى الحصن

سبعة أعوام، فسوَّلت له نفسه مثل ما أضْمَـر كبَّاب من النفاق، فتعاقَدَا جميعًا وتحالفًا أن لا ينعزل أحدُهما إلا بعزلة الآخر.

فَشَمَّرْتُ[1] للأمر، فأول ما ابتدأتُ به النَّظَر فى أمر ابن تاقنوت، إذ كان أهم علينا من أجل مدينتنا التى كانت بيده، وجَرِيشَة بيد أخيه، ورأيت معاقدة المعتمد عليه آكد، إذ علمت من حنقه على كباب أنه لا يقبل له معذرة، فعاملنى على ذلك أيضًا بأحسن مُعاملة، وتسرَّح بعسكره قُوَّة إن احتيج إليه لحرب جريشة، وشارك غاية المشاركة فى التوسط بيننا وبينه، وأرسل إليه رسوله، يقول له: «إن كنت جزعت من رئيسك، فاترك حصنه! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان، وإن كنت لا تثق بهذا كله، فانزل إلىَّ بعد أن أعطيك عهد الله وميثاقه ألا أسلمك إليه أبدًا» فما كان جوابه إلا أن قال: «وما تصنعون بالحصن؟» قال: «أُصيره إلى صاحبه!» فأبى وقال: «إنما أريد أن أجعل المعقل بيد من يذيقه الشر ويتولى فتنته!».

فأتانى ابن الأصبحى رسول المعتمد، المتوسط لخبره، فقال لى: «اعزَم على منازلة الرجل! فليس فيه إلى الخير طريقٌ، وهو متأهب للشر، لا يقنعه إلا الإضرار بك!» وكان فى هذا كلِّه يقطع السبل، ويخيف الناس، ويقتل أهل الرفق، ويطلع أموالهم إلى الحصن، ما كان أشهر فى الناس من الشمس، حتى لا يتجرأ أحد أن يجتاز بشىء من تلك الجهات.

فاستخرت الله على منازلته، ومكثتُ عليه ستَّة أشهر، لا نبالى عما ننفق عليه من الأموال، إلى أن رقَّتْ حالُه، وأنا فى هذا كله أقدِّم إليه وأبلى العذر عنده، وأخوه فى ثقافى، وأمرتُ أخاه بأن: «اكتب إليه أنى متى أخذته على

(١) فى المطبوع: «وشعرت» بالعين بعد الشين، ولا وجه له. وشَمَّر فى الأمر: خَفَّ ونهض، وللأمر تهيأ.

غير عهـد، بَرَّحْتُ بقتله، وإن كان نزل على الأمان قبل أخـذه، ولو بساعة، لم يتوقع مِنى شيئًا!» فوالله! ما تَرِدُ علـيه هذه الكتب إلا ويزداد طغيانًا وشتمًا وحماقة، حتى يسر الله أخـذه، ودُخِلَ الحِصْنُ، وكفى الله شرهم، وطهرهم من البلاد، وأراح منهم العباد.

وشاورت كبار البلدة وفقهـاءها فى خبرهم، فخيرونى فى الذى حض الله عليه من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المـائدة: ٣٣) الآية، فرأيتهم مستوجبين للصلب، وأنه أدهى وأمرُّ من أن ينفوا من الأرض، فإن شرهم لا يؤمن، وكثيرًا مـا كان المسلمون مرتقبين لما حلَّ بهم! ووالله! ما صـرفتُ وجهى لأحد خاصـةً وعامة من أهل بلادى إلا ووصف لى من أفعالهم القـبيحة ما تروا بها جمـيع الناس، ولقد كان يوم قتلهم للناس عيدًا كبيرًا من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرهم.

وإن كباب بن تميت المـذكور، لما رأى ما صنع ببنى تاقْنوت، زاده ذلك حماقـة واستيحاشًـا، وخاطب المعتـمد، على ما قدمنا ذكره، فـأرسلنا إليه نعرض عليه التخلى عن المَعْقِلَين، فـأبى ذلك، وأعد، واستعد بآلة الحرب، وضمَّ الحراسة وأخـاف السبل، وقطع الطرق وأتى بما هو مشـهور من شره، فاستخـرت الله على منازلته، وأمرت بضم الأجناد واجتمـاع الأنداب لقتاله، فكان ذلك على أتم ما يمكن، ولما أحس من نفـسه بالضعف، وأنه لا ملجأ له ولا مهرب إلى أحد بقلة إقبال السلاطين عليه، ترامى علينا، وسأل العفو، خوفا أن يحل به ما حل ببنى تاقنوت إذ لم يقبلوا الأمـان قبل الغلبة، فأعطيته من العفـو ما سأل، ليكون ذلـك قدوة لمن سأل منا العـفو بعد الإسـاءة فلا

ييأس من فعلها، إن دفعنا إلى مثلها بعدها، وكانت الأولى عظة وشُعْفةً لمن نفر، ولم يقبل الأمان وتمادى على الطغيان.

وكنا لا نقدم شيئًا ولا نؤخره من هذه الأمور إلا بعد روية وفكرة فى العاقبة، وندع مشورة الناس، فإنَّا بلونا منهم قلة التحقيق، والنطقَ على الهَوَى: فإما مفتون بأمر يزينه ويحمل عليه، وإما كاره لخير أو مطالب لأحد، فيجعلنا نَحِيدُ[1] عمَّا لا يطابق هواه ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (المؤمنون: ٧١) فلمَّا بَلَوْنا من الناس هذه الشمائل، وأن كلَّ أحد يحب أن تجرى الأحكام على اختياره، رجعنا إلى إيثار اختيارنا، إذ كان نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا «وما حَكَّ ظهرك مثل ظفرك!».

وكنا مع هذا نصغى إلى قول الناس بالأُذُن، لا بالعقل، فنقيس عليه ونختبر مراده، ولا نريه الخلاف، فنوحشَه، غير أنى أوسع لهم صدرى ويَسَعُ جَهْلَهم حِلْمى، وأقضى بعد ذلك ما أُريد، إذ لم أكُنْ على أمْرٍ مجبوراً ولا مقهوراً، إلا ما قَهَرْتنى عليه السياسية، وما تحمد له العاقبة، كمن يتجرع الدواء لُبْرء الدواء، ولم أكن أغتبن لأحد فى الحق من جهالة ولا غفلة، إلا أن تكون مسامحة وتغافلاً لأمر يُراد، أو مُتباعة للقول فى حينه تلطفًا وقلة خلاف على قائله، ثم أصرفه تارات، فالجاهلُ عندنا من إذا أشار برأى، ثم رأى أنه صنع ضده، أن يعاود القول فيه: فإن كان فَطنًا، من العَيِّ التكرار، وإن كان لم يعلم، فالتذكير به غفلة منه أو استنقاص لمخدومه، اللهم إنه لم يسمع منه الأولى، فتجرى عن الأخرى، ولعل خلاف الرئيس عليه الأمر قد

(١) فى المطبوع: «نحير» بالراء المهملة، ولا وجه له. وحاد يَحِيدُ حَيْدًا: مال عنه وعَدَل.

ظهر له، وخـفر عن القـائل، ولم يرد اطلاعه عليـه، فيكون فى رأيه البـركة والخير للفـريقين، وهو يلوم على ما لا يعلم أصله ويتمـادى جهالة، وينطق هذرًا، وتنحرف نيته على غير معنى، فيكون ظالمًا لنفسه.

فـأودعنا كَـبَّـابًا حِلمًـا، وأمناه، وبقى فى جـملة الجند تحت إحـسـان وإحمال، غيـر أنى لم أستعمله بعدها فى معـقل، ولا مكنته من صخرة، إذ «لا يُلدغ مُؤمِنٌ من جُحْر مَرَّتَيْن[1]».

(١) الميدانى: مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢١٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٣- قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة[١] ومحاصرة حصن لييط:

٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شئون الأندلس

وبَقِيَت أحـوالُنا على أفْضَل ما يمكـن، وبلَغْنا من آمالنا غايتـها، إلى أن حَدَثَ أمْـرُ الْمُرابِطين ـ أعَزَّهم الله ـ وكُنَّا رأينا كَلَب النصـرانىِّ على الجزيرة وأخْذَه لطُلَيْطَلَة، وقلَّةَ رفـقه، بعد مـا كان يقنع منَّا بالجزْية وصـار يروم أخْذَ القواعد، وأنَّ أخْذَه لطُلَيْطُلَة للضعف المتوالى علـيها عامًا بعد عام، وكذلك كان من شـأنه فى أخذ البـلاد، إذ كان مَذْهَـبُه ألا يُنازِلَ مَعْـقِلاً، ولا يُفْـسِدَ أجنادُه على مدينةٍ، لبُعدِ مَرَامِها ومَن فيـها من مخَالِفى مِلَّته، وإنما كان يأخذ منها الجزْية عامًا بعد عام، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدِّى، إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فَعَلَتْ.

فوقع مـن ذلك فى الأنْدَلُس رجَّةٌ عظيـمةٌ، وأشـرب أهلها خَوْفًـا وقَطْعَ رجاء من استيطانها، وجرَتْ بين المُعْتَمِد وألْفُونْش مُخالَفات كثيرةٌ، وسأله أن يتخلَّى له مَـعاقِبَ كـان الموتُ عنده أوْلى من إعطائها، فـوجست نفـسُه منه بالجملة، ورَام كَسْرَه بطوائف المُرابِطين، وضَرْبَ بَعْضِهم بِبَعض للقَدَر الذى شاء الله:

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفَتَى
فأكـثَرُ ما يَجْنِـى عليه اجتِـهَادُهُ

---

(١) بطحاء الزلاقة من غرب الأندلس.

وقد كان أخونا صاحبُ مالَقـة، للفتنة التى كانت بَيْننا وبينه، قد داخلَهم قَبْلُ يستـغيثُ بهم، ويرجو الانتقام منَّا بهم، وأن يدْركُوهُ مـا فاتَهُ من مملكة جدِّه، وظنَّ أنَّه، عند ظهورهم، يقسم الأموال بينى وبيْنَه، وكان هذا الخلافُ كلُّه من سعادة أميـر المسلمين، ورأى من تَشَتُّتنا أنَّه لا مشـقَّة تكون عليه فى أخْذ بَعْضِنا ببعض متى شاء، فلم يُجِبْهُ الأميرُ إلى شىء، ولا كان وَقْتُه، وهو يُلِحُّ عليه بقلة الدربة.

٤٧- إرسال سفارات أندلسية إلى مراكش،

احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء[١]:

وقد كـان رُسُلُ المُـعْتَـمِد قـبل هذا قد وردت عليـه، تُعلمه أن يتـأهَّبَ للجهاد، وتَعدُه بإخْلاَء الجزيرة الخضراء، وأنه لا يَصِلُ إلى سَبْتة إلا ويَضَعُها فى يديه، فلمَّا وصل متأهِّبًا لذلك، بمن احتفل به من جيشه، قدَّم رُسُلَه إلى المُعْتَمِـد، منهم عبدُ الملك القاضى، وابنُ الأحْسَن، فَأَمْسكَهُم بإشـبيلية مُدَّةً طويلة، وأميرُ المـسلمين فى ذلك مُتَقَلِّقٌ لورودهم، فأرسل معـهم من شيوخ إشْبِـيلية من يقول له: «تَرَبَّصْ من سـبتة مُدَّةً من ثـلاثين يومًا، إلى أن نُخلِى لك الجزيرة» فأجـابهم إلى هذا، وسألوه خطَّ يده وبالتربُّص، فأُشْعـرَ الأميرُ بذلك، وقـيل له: «لم يَجْـعَلْك ابن عـبَّـاد فى هذا الالتـواء إلا لأنَّه يُريد أن يرسل إلى أَلْفُـونْش يُعلمه بقدومك، ولـعلَّه يتأتى له منه مـا يرغب، ويُهدِّده بك، ويسألهُ أن يُعـاقدَه على أن يهبـه الجزية أعوامًـا، فإن فعل، استـجاش

(١) الجزيرة الخـضراء بالأندلس، بينها وبـين مدينة قلشانة ٦٤ مـيلا، وهى على ربوة مشـرفة على البحـر سورها متـصل به، وبشرقيـها خندق، وقصـبة المدينة مـوفية على الخندق وهى منيـعة حصينة سورها حجارة (صفة جزيرة الأندلس).

عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز، فاسْبَقْهُ إليها! وإن كان النصرانىُّ لا يتأتَّى له، أرْسَلَ إليك فى الجواز!».

ولمَّا انفصل الرسلُ عنه بنيَّة التربص فى إخلاء الجزيرة ثلاثين يومًا، جهَّز عسكرًا مُقَدَّمًا من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم فى أثرهم، فلم تَصِل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلاَّ والعسكر فى أثرهم قد عدَوْا ونزلوا بدار الصِّناعة، فالتفت القومُ إلى خَيْل قد ضربَتْ مَحَلَّتها، لم يُدْرَ متى أقبلت، ولم يُصْبَحْ لهم إلا وطائفة أخرى بعدها، يزيدون ويترادفون، حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة، وأحدقوا حواليها يحرسونها، ونادى داود بالراضى، وقال له «وعدتمونا بالجزيرة! ونحن نأت لأخذ بلدة ولا ضَرَرَ بسلطان إنما أتينا للجهاد! فإمَّا أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا، وإلا، فالذى تقدر عليه، فاصْنَعْ».

وخاطبَ أميرُ المسلمين ابن عبَّاد، يُعلمه بما صنع، ويقول له: «كفَيناك مؤنةَ القطائع وإرسالَ الأقوات لأجنادنا كما وَعدْت!» فأرسل المُعْتَمِدُ لابنه الراضى فى إخلائها لهم، وحصل فيها داود، وأتى الأميرُ إليها، ودخلها ناظرًا إليها، ثمَّ انصرف إلى سَبْتة إلى وقت إقباله، وأمر داودَ بالتقدُّم إلى إشبِيلِيَة، فاستوفت العساكر على إشْبِيلِيَّة.

وقد كان رُسُلُنا مضوا مع رُسُلُ المُعْتَمِد إلى أمير المسلمين، على اتِّفاق ضمَّ بَعْضُنا فيه بَعْضًا إلى حقيقة، وعاقَدْنا أمير المسلمين على أن تتَّصل الأيدى على غَزْوِ الرُّوم بمعونته، وألاَّ يعرض لأحَدنا فى بلده، ولا يقبل عليه رعيَّته بمن يروم الفساد عليه.

٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد:

وأرسل [أمير المسلمين] عند حُلُوله بإشبيلية، عن جميع الرؤَساء، فأمَّا ابنُ صُمَادِح، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصًا ليَرَى كيفيَّةَ الأمْر ومَخْرجَه مع الرُّوم، واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف، وأرسل ابنَه مُعْتَذِرًا، وبادَرْنا نَحْنُ إلى الخروج، وسُرِرْنا بذلك، وأَعْدَدْنا ما استَطَعْنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا، وقدَّمنا الهَدِيَّة إلى أمير المسلمين، وأمرنا بضرب الطَّبْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح، عند مُخاطبته لنا بدخول الجزيرة، وظننا أن إقباله إلى الأندلس منَّة من الله عظُمَتْ لدينا، لا سيَّما خاصَّة من أجل القرابة، وللذى شاع من خيرهم، وإقبالهم على طَلَب الآخرة، وحُكمهم بالحق، فنعمل أنفسنا وأموالنا فى الجهاد معه كلَّ عام: فمن عاش منَّا كان عزيزًا، تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيدًا، والعجبُ فى تلك السفرة من حُسن النيات، وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين فى طريقه إلى بَطَلْيَوْس بجَرِيشَة، ورأينا من إكرامه لنا وتحفِّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن نمنحه لحومَنا، فَضْلاً على أموالنا، ولقَينا المتوكل ابن الأفطس محتفلاً بعسكره: كلٌّ يرغب فى الجهاد، قد أعمل جَهْدَه، ووطَّن على الموت نفسه.

٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس:

وتَلَوَّمْنا ببَطَلْيَوْس أيامًا، حتَّى صحَّ عندنا إقبال ألفونش فى حفلة، يروم المُلاقاة، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلَّة معرفته به قبل، وساقَهُ القَدَر إلى أن توغل فى بلاد المسلمين، وأبعد عن أنظاره، ونحن بإزاء المدينة، مُتَرَبِّصون:

إن كانت لنا، فبـها ونِعْمَتْ، وإن لم تكُن، كانت وراءنا حرزًا ومـعقلاً نأوى إليها، وأمير المسلمين يُدبِّر هذا الأمر بحسن رأيه، ويلتوى، عسى [أن] تقع المُلاقـاة بتلك الناحية، دون أن يحـوج إلى التوغُّل فى بلادهم، وهم، كـما دخلوا الأندلُس، ولا يعـرفون مَنْ لَهمْ أو عليهم ورَجَـا بأن يكون الرُّومىُّ لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ، فيَنْصَـرِفَ طريقه، ويكفى الله المؤمنين القتال، إلى أن تُريه الأمور وجوهها، فلا يسمع إلا الأمير متربصًا لالتياث طاف به، ولولا ذلك، لكان فى أرض النصارى مُدَوِّخًا لها، والنصـرانىُّ فى هذا كلِّه يقرب متعاطِيًا، لا يعـمل حـساب مَنْ يُغْلَـب، إن كانت عليـه أن يكون بعـيـدًا من أنظاره، فيستأصله السيفُ، ولو لم يكن إلا يأكله الطريق وبُعْدُ المسافة.

ثم أرسل، على يدى ابن الأفـطس، إلى أمـير المـسلمين، يقـول له: «ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك، وأنت تتـربص وتختبئ لأصل المدينة!» فلم يكن بُدٌّ أن يُنتقل إليه، ليكون الجيش على مـقربة منه، وتواعدا اللقاء فى يوم سمياه، ولم يكن بين المَـحَلَّتين إلا نحو ثلاثة أميال، فاسـتاغ المسلمون إلى ذلك الوعد، وحلَّ الناس عن أنفُسهم، وكانت خيرة أن لو ركبت الفئتان، لم تنفصل إلا عن فَـقْدِ الأكثر مـن عسكر المسلمين، حـسبمـا توجبُه الموافـقَة للقتال.

ففجأهم عسكر الرومىِّ، وهم على غير إعداد، وكان مختلسًا: إنَّما له ما ألفَى فى تلك الساعـة، وألقَى سُمَّهُ فى الرَّحْل، ومات منهم خـلائق ممَّن لم يكن يقدر علـى نفسه، فلم تَقَع الصـيحـة على الجيش [إلاَّ] وركـبـوا فى طَلبهم، وهمُ قـد كلُّوا وثَقَّلَهم السِّلاح مع بُعْد المسـافة، فاقتفى الـمسلمون

آثارهم، وركبوهم السيَّف، ومات من جيشهم خلائق، وتَبَدَّدوا فى الطريق، فمن بَيْن قتيل ومَيْتٍ مُثَقَّلٍ ضريع، ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعداد من وقوف الفِئَتين ومناطحتهما فى اللقاء، لفُقِدَ من العَسْكَرَيْن الأكثر، كالذى توجِبه الرتبة، لكنَّ الله لطيف بعباده، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل، وانصرف أمير المسلمين راجعًا إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر.

٥٠- يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة.

بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقَضَتْ غَزْوَتُهُ تلك، جَمَعنا فى مجلسه، أعنى رؤساء الأندلُس، وأَمَرنا بالاتِّفاق والائتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة، وأنَّ النصارى لم تفترِصْنا إلا للذى كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض فأجابه الكلُّ أنَّ وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكلَّ على الطاعة والجَرْيِ إلى الحقيقة.

وانتدب إليه ذلك الوقتَ أخونا صاحِبُ مالَقة، وقال من غير رويَّة: «إن أحوالى قد ضاقت بتعدِّى أخى على بلادى وميراث جَدِّى!» يُشير بذلك أن يأخُذَ له الأمير بحقِّه منَّا، فلما قضى كلامه، قال له أمير المسلمين: «هَلْ لَقَيْتَ أخاك فى هذا المعنى، وترامَيتَ عليه قبل مُخاطَبتك لى؟» فلمّا قال له: «لا» رد عليه: «ما ينبغى لنا ذلك إلا برضاه!» ولم يمكنَّا فى ذلك الحين السكوت لِمَا يلزم من شُكْر الأمير، و [كانت] فرْصَةً لتبيَان الحجة وإقامة عذرِنا ألا ينتسبَ إلينا بَعْدُ نَسَبَهُ، فقلتُ له: «إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايَتُه إلا ما هو بسَبيله من الجهاد، وهو لا يرضى أن ينقض ما أحْكَمَه آباؤنا من

قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم، وليس منَّا أحدٌ حَصَلَ على شيء بقُدْرَته، إلا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده، مع إجماع المسلمين على الرِّضى بمن تخيَّرُوه، وقد كان الشيخ جدُّنا ـ رحمه الله ـ رتَّب ذلك، ورأى أنَّ مالَقةَ لا غنَى بها من غَرْناطة، فجعل أمْرَها مصروفًا إلينا من بعده، كالذى كانت فى حياته، فأنقضتَ من الأمر ما أبرم، وقَطَعْتَنا، وأردتَ الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل، ولو رأى جدك فى ذلك صلاحًا، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنَّا! ولمَّا تعدَّيْتَ المرَّة بعد المرَّة، سَعَيْنا فى صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ، ولم نبلغ فى ذلك الغاية التى تجِبُ بانحياشك ونفارك، وهذا ما وقع! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد، وينقض ما رتَّب الشيخ، فهو لنا بمنزلَتِه: أَمْرُهُ نافِذٌ! وإن رأى ما فُعِلَ من ذلك سدادًا وصلاحًا، فلأىِّ وجه نكلفه ما لا يليق له؟» فلمَّا تكلَّمتُ بهذا، وَقَعَتْ مُساكَتَةٌ، وأمر الأميرُ بانصرافنا، ولم يُعِدْ فى ذلك بَعْدَها مَجْلِسًا إلاَّ فى سَفرة لِبِّيط الملعونة.

وأخذ أمير المسلمين فى الانصراف إلى بلاده، وهو قد اطَّلع عيانًا وسماعًا من اختلاف كلِمَتِنا ما لم يَرَ وَجْهًا لبَقَائنا فى الجزيرة، وأنَّسَ الجميعَ، ولم يتربَّص فى البلاد ألا يُوحِشَ سَلاطِينَها ممَّا يتوقَّعونه من انحياش رعيَّتهم إليه، فكُلُّ من شكا إليه ذلك الوقتَ من رعيَّةٍ، يقول له: «لم نأت لهذا! والسلاطينُ أعْلَمُ بما يصنعون فى بلادهم!» حتى ازداد بذلك مَحَبَّةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا، وإليه استنامة ومَيْلاً، ورجع الكلُّ إلى وَطَنه.

٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس:

حصار حصن لييط

وبقيت الحال على ذلك: قد أُشرب الرُّومُ من تلك الوقيعة خَوْفًا وانكماشًا، ولم تَزَل الحالُ صالحةً إلى سُفْرة لِيِّط.

وإنَّ المُعْتَمِد بن عَبَّاد، لِمَا رأى من خِلاف ابن رَشيق عليه، وأنَّه أراد أن يَضَعَ ابنَه الراضِيَ بمُرْسِيَة عِوَضًا عن الجزيرة، صار بنفسه إلى أمير المسلمين، وجاز إليه البحر، يريه الطمأنينة، ويحكم معه ما شاء من عَمل فى مُرْسِيَة وغيرها، وعَظَّمَ له شأنَ لِيِّط، وأنه فى قَلْب البَلَد، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقْده، وعاقَدَهُ على أن يأتى عليه بنفسه ورجاله، لِكَىْ يَتَهيَّأ سَلاَطِينُ الأنْدَلُس حَرْبه بعُدَدِهم وإجماعهم، فيأمنوا مَنْ يُقْلِعُهم عنه.

وأَتَتْنا كُتُبُ الأمير، يأمُرنا عند جوازه، بالاستعداد للقتال وما شاكَلَ ذلك، فَفَعَلْنا، وبادَرْنا، رغبةً فى الجهاد، ومَحَبَّةً فيه، وإيثارًا له، وخَرَجْنا إليه، ولقيناهُ فى حَيِّزٍ من بَلَدنا، بما يُطابِقُ مِثْلَه من الهدايا والتُّحَف، وأجْمَعنا على المسير إلى لِيِّط.

فنازَلْناه على أتمِّ ما يمكن من الرجال والعُدَد، كلٌّ رئيس يقاتِلُهُ على حسب مجْهوده، وما تبلغ استطاعتُه وحيلتُه، وهو قد امتلأ برعيَّة الجِهَة، كلُّها من النصارى، وأعدُّوا فيه ما يحتاج من كلِّ شىء، فِعْلَ من نَظَرَ على سَعَةٍ، وهُمْ فى ذلك يهدِّدون بمجىء ألفونش، ويريعون الحيلة بالتنيير كلَّ ليلة، والقتالُ عليهم كلَّ يوم لا يفتر، مع البُنْيان فى المواضع المهمة عليهم،

ونَصْبِ المجانيق والعَـرَّادات، حتَّى لم يَبْقَ عَملٌ يُرامُ به افتِـراصُ المَعَاقِل إلا وصُنِعَ وأتَى ابن صُمَـادِحِ بفيلٍ أقامَـهُ، وخرق به العادة: أصـابَهُ من الحِصْن قَبَسُ نارٍ، فأحْـرَقَهُ، وفى كلٍّ ذلك لا ينجح عَمَلٌ، ولا تظهر فيـه للمسلمين فُرْصَةٌ، لِمَا شاء الله من اختلاف الكلمة.

٥٢- محاصرة لبيط تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين:

وكانت تلك سفرةً أخرج الله فيها أضْغَانَ سَلاَطينِ الأندلس، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفـواجًا، شـاكين لِمَـا وَجَدوا لِمَـن أسندوا إليه: فـالراضى منهم يلتمس الـزيادة، والساخِطُ يرجو الانتـقام، وجـعلوا فى شكاوِيهِم فقـهاءهم وسَائِطَ، يقصـدون نحوهم: منهم الفقيـه ابن القُلَيْعِيُّ، قد صار خِـباوُهُ بتلك المَحلَّة مَغْنطيسًا لكلِّ صادرٍ ووارِدٍ، يَجِدُ بهم السبيلَ إلى الطَّلَب، للقدَر الذى قدرَّه الله.

ورأى سَـلاطينُ الأنْدَلُس عند ذلك من تحـامُق رعاياهـم وامتناعـهم من مَغارِمِ الإقطاع التى كانت عليهم، مع احتياجهم إلى الإنفاق، ما قلق به وساء الظنُّ من أجله: جيش يكلِّفـونه كل عام، ومُجـامَلاتٌ تلزم المُرابِطين كثـيرة وتُحَفٌ مُتَوالية، لو فرط منها فى شيءٍ، لانخرمَت عليهم الأحوال، ثم رعايا تمتنع من تأديَة ما تقوم به الحالُ الموصوفة، فلا حيلة إلا بين صبر يؤدى إلى ملامةٍ توجب عقوبة، أو امتناع يؤدى إلى استِئصالٍ، كالذى جرَى.

ونسمع فى هذا كـلِّه من أهل جهاتِنا تَهـدُّدًا وعصيـانًا أنكرناه، لا تتمُّ به مَملكةٌ، ولا يتـهيَّأ معـه قضاء حاجـة، ولقد كان القُلَيْعِيُّ المـذكور فى تلك المَحَلَّة يخاطِب إخوانَه بحَضْرَتنا ألا يعطونا شيئًا، ويَعِدُهم بما كان، فلمَّا كان

يأتيهم الحفزُ منَّا، يقعُدون بنا، ونَحنُ أحْوَجُ ما كُنَّا إليه للإنفاق، لا سيمَّا فى تلك المحلَّة التـى عُدَّتْنا فيهـا الأقواتُ إلا بالشراء كلَّ يـوم، فدخل علينا من ذلك ضَرَرٌ شنيعٌ.

وطالت تلك المَـحَلَّة الملعونة، فكأنَّمـا مثلَقٌ أبانَ الطيِّبَ من الخـبيث، وكشف الـعورات، فلم يَزْدَد الرؤسـاء إلا تَوَحُّشًا، ولا الرعـيَّـة إلا تسَلُّطًـا، ولا الداخِلون على مِثْل هذه النصبة إلا طمـعًا، وحُقَّ لهم، مع اختلاف كلمة الرؤساء، وهـم فى أسباب الـغَرَق: فمن اغْـتَرَّ منهـم طَالَب صاحِـبَه، وهو المَطْلوب، وشَغَلَه ذلك ممَّـا هو فى سبيله، ومن ميَّز، انفرد، لم يَجِـد مُعِينًا حتَّى توغَّل فى اللجَّـة وأخذته الحملة، وكـانت مقدمات سـوء، وزمانًا على السلاطين عسيراً، وسعداً للمرابطين مُقتبلاً.

٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق:

وأتى ابن رَشِيق عند ذلك مُـفْسِداً بزعمه لِمَـا عقده ابن عبَّـاد مع الأمير، وبذل الأموال للمُرابطيـن، وسارَعَ إلى قضاء الحاجـات، واصطَنَع إلى الأمير سير ـ أعزَّه الله ـ وعوَّل عليه، فأكْرَمَه الإكرام الشنيع، وألقَى ابن عَبَّاد يَدَه فى قَرُور، مُعَـوِّلاً عليه فى القضيَّـة، وبذل له أموالاً جسيمـة، والمُكْثِر على كلِّ حال يغلبِ المُقِلَّ، وإن شفَّ عليه باليسير، وأُعْطِىَ ابنُ رَشِيق الأمان، وبُولِغَ له فى التـأنيس، حتـى غرَّه ذلك وانبـسط له، وتاهَ على ابن عـبَّاد، وأظهـر مَعْصِـيَتَه والانحـياشَ منه، قائمًا فى ذلك بدعـوة الأمير ومُسْنِداً إليـه، حتى أفضى ذلك به، إلى أن أمر أن تكون الخُطْبة بمُرْسِيَه على اسْمِ أمير المسلمين دون ابن عبَّاد.

والمُعْتَمِد، فى هذا كلِّه، يَرَى من الأمر ما يغيظه ويكربه ويتقطَّع منه حسرات، وحُقَّ له، فلم يَنَمْ عن القضيَّة، وأَحْكَمَها مع الفُقَهاء، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة، وكان ممَّن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْعِيّ، وهو يفخر بالأمر عندنا، ويقول: «سَيرَى ابن رَشِيق ما يحلُّ به! فقد شُوورْنا فى أمْره، وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره، فَعَلْنا به مِثْل ذلك!» وكانت هذه الكلمة ممَّا أَوْحَشَتْنا وغيَّرت أنفُسَنا عليه، مع تهدُّده تلك السفرةَ، وضَرْبِه الأمثال، وحِدَّةِ مَعانيه، واستطالَتِه بلسانه، وأميرُ المسلمين لا يشعر بشىء من ذلك، ولا نقدر نَحنُ نشكو به بلا بيِّنة ولا إقامة بُرْهان: فتكون له الحُجَّةُ، ونَقَعَ نَحنُ فى الخزى، لا سيمَّا بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْم.

وإنْ أمير المسلمين، لما رأى حال ابن عبَّاد مع ابن رَشِيق، واختلافَ ما بينهما، أعمل فى ذلك عَقْلَه، ودبَّره برأيه، وقال: «ما تنبغى لنا مُفاسَدةُ ابن عبَّاد من أجْل ابن رَشِيق، لاحتياجِنا إليه فيما نَحنُ بسبيله، ونَحنُ لم نأمن أَمْرَ الرُّومىِّ، والأوْكَدُ علينا فى هذا الوقت مُداراةُ ابن عبَّاد، حتَّى تُرِينا الأُمور وُجوهَها!» فتعسَّف على ابن رشيق فى الذى أظهر من الخِلاف على صاحبه، وقال له: «ما كان يَجبُ لك أن تُقَدِّمَ بدعوتى للقيام على رئيسك، فتُوقِعَ بَيْنى وبَيْنه الشحناءَ!» وقال فى نفسه: لم يفعل ذلك ابنُ رشيق إيثاراً ولا مَحَبَّةً لجِهَتى! اكتثر من اضطرامِ النار على صاحبِه وإشغاله بى عن نفسه، ولا سيمَّا أنَّ مَعُونته للرُّوم بلِيِّط لم تَخْفَ على أحد، يعتَقِد أنَّ ببقائها يثبُتُ فى مُرْسِيَة!» فكان أبداً يميرُهم ويقوِّيهم بما يعجزون عنه، إبقاءً لرَمَقهم، وخَوْفًا من الداخِلة عليه بفَقدِهم.

وصحَّ ذلك عند الأمير، والمُعْتَمِدُ فى هذا كلِّه لا يَنَامُ عنه، ويَسْتَفْتِى فيه الفُقَهاءَ، لنفاقه بعد دخوله فى البَيْعة له أوّلَ أخْذِه لمُرسِيَة، فاتَّفقَتْ عليه الأسباب، وصُنِعَ له مَجْلسٌ أفْتَوْا فيه بإزَاحَته عن المسلمين، وإسلامه لسُلْطانه، فاستغاث عند ذلك بالأمير، فأجابَهُ: «إنّه لو كان لك عندى حقٌّ، لوَهَبْتُهُ لك، غيرَ أنها أحكام السُّنَّة، لا أستطيعُ على إزاحتَها عن مَرَاتبها!» وأمر بتَثقيفه وإسْلامِه إلى المُعتَمِد، وقيَّد فى الحديد، ورأى هوانًا عظيمًا، وأمَرَ المُعْتَمِد الراضى ابنَه أن ينزل فى مَحَلّته على المقام، وكأنَّه لم يكن بالأمس، وأرْسَل الأمير إلى أهل مُرْسِيَة يأمرُهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له، فخالف كلٌّ من فيها من ابنه وقَرابته، وثقَّفوا مدينتهم وجَفَوْا كلَّ من مضى إليهم، وامتنعت الحال فى ذلك، بعد وسائط كثيرةٍ تكرَّرت بينهم، فلم يقدر معهم على شىء.

٥٤- رفع الحصار عن لبيط:

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخَت المَحَلَّة، وطالَ مكْثُها، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ بقُدوم ألفونش إليها، فساءَت الظنونُ من أجْل ذلك، ورأى أمير المسلمين أنَّ الرجوعَ عنها والانصراف أَوْلَى، لطولِ مُكْثِ الناس وفشلِهم، مع جمام القادِمِين من الرُّوم ومع خِلاف مُرْسِيَة، لئلا يسندوا إلى ميرها ومَرافقها إذ أنهم أرسلوا أنّهم أرسلوا عن ألْفُونْس وَقْتَ خِلافِهم، فأَخَذَ فى الانصراف.

ووَقَعَتْ بَيْن الْمُعْتَمِد والمُعْتَصِم، صاحِب ألمريَّة، مُشاجَرات وتباعات

باردة فى معاقل من نَظَر الجَبل وفى أَمْرِ شُرْبة، ما وقع فيه الشكوَى إلى الأمير، وانفصلا على غير موافَقة: كلُّ ذلك من المنحسة المَقْضيَّة عليهما.

ومِثْلُ ذلك جَرَى لنا مع أَخِينا صاحبِ مالَقة، وجعل يُكَرِّرُ فى ذلك النَّظَر الذى تكلَّمَ فيه سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس، وحَفَزَ فى ذلك بزَعمه، وقال لى بقلَّة دُرْبَته: «إنما مَنع من ذلك السَّفْرةَ الأولى ذِكْرِى له عند انفصال الأمير، فلم يُدْرِكْ ولا أَدْرَكْنا! والآن، فلا بُدَّ من ذِكْرِه على سَعَةٍ، وإلاَّ، فالحقُّ بَيْنى وبينك!» فلم نُخفَّ لقوله، ولا كابَرْتُه، لعِلْمى أنَّ الأمير لا يحفل بشىء من هذا كلِّه، ولمَّا رأى أمير المسلمين كثرةَ طَلَبِه لنا، أرْسَلَ إلينا قَرُورًا، يقول لنا: «لا يَرِبْكَ شكوَى أخيك، فإنَّ السلطان لا يَسَعُهُ أن يقول له: «اسْكُتْ عن طَلَبِك!» ولا يعطيه عليك يداً، غَيْرَ أنَّنا نُلَوِّى القصَّةَ مَرْحَلةً بعد مرْحلة، حتَّى يَقَعَ الانفصال» فشكرتُهُ فى ذلك، وقال: «إنَّ غرناطة عليه آكَدُ من مالَقة لاحتياجِه إلى الاجتياز عليها فى غَزَوَاته، وما أشبهَ ذلك من المرافِق، فتقدَّم أنت الآن، وأَعدَّ جَهْدَك ما يجبُ من ضيافة السلطان إذا [كان] خطورُه عليك، وهو مارٌّ بك على غَرْنَاطة فى انصرافه!» فسرَّنى ذلك، وتقَدَّمْتُ إلى وادى آش، وأَعْدَدتُ له ما كان جَديراً به.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٤- سياسة عبد الله بعد عودته من لييط:

إجراءات دفاعية وسياسية

٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لييط مسلك قرور:

ولمَّا وصلتُ وادى آش، وقد ظهر إلىَّ قبلُ فى لييِّط من جَفاء قرُور وتخويفه لى، وتهديدى على لسان الأمير، والأمير عند ذلك غافل، غير أنَّنى حَسِبْتُ ذلك من قِبَلِه لمَا رأيتُ من مكانته عنده، فأدركنى من ذلك رُعْبٌ شديدٌ، وعاينتُ مع هذا ما حلَّ بابن رَشيق، وسمِعْتُ وعيدَ القُلَيْعىِّ لى، وجفاءَه علىَّ، وإزالة رقبتى عنه، ما زادنى ذلك جَرْعًا، لا سيَّما أنَّ الجَزْعَ والسوداء مُتَمكِّنة من نفسى، وأجِدُها فى طباعى، كدْتُ أن أموت غمًّا، ولم أرَ قَطُّ قبل ذلك ذُلا ولا كدرًا، فأنكرت الأمور كلَّها مع السلطان، على حَسَب ما كان يُكْرمُنى سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس، ورأيتُ ضدَّ ذلك كلِّه، وقَرُورٌ يناصِبُنِى العداوة، ويرسل المشاوَرين إلى هوانى، ويأمُرُنى فى حال تلك الحال بأوامر بارِدة، يُريدُ بها إذلالى، ويُظهر إلىَّ فيها التعنيف والتعسُّف.

فلمَّا دخل نَظَرِى، أرَاد إصلاحَ ما أفسد معى، فعَلِمْتُ أنَّ ذلك ليس لنيَّةٍ صَلُحَتْ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ ودَفَعَتْ إلها ضَرُورَةٌ من قِبَل الاجتياز علىَّ، ولأجْل ذلك، قال لى على لسان الأمير فى خَبَر أخى ما قال، وتبيَّن لى أنه، لو كان ذلك من عند الأمير، لم يطلُبْ قَرُورٌ منِّى عليها رشوةً، فإنَّه مع ذلك لم يُخَلِّنى من مُؤنَتِهَا، وعمل لى حُجَّةً فى دَفعِ ضَرَر أخى عنى، وأخَذَ منِّى عليها ألف دينار مُرابِطِيَّةً، لم أتَجرَّأ قطُّ على ذِكْرها مدَّةَ حياته، لئلا يطْلُبَنى

عند الأمير، ثُم لم تَنْفصِل ساعةً أن انصـرَف، وطَلَبَ لرَبيبه خمسمائة دينار، فأعطيـتُها له، وكذلـك كلَّ ما يَطْلُبُ بإمْرةٍ وتَهـدُّد، مع قلَّة رَحَمته ورِفْـقه، وخشـونة لفظه، ثمَّ أعطيتُه فى غـرناطة ألفَ دينار أُخْرَى باسْمِ كسـوة خيْله، وأمَّا الذى صار إليه فى سَفْرة بَطَلْيَوْس ومُدَّة كَوْنه على لِيِّط مع الرُّسُل، فأكْثَرُ من أن يُحـصَى، وهو فى ذلك كُلِّه لا يزداد إلاَّ نفاراً واسـتكباراً، ومـثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيراً، وتُبغض إليه جماعةً.

[أرسل فىَّ] أميرُ المسلمين، وأنا بِمكْناسَة، فـسألنى عمَّا صار إلى قرُور من قِـبَلى، فرويَتُ الأمـرَ بأحْزَم مـا يمكن، وقلتُ فى نفـسى: «إن أعْلمتُـه بذلك، وهو على حال التمكين عنده، فرُبَّما أخرجهُ كتابى عليه، وتقرَّعه به، ثمَّ اسـتقـرَّهُ على مَرْتَبـتَـه، فيكون حـتفى علـى يدَيه، ولو أنى نأمَن مكْره، لأعْلمْتُه بالحال، أوْ ربَّما يقَع الكتـابُ إلى يد قَرُور من غَـير تعـمُّد، والْغـرَر لا يدخله إلا أهْوَج، وكثيرٌ من الحقِّ يجبُ تركُه [وفيه فائدةٌ] بصاحبه، فلم يَسَعنى أن أقولَ فى جوابى للسلطان: إنَّه لم يَصِرْ إلىَّ [بغير رشوة] فيُكَذِّبُنى، إذ كـان يعلم بلا شكٍّ أنَّنا لم نُخلِّه من ذلك... الدفـع التى أعلمنى رُسُلى، وصَحَّ عندى أنَّ قُرُوراً... حيث يصدِّقُنى، ولا يقع قَرور عنده فى...[1]».

٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل ابن القليعى

[أمَّا أخـونا تَميمٌ، صاحبُ مـالَقة] فـإنه أرْسَلَ إلى القاضى ابن سَـهْل خمسين مِثْـقالاً، يستعطفه على القيام علينا بالحُجَّة مَـعَهُ فردَّها إليه ابنُ سَهْل المذكور، وتَنَزَّهَ عن ذلك.

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

وقال لى ابنُ القُلَيْعىِّ: «هذا وقتُ اقتراضك لهذا الرجُل، بأن تكتُبَ إليه، وتَعِدَه بالقضاء عند انصرافك، وهو يسمح فى قصَّة أخيك، على أن تجعلنى معه فى أحكامه، فإذا ألْصَقْتَنى به، رَأيتَ عجائبَ مِنْ تأتِّى الأُمور على مرغوبك عند المُرابِطين وفى بلادك، فإنَّك، لو شئتَ أن تأخُذَ من أحَدٍ دِرْهَمًا بغير الناموس، لَسَمُجَ عند الناس، وإذا أخذتَ ألْفًا على وَجْه الحقِّ، حلَّ لك أخْذُهُ، ولم يستَبْشِعْهُ أحَدٌ، ولا أجِدُ أحَدًا [ينفع لك] مثل هذا الرجل!» ولم يُبارِحْنى حتَّى دفعتُ إليه بخطِّ يدى رُقْعَةً تتضمَّن له القضاءَ، وما يترتَّب له عليه من مُسانَهَةٍ ومُشاهَرةٍ، ورأيتُ إجابته إلى ذلك صلاحًا بى وخطأً بأخى، ولِمَا تُوجِبُه السياسية من مسايَرته ومُداراته على تلك الحال [وكنتُ أظُنُّ أنَّه] قد حرص على الأمر والنَّهْى، ولا أراه يَبْتَدِئُ إلاَّ بى، ما لم... وفى هذا فسادُ مُلْكى« وخَلْعى، ويقدِّر على ذلك...[1].

«... وبك واثقٌ غير أنَّك قد جَعَلْتَ لى بقولك هذا من الحرص على هذا المال ما أُريد أن تعلمنى مِمَّن يُقْبَض!» فإنِّى لا أكاد أن أُصَدِّقَه، لاحتياجى إلى ما نَحْنُ بسبيله من النفقات، وإقامةِ هذا الجيش كلَّ عام.

فجعل يُسَمِّى لى أقوامًا لا يعشرهم فى الخير والفضل، وقدَّم ذِكْرَ صاحِبِ الأحْبَاس ابنِ سَلْمُون، وتسبَّب إليه برسم الأحْبَاس، وغَيْرهم ممَّن لم يَبْلَ منهم إلاَّ الطاعة والنصيحة، فقلتُ فى نفسى: «الله أكبر! ما قصد هذا إلاَّ إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا، إلاَّ وهو يُريد إفرادنَا دونهم، ليتمكَّن بما شاءَ، ولا نَجِد صديقًا نستريح إليه، مع ما تبيَّن من إنْفاسِه، وحِدَّةِ مقاطِعِه، وأغراضِه القاتلة!».

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والعَيْن تُبْصِرُ فى عَيْنَىْ مُحَدِّثِها
إن كانَ مِنْ حِزْبِها أو مِنْ أعَادِيها

وجعل يَطْلُب بنى السُّنَيْدى والكَتَبَة وغَيْرَهم ممَّن قد اصطَنَعناه [ونأمَن] إمانته، ثمَّ قال لى: «كلُّ ما رأيتَ من السلطان فى لِيِّط... كان مستفلًّا أن يجعل لك مَجْلِسًا ولغَيْرك تست... وأنت على سَعَةٍ، وافعل شيئًا تبطل به حجَّتُهُ [عليك] ...»[1].

... كُنْتم عليها من التَّرَقُّب والإنذار بالعيال نفثة حاقد» وكان هذا القُلَيْعىُّ مخمولاً فى أيَّام الشيخ جدًّا ـ رحمه الله ـ، وكان لا يدَعَه فى المدينة، ويأمره بسكْنَى ضَيْعَتِه، لما كان يَرَى من شرِّه وقدرته على الدواخل، فلما ظهر أمر المُرابِطين، اصطنع إلى مُؤَمَّل وغَيْرِه، ووُسِمَ لى بسِمَة الخير والقدرة على الكلام، وأنَّه لا أحَدٌ يقدر على استمالةِ المُرابطين على ما هو عليه، فوجَّهتْه رسولاً، وهو فى ذلك يعمل لنفسه، ويسعى فى هلاكى فى الباطِن، وينفث بذلك، على ما صحَّ عندى، ويقول: «والله! لأُبْلِغَنَّ حَفِيدَ باديس الطينةَ السوداءَ، ولأُشَوِّقه إلى دِرْهَمٍ ينفقه [وذلك] على صنيع جدِّه بى وبغيرى!».

وأخْبَرَنى أبو بكر بن مُسكَّن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين فى أوَّل سَفَرِه معه، ولقى فى الطريق خَبَر دخوله [الأندَلُس] وقال: «هذا على رَغْم أنوف الفَسَقة سلاطين الأندلس!» فقال أبو بكر بن مُسكَّن: «وتُخَلِّطُ معهم سُلْطَانَك؟» فقال: «نَعَم! وهو المُقَدَّم إن شاء الله!... مات لتَنَفُّذ الأقدار!»

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

فلمـا أذن الله بانصـرافـه. . . تكلَّم ابن سَـهْل إلى الأمـيـر وقـال له: «أنْتَ على. . .[١]».

«. . . نحن بحال لا يرضى عنا فـيه لا رعيَّةٌ ولا جنْدٌ، وفى هذا الـفسادُ والقَطَعُ، فقال لى القُلَيْعىُّ: «إن تُعِنْ عـليك الجُندَ، استَنْجَدْتَ من العِدوة من يغنيك عنهم، ودَعْنى ورأيى بعد إشـراكى مع ابن سَهْل، ولا عليك من حيث يقوم لك المال!».

فرأيتُ أمْرًا مُـعَمّى ومستأثرًا به دونى، مع مـا كان ينطق به لسانُه أبدًا من الوعيد، والتَّهْـديد عند أصْدِقائه ومَنْ ينـقل ذلـك إلىَّ عنـه أنَّه يقـول: «والله لا أُبْلِغَنَّ من حَفيـد باديس ما كان يبلغ جدُّه مِنِّى ومن غـيرى!» يسرح بذلك لقلَّة تحفُّظه وإرسـاله لسانه، ولاحْتِقـارِه لنا واحتياجِنا إليـه، فزاد ذلك الجُنْدَ قَلَقًا، وهمُّوا بالانتقال مُجْتَمعِين على ذلك.

فلمّا بصرتُ هذه الحالة، قلتُ فى نفسى: «أنا بسبيل، إن استَفْسَدتُ إلى الجُنْد، وهم جَناحَاىَ، أن بقيتُ وحدى مع [من] يَرُومُ خَلْعى، فالأوْلَى على كلِّ حال اطِّباؤُهم، واستِصْلاحُ ما فسـد من أنْفُسهم، وإسْخاطُ القُلَيْعى وحْدَهُ واجبٌ فى رَضى عامَّة عبيدى وأجنادى» فجمَـعْتُهم بمحضره، وأعْلَمْتُهم أنِّى راجعٌ عن ذلك المذهب، ورادٌّ عليـهم إنْزالاتهم، فقام الـكلُّ على القُلَيْعىّ، وهمُّوا باخـتطافِه من بَيْن يدىَّ لولا إمـساكى لهم، وخشـيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه، فتكون شهرة وعقوقًا وينجر الأمر إلى غير المحمود، فَقُلْتُ لهم: «أنا أكفيكم أمْرَه!» وأمَرتُ بثقافـه على أجمل الوجوه فى بَيْتٍ بقرب من القصر،

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

وكان تحت برٍّ وإكرام، وأنا فى ذلك أعتذرُ إليه من قيام العامَّة، وأعِدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة، كالذى صَنَعْتُ.

فلمّا توطَّدت الأحوال وقرَّت قرارَها، أمَرْتُ بإخراجه، وأنهَيْتُ إليه أن يكفَّ لسانَه، ويَدَعَ فُضولَ القَوْل والعَمَل إلاَّ فيما يَعْنِيه ويُشاكِل طريقته، فقال لى: «نَعَم! أنا ألتَزِمُ الرَّوابِطَ، وأسْلُكُ سبيلَ العافية إن شاء الله!» فلم يكُن إلاَّ أن انطلق، وطار إلى أمير المسلمين بالشكوى، وزادَ فى الطين بَلَّة، فقال لى الجُنْد: «لو أنك أمْسكتَه، لم يُهَيِّجْ عليك النار! وستَذُمُّ عاقِبةَ انْطِلاقِه!».

٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون:

وأرانى جميعُ الجُنْد من التأتِّى والانقياد والمُناصَحة ما حسبتُ أنَّهم يُقاتلون عنِّى الدَّجَّال، فسررتُ بهذه الحالة، واطمأنَنْت إليها، وقلتُ: «هؤُلاء أُمَّةٌ لا يَرَوْن بى بديلاً لإنْصافى لهم ورَغْدِ عَيْشهم معى، وهُمْ قد رأوا جُنْدَ العِدْوة، وأنَّ أقلَّ عَبْدٍ لهم أغْنَى من غيرهم، وأصْلَحُ حالةً، فلا يمكن استبدال الأدْنَى بالأفْضَل!» ثُمَّ عَلِمْتُ قياسَ المَغارِبة أهلِ الحصون، وعَلِمتُ ما هم فيه من الخير، ولم نَظُنَّ قطُّ أنَّ أحَدَهم يبيع أيَّامى، وإنَّما وَجَسَتْ نفسى من الرعيَّة لطمعهم فى حطِّ المَغارِم، وللذى شاع من الزكاة والعُشْر عند المُرابطين، فقلتُ: «إنَّ بهذه العقْبان التى على رءوسها، لا تجترئ على شىء! وإذا تثقَّفَت المَعاقِل، كان أمْرُ الرعيَّة يسيراً، وكَمْ عَسَى يستطيع الجَيْشُ القادمُ على أن يَعُمَّ جميعَ البلاد؟ ومُحاولةُ مَعْقَلٍ واحِدٍ منها تطول، وتَحْدث فى خلافه أحْوالٌ».

فصرفتُ وَجْهِ اهْتِبالى إلى تشييد الحصون وبُنيانِها، وإعداد ما يُصْلحها

لإحْصـارٍ إن كان، فلم أَدَعْ وَجْـهًا من وجـوهِ الحزم إلا وفـعلتُهُ: من إقـامة الأجبـاب، وإعداد المَطاحِن، وأنواعِ العُـدَد من التِّراس والنَّبْـل والرَّعادات، وجميع الأقـوات، وقَلَعْتُها من القُرَى، وأَعْـدَدتُ لكلِّ حِصْن قُوتَهُ لأزْيَدَ من العام، وفـعلتُ أكثرَ من ذلك فى المدينة حَـضْرَتى، ما أسْتَـغْنِى عن تحديده لاشتهارِه.

وقلتُ: «ليس من المُمْكنِ أن يتعرَّض أميـرُ المسلمين أحَدًا من سلاطين الأندلُس إلاَّ بعـد إبرامـه لأمْرِ الـرُّومىِّ! ولا بُدَّ عند مُناظَرَتِهم من فَـرَجٍ: إن غلب المُرابِطُ، لم يَفُتْنا الدخولُ فى طاعته، ولا أسْدَيْنا إليه ما تُذَمُّ عاقِبَتُه أكثر من الاحـتيـاط على بلادنا والمُداراة عـليهـا «فَلاَ الحـمارُ سَـقَط، ولا الزِّقُّ انْخَرَق!» نَحْنُ مُدْرِكُون: لا يَنْبَغِى تقديم يَدٍ سيِّئَةٍ إليهم، وإن غلب الرومىُّ، كنَّا منه على حَـذَر، وقد نفعنا مـا أبْرَمْناهُ من هذا البُنيان والتـشييـد، واتِّخاذ العُدَد، فَـسَيكون بذلك لـلمسلمـين حِمايةٌ وانـجرارٌ إلى غَدٍ، إذ البُنـيان من المُرابِط لا ينفع!».

ولذلك أعْدَدْنا المُنَـكَّبَ: إن تَغَلَّبَ الرُّومىُّ، فأكون على البـحر متَّـصِلاً بالمسلمـين، نُدافِع منها جُهْـدَنا، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطَلَب السـلامة بحُشاشة أنفُسنا ونُتَفٍ من أموالنا، فشيَّدتُها لذلك، كالذى شهر عنَّا.

والجاهِلُ لا يدرى ما أوَّلُ هـذا ولا آخره، إلاَّ ويخبط [خَـبْط] عَشْـواء: فكلٌّ يتكلَّم على شـهوته، ولم نَعْـتَقِـدْ فى أمر المُـرابِطين ـ يعلم الله ذلك ـ صَدَّهم عن جهادٍ، ولا تَظافُرًا مع أحَدٍ عليهم، ولا أرَدتُ بهم شيئًا من مساءَة نُسِبَتْ إلينـا، أكثَر من أنى جَـزِعْتُ الجزع الشديد مـمّا تقـدم ذِكْرُهُ من تلك

المعانى التى أبْصَرْتُهـا، وما جرى على ابن رَشِيق، مع هَلَعِى لذلك، وتمكُّن السوداءِ منِّى، وسوء الظنِّ مع معايَنة اليقـين، فقلت: «ما دام تَتَلَقَّى الفِئَتان، نخشى حـملة السيل على هذه المـدينة: فتَحْـصِينُهـا أولَى، ولن يُضِرَّ ذلك» فمتى دعانى أمـير المسلمين إلى إعْطاءِ عسكرٍ أو مال، أو ما أشـبه ذلك مما يَجِبُ من مُـشاركَتِـه وإنجاده، لم نتـأخَّرْ عنه، فـتقيـمَ على نفسى الحُـجَّة، وتجلب إلىَّ المَضرَّة إن فعلتُ غَيْره، غَـيْر أنِّى، متى دعانى إلى الخروج إليه بنفسى، نَعتذِر وندافع ذلك جهدى فعسى [أن] يتركنى ويقبل عذرى، ومتى لم يقبل لى عذرًا، نعلم أنه يُريد إخراجَ أمرى إلى حدود الفعل، فهو إذًا علىَّ متَـعَسِّفٌ لكلام الأعـداء والكذب، فلا بُدَّ لى عنـد ذلك من الاحتيـاط على مُهْجَتى والـتحصين على نفسى، ونجعله إذ ذاك كـسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين، ولى مَعَهُ الله، إذ[1] لم أنْوِ به سوءًا، ولا واسَيْتُ عليه أحَدًا، ولا صَدَدْتُه عن جِـهاده، فبأىِّ شىء يتَـسَبَّب إلىَّ إلاَّ إن شاء التـذنيب مع القدرة؟ فلا طاقـة لى بذلك، كالذى صَنَعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك، وقـد أعَدَّ لكلامه جوابًا، فلمَّـا خُرِجَ إلى الثقاف، سُئِلَ عن إعداده الجـواب وزَعْمه أنَّ ذلك نافعٌ له، فقال: «لكل كلمةٍ وجـدتُ جوابًا إلا لقَوْلِه: «خُذُوهُ!» فلم أدْرِ ما أقول فيها، فوَكَّلْتُ الأمر إلى الأقدار!».

وكُنْتُ، أيَّامى تلك، بَيْن الرجـاء والخَوْف، إلاَّ أنِّى واثِقٌ بكلِّ مـن معى من رجالى وخَدَمَتى أنهم لا يغدرونى، فـقَوِيَتْ نفسى لذلك بَعْضَ القوَّة، مع ما كُنْتُ أعْدَدْتُهُ.

---

(١) فى المطبوع: «إذا».

٥٨- معاقدة عبدالله مع ألبرهانش وكيل ألفونش السادس:

ولما حان انصرافُنا من لِيِّط، كلَّمْنا أمير المسلمين فى عَسْكَرٍ يَتْرُكه عندنا بالأنْدَلُس، خَوفًا من الرُّومىّ أن يكْلبَ عليها، ويَطْلُبنا بثأر تلك السفرة وغيرها، فلا يكون عندنا بمن نُدافعُ، فقال: أَصْلِحُوا نيَّاتكم، تُكْفَوا عَدُوَّكم!» ولم يعطِنا عسكراً، فأَيْقَنَّا أن الرُّومىَّ لا يَدَعُنا على هذه الفُرصة دون طَلَبٍ، كالذى كان، فلم يلبث أن احتفل وأتى طالبًا للمال، مُتَجَنِّيًا على من خالفَهَ أن يُفسد بلادَه، وعاقَدَ صاحِبَ سَرَقُسْطة ومن يَلِيهِ من الشَّرْق، فدافَعوا شرَّه ودفعوا إليه ما سلف له عندهم.

وبلغنى الخَبر، وزاد ذلك فى غمِّى، وعَلِمتُ أَنِّى فيه كَراكِبِ الأسَد: إن أسْلَمتُ البَلَد، ولا عَسْكَرَ عندى، هُتِكَ، ولم ينجبر لى فيه دِرْهَمٌ، ولم أُغْدَرْ[1] مع هذا، ولا يقرُّ المُطالبُ بأن يقول عنِّى: إنِّى ضيَّعْتُه أو سُقْتُ إليه العدوَّ، كالذى رأيتُ وسمعتُ قَبْلُ عن ابن رَشيق ـ وخسارةُ بَلَدى زائدةٌ ـ ولا نقيم أَوَدًا بذلك لكلٍّ ما نُحاوِلُه من الغزو كلَّ عام وضيافات المُرابِطين، فتجتمع علىَّ الخسارة من وَجْهَيْن، وإن واسيتُ القَوْمَ وأصْلَحْتُ على نفسى، قِيلَ: «قد عاقَدَ الرُّومىَّ!» ويُشَنِّعُ علىَّ ما لم أَفْعَلْ، كالذى كان، فلم أَنْجُ ممَّا توَقَّعتُ للقَدَرِ المُفْضِى.

وكان ألبَرْهَانِش زَعِيمَ جهَات غَرْنَاطَة والمَرِيَّة، وكان الفُونْش قد وكَّلَه أمْرَ الجهتين، من إنفاذِ أمره فيها لفسادٍ على مَنْ تعذر له عندَه شيءٌ، ولقبض مال وتَوَسُّط ما ينفعه فيها، فأرسل إلىّ أولاً عن نفسه، ينذر بدخول وادى آش، وأنه لا يرده عن ذلك إلا الفداءُ لها، فقلت فى نفسى: «ومع من أتق رأيه؟

(١) فى المطبوع: «اغدَر».

أى مقدرة بنا على مـدافعته؟ لا عَـسْكرٌ ترك لنا ندافع به! فكمْ يأخذ فى هذه النَّصْبة من أُسْرَى المسلمين! وكَمْ يفسد فيها من الأموال! ما لا يعشر قيمة ما يُعْطَى كالـذى عَهَدْناهُ منهم! اللهـم لو كان، ونفَّذ ذلك، ويبلـغنا عن أُسْرَى المسلمين عندهم! أليس من الصلاح إفداؤهم بما عزَّ، فنحنُ جُدَراء أن نفعل ذلك قبل رِحْلَتهم دون فساد فى البلـد! ونحتسب ذلك لله تعالى، وهو العالمُ بالضمـائر! فإنَّا لو فَعَلْنا ذلـك أشرًا وبطرًا، وعندنا مَنْ[1] ندافع، لكان فـيـه الحُجَّة علينا!».

فاجـتمع رأيُنا على إرضائه باليـسير، مع مُـعاقدته ألا يقـرب لنا بلدًا بعد أخذ هذه الدفعة، فارتبط إلى ذلك، فلما حصلت عنده، قال: «هأنا قد صَلُحَ جـانبى! والأوكَدُ عليكم أمـرُ ألفونش، الـذى هو على الحَرَكـة عليكم وإلى غيركم، فمن أنْصَفَهُ نجـا، ومن حاد عنه، فسَلَّطَنى عليه! فإنما[2] أنا عَـبْدُه، لا بُدَّ من إتيـان مـرغـوبه، والوقـوف عند أمـره، ولا ينفـعكم هذا الذى أعطيتمونى إن خالَفتموهُ، وليس بنافعٍ إلا فيما يخُصُّنى دون رَئيسى إن حدَّ لى ضِدَّه!» فعلَمنا أنَّ قوله حقٌّ يقبله العـقل، فقُلْنا: «لا يمكن أن نوَجِّهَ نَحْنُ إليه ونبدأه، فنوقِظه لأكْلنا! ولكِنْ، متى أرسلَ يأذن بذلك، سنَعْـتَذِرُ إليه، فعسى [أن] يقبل رَغْبَتَنا، ولم نفتح له بابًـا فى إعطاء شىء إلا يزيد طمعُه! أكثرُ من تَلَوِّى القول، عسى من هنا إلى ذلك الوقت [أن] يأتى عَسكَرٌ يُكسَرُ به، فلا يعبأ بقَوْله، وإن لم يأتِ أحَدٌ لم نكُنْ نُقَدِّم إليه قبيحًا، فنشقى عند ذلك».

ودافَعَنا الأمْرُ عند ألبرْهَانش، وأنه لا سبيل إلى أن نعطـيه شيئًا، واعتذَرنا بالمُرابِطين وغـير ذلك ممَّا لـزمنا من النفقات عليهـم، فسكتَ عنا الخِنْزِيرُ،

(١) فى المطبوع: «بمن».

(٢) فى المطبوع: «إنما».

وأرسل إلى صاحبِه، كالذى يلزمه مـن التخدُّم له، وسأله أن يوجِّه لى رسولاً يُطْلب جِزْيَته، فإن انصرف دون شىء، كان هو المُنْتَقِمَ من جهاتِها.

٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه

وتأهَّبَ ألْفونش إلى الحَرَكة، وقدَّم رسولَه بين يدى حَرَكته، فلما صحَّت عندنا، أتانا منها المُقيمُ المقْعدُ، ولم نَدْرِ أين الخيرة: إن كان فى رَفْضِ البلد وتَرْكِه ليَعْبَثَ فيه، أو مُداراتِه بما تيسَّر، ووقعت من ذلك هَيْبةٌ فى الناس ورجةٌ، حتَّى بلغ من الجزع أننا لم نُصَدِّق أن يقبل منّا المالَ دون المُلازَمة لنا، طالبًا لإحنَة لِيِّط ومُعاقدة المُرابِطين.

وطَمِعْنا أن يقنعَ رسولُه باليسير، فقال لى: «لم آتِ عن ذلك كلِّه، إلا أن تعطيه ما فاتَهُ عنك من جِزْية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفًا! لا يُنقص منها شىءٌ، وإلا، فها هو مُقْبِلٌ! والذى تقدر عليه، فاصْنَعْ!» فرَوَّيتُ الأمرَ فى نفسى، ورأيتُ أن التعاطِيَ حماقة لا تفيد، وقُلتُ: «إن أخذتُ هذه من الرعيَّة، ضجَّت وشكَتْ، ويكون مُقدِّمَتُها بمَرُّوكُش[1] شاكِينَ، يقولون: «أخَذَ أموالَنا وأعطاها للنصارى!» ولكنْ لهذا الوقت يحتاج الإنسانُ ما ادَّخَرَ ليَصُونَ به بَلَدَه وعِرْضَه، وأنا جَديرٌ أن أُعطى ذلك من بيت مالى، بَحَيْثُ يسلم البَلَدُ، ويحَيثُ تشكر الرعيَّة بمدافعَة عدوِّها دون تكليفها شيئًا، ولا تَقَع الشُّنْعة!» ففعلتُ ذلك، وأرسلتُ إليه الثلاثين ألفًا، لم أرْزأ أحدًا فيها درهمًا.

ورأيتُ مع ذلك أن أجَدِّدَ معه عقدًا ألا يعترض لى بلدًا، ولا يغدرنى

---

(١) فى هامش المطبوع: كذا فى الأصل، عوض «مراكش» وليس بتصحيف، إذ عبارة «مروكش» كانت تستعمل دون غيرها أيام المرابطين مؤسسى هذه المدينة، وهى التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة «مراكش» واسمها بالاسبانية إلى اليوم Marruecos.

بعدها، خوفًا أن يَقتَلِب علىَّ، فأجاب إلى العَقد، وقُلْتُ فى نفسى: «إذ لا بُدَّ من دَفْعِها، فبالعَقْد أَولَى، فإن حُوِّجْنا إليه، وجدناهُ، ولم يضرَّ، وإن استُغْنِىَ عنه، كان مكانَه سُمْرُ القنَى والبيض الرقاق، إن تَدارَكَنا الله بعسكرٍ يدفعه، والحَرْبُ خُدْعَةٌ!» «وإذا لم تغلِبْ، فاخلِبْ!».

فأجاب إلى تلك المُعاقَدة، حِرْصًا على أخذ المال، ونحنُ لا نشكُّ أنَّه يغدر، كالخاطِر لنفسه للضَّرُورة التى لا سبيل إلى سِوَاها، وقال لى عند ذلك رسولُه: «يقول لك ألفونش: «إن كُنْتَ تُريد تُخَلِّط مع هذه المُعاقَدة استعانةً به على شىء من بلادك التى عند ابن عَبَّاد، فهو يجدُّ لك فيها فى وجهته هذه» فأجَبْتُهُ: «إنِّى لا أُعينُ على مُسْلِمٍ أحَدًا! وإن الذى دعانى إلى هذه المعاقدة المُدافعة على بَلَدى وأهل مِلتى، فإن وَفيتُم بذلك، فهو المُرادُ الذى إليه قصدنا» وكان من نيته أن يخلط الفتنة بيننا وبين ابن عباد، ليجِدَ بذلك السبيلَ إلى بلاده، ويقوى عليها بأموالنا، ويتسبب إلى طَلَبِ كثيرٍ من أموالنا، إذ كانتْ تلك الثلاثون ألفًا على وَجْه الدَّيْن للمُسالمة فقط، وإنَّما أراد استئنافَ عَمَل.

وكان مع هذا لا يَثِقُ بِقَوْلِنا، ويحسب ذلك منَّا خُدعة، وقُلْنا له: «إنا مُغرَّرُونَ فى هذه الفعلة مَعَكَ، وستدركُنا تباعاتُها عند المُرابطين، ونُطالَب بذلك!» فقال، تسهيلاً لأخذ ماله: «متى أدرككم فى ذلك منه طَلَبٌ، فعَلَىَّ الذبُّ عن مدينتكم» فأجَبْناه: «بل، هو يرى عذرنا، وقبولُه وعطفُهُ أرجَى عندنا من معونتكم».

فانفَصَلَت الحال على ذلك، وقال [لى رَسُولُه]: «لا بُدَّ له من تدويخ

سائر البلاد من نَظَر ابن عَبَّاد وغيره، إن لم يعْطه!» فَقُلتُ: «هذا أمرٌ لا يسألنا الله عنه يوم القيامة! كلُّ أحَد مسئولٌ عن رعيَّته! نَحْنُ قد احتَلْنا على من قلَّدَنا الله أمْرَه، وفَدَيْنا أرواحَهم وأموالَهم! ومَن له حاجة من سائر السلاطين يُقابِل أمْرَكم حَسَبَ مقدرته، إن شاء بفداء أو قِتال، لا نتكلَّم نَحْنُ فى شىء من هذا، ولا ينبغى لنا، ولا أنتُم واقِعون تحت أوامرنا، فننهاكُم[1] عن ذلك، ونَحْنُ لم نتخلَّص من التحصين على ما يخصُّنا إلا بعد كَدٍّ، وما كَدَّنا، فشأنكُم! وأنا بَرِىءٌ، لا أغْمِسُ فى ذلك يدًا ولا لسانًا».

ولم أجد وَجْهًا نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أكْثَر من مُخَاطَبَة المُعْتَمِد، نُعلمه بجليَّة حالنا معهم، وما ذكروه من إيطاء بلاده، ونُنْذِره بذلك، لِكَىْ يقلع، ويدَّرِع الحزم، ويُقَدِّم للأمر أُهْبَته.

٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله:

عبدالله يبرر مسلكه

ثمَّ خاطَبْنا أميرَ المسلمين، نَقُصُّ[2] عليه جميع ما وقَعَ وما دَفَعَت الضَّرورة إليه، وأنَّ الحاضرَ أبصَر من الغائب، ولو الحال يقتضى بمَطْلِها، ولو بمقدار وصول الخطاب بمشورته سلامة للمسلمين، لم أقَدِّم شيئًا فى ذلك ولا أخَّرْتُه إلاَّ عن رأيه، كالذى يلزم، غَيْرَ أنَّ الحفر كان أشدَّ، لم أرَ التغريرَ بالمسلمين، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرَكٌ بحول الله على يديه، ولم نشكَّ فى أنَّ الجواب يَرِدُنا بالشكر على ما نَظَرْناهُ وسَدَّدْناهُ، لا سيما إذ كان الفداء، من عندى ولا أُكَلِّف فيها مُسْلِمًا دِرْهمًا، فوردنى جَوابُه مع ما أُمْلِيَتْ نفسُه من الطَّلب لى، وصُوِّرتْ عنده الأمور على غير حقائقها، بما زاد فى جزعى،

(١) فى المطبوع: «فنهاكم».

(٢) فى المطبوع: «ننص».

يقول: «أمَّا مُدَاهَنَتُك وقَوْلُك الباطِل، فقد[١] عَلِمْناهُ! وسنعلم عن قريب كيف ترضَى الرعيَّةُ، وما تَصْنَعُ إذ زَعَمْتَ أنك نظرتَ لها، ولا تُسَوِّف: فإنَّ هذا قريبٌ غَيْرُ بعيد!».

فلم أَقْنَطْ مع هذا، وقُلْتُ، عند الحقائق وتِبْيَانِ ما وقع، على لسانِ رَسول: «يزيلُ عن باله كلام الأعادى! وهذا من بَغْى القليعى وأبى بكر بن مُسكَّن! فإنهم لا ينقلون إلا على شهواتهم!» وكان أبو بكر بن مُسكَّن قد بلغ من طغيانه علىَّ، وسَبِّه لى، ورَجائه فى أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرنى أو أكْثَرَ، فإنَّه انتمَى إلى بنى زيرِى، وجعل يهذى بذلك ويفتَخر به، لا يَرَى لأحَدٍ عليه فضلاً، ويسعى فى نقض ما انبرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه مُلك ولا أمر، فجعلت الذنب فيه سَوَاءً كما فى القُلَيْعىِّ، إذ مقالتُه لا تطفى ما أشْعَلَ القُلَيْعىُّ لو أراد الخيْرَ، كما أنَّ تَرْكَه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك، فجَعَلْتُ الهمَّ فيهما هَمّا واحِداً.

ولمَّا تشدَّدتُ عليه، وأمرتُه بالكفِّ، أحرق، وهرب دون نَفْيٍ، ومضى قاصِداً إلى المُرابط، يغرى فىَّ، وَيَسْعَى علىَّ، ويكذب، ويصوِّر الأُمور على غير وجوها، فتكرَّرَتْ مُخاطَبتى على أمير المسلمين، نبيِّن له جميع ما وقع، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفَسَقة، وهو، فى ذلك كلِّه، لا يراجعنى إلاَّ بالشِّدَّة، وقبول قولهم علىَّ، فبقيت تلك الأيامَ على أسوأ حال، لا ندرى أين الخيرة، ولا كيف التخلُّص.

وساءَ ظنُّ المُعتَمِد بى فى دخول النصرانىِّ إلى بلاده، وكفِّه عن بلادنا، واعتقد أنَّ ذلك عن اتِّفاق، ولو كان عن اتِّفاقٍ، لأدَّيْتُ عليه مالاً فوق

(١) فى المطبوع: «قد».

الجزْية! فليس لهم إلا بنى الكرَى غير منطاعين لقَوْل أحَدٍ، ولم يأتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلاَّ والبلد قد أفسد.

والله تعالى يعلم أنِّى ما واسيت فى تلك النَّصْبة، ولا يسألنى الله عن كلمة طعنتُ فيها على مُسْلِم، فاتَّفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب، ولو أنى أريد ذلك، والانحياشَ إلى النصارى، كالذى قِيلَ، لم يَصِل المُرابِطون إلى سَبْتة[1] إلاّ ومدينة غرناطة مَمْلوَّةٌ منهم، وكنتُ أستطيع على ذلك، وكانت لى فى المدَّة برهة وفسحةٌ طويلةٌ، إلاَّ أنَّ الأعمال بالنيَّات، وتلك القالة إنَّما كانت سَبَبًا للذى قُدِّرَ، ولو أن قضيَّتى تُسْتَوْضَح، لَوُجدَ فيها ما لا مطعنَ فيه، ولا مَقالُ بيِّنة، ولا إسرار فى مَيْل على مُسْلِم، ولا إدخال داخِلةٍ، وكيْفَ يصحُّ هذا قِبَلَنا، وأوَّلُ سَيْفٍ سُلَّ على الروم إنَّما كان من قِبَلِنا، وهى الوقيعة المشهورة بالنِّيبَل، من طاعَتنا، فى حين تطرُّق النصارى إليها على حين غَفلةٍ، ووافَقَ ذلك أوَّلَ ظهور المُرابطين ووُصولَهم سَبْتَةَ، ووَرَدَنا إذ ذاك رسول ألفونش مُعْتَذِرًا من الأمر، فصرفناه عن الطريق، قطعًا له، وإيثارًا لأمير المسلمين، وعند الله تجتمع الخصوم!.

---

(١) سبتة: مدينة عظيمة على الخليج الرومى المعروف بالزقاق، وهى تقابل الجزيرة الخضراء، والبحر يحيط بسبتة، وليس لها إلى البر غير طريق واحدة من ناحية الغرب (الروض المعطار).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل التاسع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٥- الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة[١]:

ولمَّا كُـنْتُ فى تلك الفتـرة، بدَتَ أمورٌ وأسـبابٌ دَلَّت على مـا كان من الانتقال ومُقدماتٌ آذنَتْ بالزوال، فـأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لعلَّة نذكرُها، وأَرَقَّ سـببٍ لم يُوبَهُ له، وذلـك أنِّى، لمَّـا أمـرتَ ببُنيـان السُّـور المـتَّـصل بالحمراء، ودبَّرتُه على تلك النصبة التى أضرَبتُ عن شرحِها لاشتهارها هيأت السعادة أن وَجَدَ البناءُون فى الأساس قُمقُـومًا مملوءًا ذهبًا أعلمونى به، فلما وقفت عليه، لقيتُ فيـه ثلاثة آلاف مِثقال جعفرية، فاستـبشرتُ بها وتفاءَلْتُ بنجاح الطلبـة، والدنيا تسخرُ بنا كـما سخرت بمن كان قـبلنا، فقلتُ: «من أساسِه يكون بُنيانُه!».

وكانت دارُ أبى الربيع اليـهودىِّ الخازن للأموال فى دولة جِّـدى ـ رحمه الله ـ مبنيَّة على ذلك الأساس، فعلمنا أنه من مـاله المدفون، فأتَى ابن المرَّة متنصِّحًا بالأمر، ويقول: «أرسلوا عن ابنه، يكشف لكم سائر دفائنه» فخاطَبْنا عنه ليِرِدَ علينا فى بعض الأمر، وكان صِهْـرُه ابن ميمون، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّـانة بوجه الأمانة، وأسْدَينا إليه جـميلاً من التنويه به، فاستـمال بها أقوامًا من الغرباء، يصول بهم على أهل مِلَّته، وكان خـبيثًا، فأحَسَّ بالقِصَّة، ووجست نفسه منها، واعتذر عن صهره، وساءَ لذلك ظنُّه، وخشى أن يُعذَّب على مال أبيه.

(١) اليُسـانة: بلدة حصينة من أعمال مقاطعة غـرناطة، تقع شمالى غربى مدينة لوشة على مقربة من نهر شنيل (الإحاطة ٣/ ٢٩٩ حاشية ٢).

ووَافقَ قَبْلَ ذلك، عند انصرافنا من لِيِّيط، أن فَرَضْنا على أهل اليُسَّانة ذهبًا كثيراً باسْم التَّقْوِيَة لم تَجْرِ عادتُهم به، وحَمَلْناهم فى ذلك على الصحَّة والانطباع، فنَفَرَت لذلك أنْفُسُهم، ووجد ابنُ مَيْمون المذكور السبيلَ إلى إغرائهم وحملهم على النفاق، فأجابوه، ودخلوا فى السلاح، ونادى فيهم أن: «جدُّوا، مَعْشَرَ بنى إسرائيل، فى حماية أموالكم!» وافتضح بذلك ابن مَيمون، وسَبَقَتْ له جنايةٌ فى قتل عامِلِنا ابن أبى لَوْلا على المُسْتَخْلَص رياسة وعدوانًا، وامتَنَعَت اليُسَّانة بالجملة.

فلمَّا رأيتُ ذلك، لم أجد بدّاً من مُداراةِ الأمر، واشترَطَ مُؤملٌ بإصلاحه، ونهض، ثُمَّ إنِّى عملت رأيى بعْده، وعَلِمتُ أنّه لا يلقَى إلا أحَد وجْهَيْن: إما طاعة على غِش، أو عصيانًا، وأيهما كان، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ، وشدَّةٌ وتَرْهِيبٌ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنَوه، وخَرَجْتُ بنفسى فى أثره، وقد اجتمع إلىَّ الأنداب، فإذا بمؤمل قد أقبل منصرفًا، ردنا عن ذلك المذهب، وقال لى: «قد أصلحتُ الأمر مع ابن مَيمون، ونُهوضُك إليه لا يزيد القوم إلا نفاراً، وربَّما استعانوا بعسكر ابن عَبَّاد، لا سيما أنه الآن بقُرْطُبة، وليست تُؤخَذ بإحصار ولا قتال!» على أنِّى قد علِمتُ أن ابن عبَّاد لا يجيبهم فى ذلك الوقت كلِّه، ولا اشتهر بذلك إلا ما كان الناسُ يذكرونه، وابن ميمون يفتخر به ويُطمِع به أهل اليُسَّانة.

فقبلتُ قولَ ابن مؤَمل، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة، وقلتُ: «خروجى إلى هُنا أو وصُولى إليهم سَوَاء! إذا أردنا التَّهييب، فقد وَصَلْناهُ!» ثم قلتُ لمُؤمَّل: «صِف علىَّ ما انفصلت!» فقال: «إنَّ ابن ميمون زَعيمها

عَدَّدَ أشياء أنْكَرَها من الإرسالِ فى صهره، وهذه الفرضة العظيمة، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة، فضمنتُ لهم الصكوك برفع ذلك عنهم، ولابن ميمون فى خاصَّته» وأمرتُ بَعقدها والإرسال بها، وقرت الجبالُ قرارها.

ووجَستْ نفسى من ابن مَيْمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك، وعَلِمْتُ أنَّ هذه هُدْنَةٌ على دَخَنٍ، وأن لا طاعة تصحُّ لى معه، وسيؤثر أمثال هذه، فَدبَّتْ إلىَّ المُداخلة من اليهود المخمولين فى زمانه، ووعدتُهم بالإحسان، وتكرر فى الوساطة ابن سِيقى، حتى أبرمتُ من ذلك ما أمَّلتُه، وكان أخذ ابن ميمون يسيراً، لا عصبةَ له، وهو غافل، وكان الواسطة أيضًا ابن المرة مع أبى العباس الحكيم، وكان ذلك ممَّا نقمه مؤمَّلٌ لانحياشه عن ذلك، إلى أن وردوا الحضرة على عادَتِهم، وأمرتُ بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ، وأمرتُ أن لا زعيم فيهم بعد اليوم إلا الكلُّ منهم أمناء مَنَّوْه بهم، فشكروا ورضوا، وخاطبتُ عامتَهم تُعلمهم بما لهم فى ذلك من الصلاح، وتهدَّنت الأحوال وقرَّت، إلى أن تلف الكلُّ.

٦٢- قضية زناتة:

وقَضيّة أخرى بَعْد هذه فى أمْر زناتة: إنه، لما أعملتُ الفكرة فى عاقبة الأمر فى هذه الفتن العارضة، رأيت أنَّ الاهتبال بالمعاقل من آكَدِ ما يجبُ النظرُ فيه، كالذى تقدَّم ذِكْرُه من المنظر فى عُدَدِها وما يُصْلِحُها، وأنَّ الأولَى استصلاحُ ما فسد من نفوسِ قوَّادِها، وذلك أنه لم يكن يَلى لنا مَعْقِلاً قَطُّ غيرُ صِنْهاجَة والوصفان والعَبِيد، ما خَلاَ زَنَاتَة: فإنَّهم كانوا أجناد الحضرة.

وكان الصِّنفُ المذكور قد ضَعُفَ، واستولى عليه النقصانُ لمُطالباتِ

جَرتْ عليهم من قِبَل وزراء الدولة كاليهودىِّ وغيره، فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تتهيأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفسهم من تولية مثلهم، فكانوا يميلون إلى الصنف البرَّانىِّ كله، ولما جرى على اليهودىِّ ما جرى منهم، اعتقَدَها النايةُ فى نفسه، وخشى مثل ذلك، فجعل نفسه فى مطالبتهم، وتبديدهم، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة، ومن كان بيده شىءٌ، تُسُبِّب إليه وأزيل عن يده، فأدْركهم النقصانُ والقلةُ، وزاد فى زنَاتَة، وقويت أحوالُهم وإنزالاتُهم، على أنهم كانوا على الحقيقة خِيرة جُند الأندلس، والموثوق بهم فى الشجاعة والنجدة، وكان الصنْفُ كثيرًا، لا يعدم ضمَّهم مَنْ له مال.

فقلتُ فى نفسى: «هؤلاء القوَّاد الذين على الحصون، وإذا كانت أنفُسُهم فاسدةً، ولا يتذكَّرون معنا على نعمة طائلة، فكيف يُمسِكون المعاقل، أو بأىِّ قلبٍ يجدُّون معى؟ وإنه لا عِوَضَ منهم فى الثِّقة للحصون وإن زنَاتة هؤلاء المتأصِّلين لا ثِقَة فيهم للمدينة الفُوقى ولا للحصون، أكثر من خدمة الجُندية، لا يَعدَمُ منهم أحدٌ، فأنا جديرٌ أن أُشركَ مَن ضَعفُ من صِنهاجَة بهؤلاء الأقوياء الذين أدْرَكَتْهم العناية ويُمسك واحدٌ منهم إنزال خمسة فُرْسانٍ وستَّة، ثمَّ من قنع بما بيده بَقىَ، ومن لم يُرِدْ، لم نعدَم منه العِوَض!» ففعلتُ ذلك، وأشركْتُهم، وكان فى هذا كلِّه تَحْرِيكٌ لِلشرِّ والقال:

إذا لم يكنْ عَوْنٌ من الله للفتى

فأكْثَر ما يجْنَى عليه اجتهادُهُ

فلمَّا رأى كبارُ زَنَاتة ذلك، قلقوا، وساءَت ظُنونُهم، فكُنتُ، متى دعوتُهم

إلى خِدْمةٍ نَجِـدُهم عنها عاجزين: من أشرِك ومن لم يُشْرِك، فـامتحنتُ على ذلك، فقيل لى: «إن كِبارَهم يفسدون صغارَهم! ولو أنك تخرج وغوغائهم[1] من البلدة، لصَلُح لك سائرُهم!».

فأمَرْتُ بإخـراج ثلاثة أنفس ممَّن يتهم منهم، وكان المـأمورَ بذلك لَبيبٌ الخصيُّ، صاحبُ المدينة ذلك الوقتَ، وثقناه لتربيتنا له، وكان فى المجلس أقوام يحسدُهم ويتهمُهم على نفسه أن ينقلوا طريـقتَه السيئة، فأصاب الفُرْصة للخراب، وأرسل من قِـبَلِه إلى أولئك المُخرجـين، وإلى من سِواهم من بنى عمِّهم، يـقول لهم: «إن الطلَّبَ قد وقَع فيكم من مَـجْلِس السلطان، وأُمِرْتُ بإحراجِكم، فلا توهنوا، واجـتهدوا فى التعصُّب عليـه وتَرْوِيعِه! وأنَا مَعكم! فإنه، إذا رأى جماعتَكم، رجع إلى قَـوْلِكم!» فلم يكن إلا بعد الأمر بساعةٍ، وإذا بجماعـة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة يقولون: «إمَّـا أن يَرُد شِرْكَتَنا، وإمَّا فالكلُّ راحلون عنه، مُـنْتَقلون إلى غيره!» وأتى الفاسقُ لَبـيبٌ وأصحابُه الْمُتَّفقون معه، يقيم حُجَّتهم، ويُعضد قولَهم، ويخوِّف منهم، فمَيزت الأمْرَ، وعَلمتُ أن هذه جَعجَةٌ لا يُرجَع فيـها إلاَّ إلى رأى، فأظهرتُ الشِّدَّة، وقلتُ: «لستُ براجع عمّا أبرمْتُ، فـتكون نفوسُ الذين أشرَكتُ معـهم مُنْصرِفة إلى مثل نفوسهم! فمن شاء، فليمُرَّ، ومن شاء فليبق!» فلمَّا سمعوا بذلك، خرج الكلُّ.

ومـؤمل، فى هذا كله، على اتفـاق مع لبـيب، يدخل فى رءُوس الجند ويقولون لهم: «إنَّ هذا من قِـبَل غيرنا، ونَحن أبرياء!» ويرونهم الشـفقة من الأمر والطَّعن علىّ، وَصحَّ ذلك عندى مع طائفـةٍ من شيوخ العبيـد أصحاب

(١) فى المطبوع: «غَوْغَتهم».

مُؤَمَّل، وعملت حساب زناتة أنهم لا يزولون بالكل، وأن ذلك ترهيب، وأن الرجوع عمَّا أمرتُ به يضربهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأى ويكونُ لهم الصولة والحماقة فى المعصية، وأن انقيادَهم للأمر واستعذارهم بعده أشبَهُ، وللحُجَّة عليهم أعزُّ وأبهى.

فلمَّا كان يومٌ آخرُ، خرجتُ بنفسى إلى عَرْضِهم كَىْ لا يُبَطِّن علىَّ من تقدَّم ذكْرهُ، فأمرت بالبريح عليهم وإحضار الزمام، لنعلم من صحَّ مُضيه وقعوده فوجدتُ الكلَّ مجتمعين، قد انصرفوا متقطعين ليلاً، لم يغبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أمرت بإخراجهم، وجعلوا يعتذرون ويتنصلون، فقلتُ: «الله أكبر! هذا أشبَهُ وأليقُ بالمملكة!» ورأيت مؤملاً ولَبيبًا وغيرَهما قد عزَّت عليهم طاعتهم مُؤملين أن لو كانت طامَّة لا ترفع:

والعَين تبصر فى عينى مُحَدِّثها

إن كان من حِزبِها أو من أعادِيهَا

٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة[١]:

ولمَّا قرَّ أمرُهم قرارَه، جاء مؤمل فى إثر ذلك يقول: «إن هذا الانطباعَ منهم ليس لرَغبة فى البقاء معك! غير أنهمُ يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم، ويتزوَّدُوا به! فلا فائد تُنْزِل عليه غيرَهم، ولا رجالٌ بقوا معك؟» وكنتُ إذ ذاك ناظراً منه بعيْن الثقة؟ فعمل قوله فى نفسى، وقلتُ: «لا يَخلو هذا القولُ عن وجْهَين: «إما قد اطَّلَع على ذلك منهم، فهى نصيحة، أو لم يطلعْ، فهو بغائلَته لا يَدَعهم، ويدخل هذا فى رءُوسهم، وتكون علىَّ فى

(١) لوشة: بالأندلس من أقاليم إلبيرة، وبها جبل فيه غار يصعد إليه (الروض المعطار).

ذلك الخسارة، وإن احتجتُ إلى العِوَض، لم يكن لى على ما نُنْزِلُه ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله من النفقات على سائر الأمم!» فلم يأتنى من هذه الكلمَة نعاس، وأمرتُ بإخراج كلِّ من فى رأسه حماقةٌ فبلغ عِدتُهم نحو المائة فارس، فخرجوا عن المدينة، وتصفّتْ، ولم يَبْقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمر.

وعَملَ فى نفسى فِعْلُ لَبِيب وشيوخِ العَبِيد، وصحَّ عندى منهم وَفِيهمْ أَنَّهُم عَوَّجُوا زَنَاتَةَ، وكانوا أشدَّ علىَّ من كلِّ أحَد، وجعل زَنَاتَةُ يَذكُرون ذلك، ويقولون وقتَ اعتذارهم: لا ذنب لنا! إنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ، ولولا ثِقاتُه وعَبيدُه الذين حملونا على ذلك، لم نجترم عليه!» وجَعَلُوهم فى وقت قيامهم يمشون على الأسواق، ويأمرون الناس بالقيام، ويقولون لهم: «لم نَدْفَعْ نَحْنُ، إلا وهو يُريد إدخالَ النصارى!» فلم يلْتَفِت الناسُ إلى قولهم، إذ لم يروا ذلك من ثِقات الدولة وصِنْهاجة.

ولمَّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ، أمَرْتُ بعد ذلك بإخراج اثنَيْن من شيوخ العَبيد الذين صحَّ عندى إشعالُهم لهذه القضيَّة، وثَقّفْتُ لَبِيبًا، فوافَقَ إخراجُهُمْ ومؤَمَّلٌ خارجَ المدينة، فلحقوا به، وقالوا له: «قد أخْرَجَنا! وغدا بِكَ هكَذَا! فانظُرْ لنفسك!» فخَرَجَ معهم من فوْره ذلك، قاصِدًا إلى لَوْشة، مع مَن اتفق معه مِثْل ابن البَرَاء الكاتب وغَيْره.

وكانت هذه تِفْقَةً قَديمةً بَيْنهم مع بنى مالِك عُمَّالِ لَوْشة، أنه، متى دهمهم أمرٌ، لَجَئُوا إليها، فنهضوا من فَوْرِهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة، ولحقوا بها ليلاً، ودخل المدينةَ، ولم يمنعه أحَدٌ لمكانتِهِ مِنَّا، وحسب القائدُ

ومن فيها أنَّه رَسولٌ، فصار فى قَصَبَتِهَا، وجمع الجُنْدُ والرعيَّةَ، وصرخَ فيهم بالبُكاء، وافتعل الكذب، وقال لهم: «لم أخْرُجْ من غرناطة إلا كما تَرَوْنَ: «بطَوْقى على عُنُقِى!» وتركتُ فيها النصارى قد استحْوَذوا عليها، وكُشِفَ عنّى! فاثبتوا معى ونُوَجِّهُ إلى كلِّ سلطان: فمن أجابنا، اعتَضَدْنا به!» وخاطَبَ بذلك حُصُونَ الغَرْب، يأمُرُهم بالخلاف، وأرسل إلى زنَاتَةَ المُخْرَجين، ليكونوا معه مُضيِّقِين على غرناطة.

وإنَّ أهْلَ الجِهَة مع أهل الحصون، لمَّا سمعوا ذلك دبَّرُوا رأيَهم وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرة مَنْ يَطَّلِعُ صُورةَ الأمر، فإن وَجَد خِلافَ قوله، لم يُخربوا وجوهَهم معنا، وإن ألفَوْه حقّا، نظروا لأنفسهم، فأتونى أفواجًا مُعَزِّين ومُهنِّئينَ على السلامة من النصارى، ومُستَفْهِمينَ جليَّةَ الحال، فأخبرْتُهم بالأمر على وَجْهه، ولم يروا شيئًا مِمَّا ذكر مؤمَّلٌ، فطَابت أنفسُهم، وعلِموا أنَّه مُخالفٌ مُنافِقٌ، فبادَرَ الكلُّ إلى مُنازَلَتِهِ، وسألونى عَسْكَرَ الحضرة.

وكُنتُ، لما صَحَّ نفاقُهم بلَوْشة، قد أبْلَيْتُ لهم عُذْرًا، وأرسلتُ إليهم كُتُبًا ورُسُلاً تؤمِّنُهم ممَّا خافوا، وتُحَذِّرُهم قبيحَ العاقِبة فى إيثار الفتنة، وأنِّى مُطلِقُ إليهم أهاليهم، ويخرُجُون عن الحصون حيث شَاءُوا بأمانٍ ووثائقَ، وهم فى هذا كلِّه، لا يزيدون إلاَّ طغيانًا وتهَدُّدًا، بانين على الشرِّ، طالبين للثأر بلا ثأر، فلما يئسْتُ منهم، مع اتِّفاق الحصون عليهم، أرسلتُ بالعسكر، وقوَّدتُ عليهم يُوسُفَ بن حَجَّاج، سنذكُر وَجْهَ مُصاهَرته لنا بعد هذا، فنهض، فلم يكن إلا ساعة وصولِه، وجَزَعَ مَنْ معه فى القَصبة،

وخَلَتْ عليهم، ودخلها العسكرُ، وأُسِرَ فيها هو وكلٌّ من معه، وأتانا من ذلك فَتْحٌ عظِيمٌ.

وأَمَرْنا بثقافها وسوقان الأسرَى، وثقفناهم مُسْتَفْتين فى أمرهم، فأفتت السُّنَّة أنَّ قَتْلَهم غير جائز إذ كان نفارُهم جَزْعًا، على أنَّهُمْ كانت لهم سَعَةٌ فى الأرض غَيْر لَوْشَة، وإنَّما أرادوا الفسادَ فى الأرض، وآخرونَ يقولون بقتلهم، فآثرت الأليق والأبعد من الآثام، وأنَّ ذلك لا يفوت، ومن أخلاق الكرام التأنى والعَفْوُ عند المقدرة، فأوْجَبَت السياسة تثقيفَهم والشدَّة عليهم، لئلاَّ تكون طرقةً لغيرهم، وهو بابٌ فَتْحُهُ على الدولة من أَضَرِّ الأشياء، فلا غَفْلةَ لملكٍ يَقْظَانَ فيه.

وخاطَبوا، مُدَّةَ كَوْنهم بلوشة، كلَّ رئيس بالأندلس، حتَّى صاحب مالَقة، فلم يُجِبْهم أحَدٌ، فلما يَئِسَ مُؤَمَّلٌ منهم، أرْسَلَ إلى أمير المسلمين، يُزَوِّرُ[1] عنده الأمر كله، ويكذب، ويقول له: «لم نؤتَ إلاَّ من إنكارى أمرَ النصارى، والقيام بدعوتك» حُجَّةٌ لا تقوم على ساق، وكان العَسْكَرُ إليها مُقْبِلاً مع نُعْمان، فانصرف لمَّا عُلِمَ بأَخْذِها.

٦٤- وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله:

وكان نُعْمانُ المذكور ممن فَعَلْنا معه جميلاً، وأحسنَّا إليه لحرمة القرابة والانقطاع إلينا من المُرابطين، وزال عنَّا بعد إعماله الدواخل علينا فى حصوننا الغربية، وعَقْدِه مع أهلها أن يصيروا فى طاعة المُرابطين متى دُعُوا، وكان له بتلك الجهة إنزالٌ، فتمكَّن من القُرْب والعَمَل بذلك، وخرج عنَّا بَسراحٍ ادَّعَى من أجله أنَّ بالعِدْوَة ميراثًا ومالاً يُريد اقتضاءَه، فأبَحْنا له

(١) فى المطبوع: «بُزَوِّرُ» بالباء فى أوله، ولا وجه له.

النهـوضَ، وإذا به يَسْـعَى علينا، وقـال للأمـيـر: «نُفِيـتُ من البَلَد من أجْل نصيحتى لك ومَحَبَّتى فى دولتك!» أمْرٌ لم يكن منه حَرْفٌ، حتَّى إنَّ أطواقى، إن تكلمَتْ، لسَعَتْ علىَّ، لـلقَدَر الذى شاءَهُ الله، عسى لعـاقبةٍ محـمودةٍ إن شاء الله.

فعَملتْ هذه المعانى كلُّها فى نفس أمـير المسلمين، مع ما صُوِّرْتُ عنده بكثرة الأمـوال المكذوب عليها والمُنْتَـفَقةِ فى طاعتـه والجهاد معـه لو بَقِيَت الحال.

٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله:

وإنَّا فى تلك الـفـتـرة، رأينا من الصـــلاح النظَرَ لمن مَـعَنـا من البَنَات وتَزْوِيجَهُنَّ قَبْل أن يفجأ أَمْرٌ، فيكُنَّ على غير عِصْمةٍ ولا كفيل، فتخيَّرنا لهُمَا من بنى عـمِّهمـا شاكلةً، منهم مَـعَدُّ بن يَعْلَى، للذى كـان عليه من النـجابة والعقل والمَحَبَّـة، فصَدَّنا عن ذلك أَهْلُ دولتنا، وقالوا نصيـحة وحَسَدًا: «إن أنت تصاهَرْتَ إلى بنى عمِّك، حَمَلَتْهم دالَّةُ القرابة مع المُصاهرَة على الظهور عليك وفساد حالك بصلاحهم، فإيَّاك! وعليك بمَنْ هو دون قِيمَتك، فيُراعى إحسانَك، ويَرَى هذا منك كثيرًا، ويَرَى عياله بعَيْن مَوْلاة، وإن هو تحرَّك إلى شىء قعدَتْ به دقَّة شأنه، فلا أتبـاعٌ يهاودونه» فقبلنا ذلك حذرًا على الدولة، وقُلْنا: «من صَلُحَ من قرابتنا، نُدْرِك فعل الخير فيه دون مُصاهَرة تُطْغِيه!».

وكـان من بعض خَـدَمتنا مَـنْ حَضَّنا على يـوسف بن حَجَّـاج، لعِلْمِـه بأخلاقه مدَّة صـحبته له، ووَصَفَه بصفَات ظاهرُها يشـبه المشاكلة، وذلك أنَّه قال: «فى الرجل انقـباضٌ واستِيـحاشٌ من الناس، وبذلك تأمَن من إجمـاعه

عليك، وفيه شُحٌّ كثيرٌ، لا يُخْرِج خَيْرَهُ من منزله، وفيه غيرةٌ شديدةٌ تُوَافِقُ مُعاشَرَةَ العيال، وبه حَرَجٌ ونَزَقٌ، لا تَصِحُّ به ولاية، وهو من نقصان البيان وعيٌّ اللسان ما لا يطّبى بذلك الناس لتألُّب، إن شاءه عليك، ولا نقض لفعلك أو مَقالك والرجلُ من أوساط الناس ومِمَّن لا ينتمى إلى مَلِكٍ، ولا تُحدِّثه نفسُه بما لا أَصْلَ له فيه، فهو بين يديك كالكماة التى إن شِئتَ قَلْعَتَها، لم تتعذَّر عليك من أصلها، أو كالصَّمْغة، إن شئتَ فرَّغْتَها، ظَهَرت، وكانت لك المنَّة والخيار! والآخَرُ هو تَرْبِيَتُك ونشأتُك، وابنُ وزير جدِّك، وله من بُعْد الهِمَّة وكَرَمِ النفس وحُسْنِ السمت والوقار على حال الحداثة ما تُرْجَى« بَرَكَتُهُ، وليس بمُنْقِدٍ قدرُه، وإن أنهضَته إلى أمْرٍ، جدَّ فيه، وأنت آمنٌ من سوء العاقبة، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابْنَه إلى دَرَجة تُقِرُّ عَيْنَه، والأولَى أن يدعُوكَ صِهْرُك «مَولاى» من أن يكون لك مِثْلاً، فتشقى أنت ونَحْنُ، إذ الغمدُ لا يحتمل سَيْفَيْن، ولا ندرى مَن السلطانُ فيكم، إلاَّ مَنْ ارتَضَيْتَهُ وقدمْتَه».

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتَمِّ ما يمكن، واستعددتُ فى سائر أمْرى بالأحْزَم، ووكَلْتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: «هذا جُهْدُ الاستطاعة، ودون جُهْدِك لا تُلام، ولله أن يقضى بما شاء!».

ولَمَّا صار وَلَدُ حَجَّاج بتلك المنزلة، شَرِهَتْ نفسُه إلى وزارة الدولة، مَقْطَع من لم يميِّز المذهب، ولم نكن بعد وزارة سِمَاجَة نستعمل لذلك أحَدًا، فكأنه وقع فى نفسه التقصيرُ به، جهالةً من الإنسان بقدره له مُهْلِكَة، وتَرْكِه صيانَةَ قدره له فاضِحة.

٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله:

وكان أهلُ دولتنا على مَـذْهب جهالة فى هذه الأمـور: إنَّ كلَّ أحَدٍ منهم يُريد أن يعـمل برأيه، وأن تجرى الأمـورُ على هواه، فإن لم يتَّـفِقْ ذلك له، صار فى حـيِّز الأعداء، ولو كان علـى مرغوبـهم، ما اتفـق لرئيـس عَمـلٌ، ولا تَمَّ له شيءٌ، وكانوا قَـبْلَ أيَّامنا قد شغلهم الخَوْفُ من صـولة رؤَسائـهم: ما كانوا يَرَوْنَ السلامةَ غَـنِيمـةً، ولـما تَـمَّ لهـم فى أيَّامـنا الأمـنُ، وأنسيتهُـم ما مضى، أدركَهم الأشَرَ والبَطَر، إلى أن تطمح أنفُسُهم لغير ذلك، وكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أن بالأمن نسلم من اللائمة والعـداوة، وخانَنَا القياس، وكـذلك العاقِلُ المُتـمَرِّن لا يَجِب له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّه بنفسـه، ولا يعمل حسـابَه وَحده، فليس كلُّ الـنَّاس على مَـذْهَبك، ولا هواه مُطابِـقٌ لهـواك! ولا مـحـالة أن باختلاف الأهواء تَقَع العداوات، وباتِّفاقنا تكون المُصاحَبَة وحُسْن المُعاشرة، وأصـدق الناس لك مَنْ يكابدُ مـعك، ودهاه مثْل الذى دهاك، وإن كـان من الأباعِد، فلا تستريح إلا إليه، ولا تشْكُ هَمكَ مع من لم يعْنِه ما عَنَاكَ: فإمَّا ساهٍ عن حَدِيثك، وقد أكْـثَرَت عليه، وإمَّا مُخَالِفٌ لمَذهبِك، قـد استهْدفتَ إلى عَدواته، وأحْدَثْتَ فى نفسه ما كنت غنيًا عنه.

هذا طبع البَشَرِيَّة: فلا تسمع ممَّن يُريكَ التحقيق بكلامه، فإنَّ الحقَّ ثقيلٌ على النفوس، والباطلَ إليـها أسرع، وعليها أخَفُّ، ولَمَّـا علم الشيطان حِيَلَ الإنسان، لمَـجْراه منه بمنزلة الدَّم[1]، أتاه من قِبَلِ هواه، ولا سـبيلَ أن تَلقى أحدًا عَدِيمَ العَقْل: كلٌّ قد أخَذَ من التجرِبة حصَّتَه، وحاز اختياره، وعَرْضُك عليه ما يَبْدو إليْكَ عـجزٌ وكلفةٌ: فإن كان رِيِّضًا، فهـو بشأنه أبصر، ولعلَّ له

(١) فى المطبوع: «الذم» بالذال، ولا وجه له.

عذراً، وأنت تلوم، فتُولِد عليه انقباضًا منك وتَحفُّظًا لئلا يُريك الخِلاف حتى يأتى بما اعتـزم عليه، وإن ألفيتَهُ جاهلاً، فـمن العناء رياضةُ الهَرِم، لم تَزِدْه أكثَرَ من نَقْله عن ودِّه، ولا يَنْتَقِل عن طَبْعه.

كَيْفَمَا رَوَّيْتُ فى الأمْر، أجِدُه جَهْلاً من فاعله وكُلْفةً، إذ لا تأديبَ يجمل بالمُعَلِّم ولا المُـتَعَلِّم، اللَّهُمَّ إلاَّ من شُورِ فى أمْرٍ، فعليـه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح، ولا يتمـرَّن فى انتظار طاعة، فيكون الناصح، إن سُمِعَ منه، تمادَى على صداقته وخُولِفَ فى غِشٍّ، فما قام خَيْرُكَ، يا زَمان، بِشَرِّك!.

لو أنِّى أعْلَم أنَّ بخـلاف يَسيرٍ عـلى القائل يُنْتَـقَل إلى حيِّز الـعداوة، لم أُشاوِرْهُ فى أمـر أبدًا: وأكونُ قبْل مُشـاوَرَته مخاطِرًا حَـذِرًا الذى نَخشى منه، أشَدَّ علىَّ من عاقِبـة الأمر المعروض عليه، فالعاقِلُ يـقيسُ على هذه المعانى ويحرز بها صديقَه، فرُبَّ عداوة تتولد بأرَقِّ سَبَب، أو عداوةٍ تعود إلى مُوَدَّة، عند الحـاجة إلى التـعاوُن أو الانخـراط فى سلكٍ واحدٍ من عـارض يعمُّ أو مَرْغوبٍ يُرَامُ؟ تكون الحاجة فيه سَوَاءً.

ولا خَيْرَ فى عَـقْل لا يتصرف تارات، والمَذْهَبُ السَّـرْمَدىُّ راكِبٌ طريقةَ الجَهْل، واقِعٌ فى الورطات، ومن الحقِّ ما يسمج، فـلا تقوم حلاوتُه وفرضُه بما يعقب من المَشَقَّـة، والعاقِلُ يتخيَّر الأمور، فيتَـجَنَّب معسورَها، ويتَوَخَّى مَيْسُورَها.

٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف:

وللقائِل، إنْ يحْـتجَّ على هذا النِّكاح: ما الذى أُرِيدَ به؟ إن كُنَّا غـالبين، فقد استغنينا عنه، وإن كُنَّا مغلوبين، لم يَفـدْ ذلك! يعترض هذا بعد تِبْيان ما وقع!.

وإنَّما أردنا اكتساب الحَسنَة مع السِّتر، وإنَّه، متى عرض عارضٌ، كان البعلُ مُكتَفِيًا بامرأته، يُقَلِّعها إذا أحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك، وتكون لنا منهم عُدَّة، ويقِلُّ طمعُ كلٍّ من يَشْرَهُ إلى خِطْبَتهما، فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأندلُس رَامَ ذلك، وتوقعنا العاقِبة إن فَعَلنا: تنشّبنا فيما لا مَرَدَّ فيه، ولا يُنفَكُّ عنه إلاَّ بالأموال الجسيمة التي هي أولى بالبَذْل في إقامة أود المملكة وما كُنَّا بسبيله من الجهاد، وإن أبَيْنا، وقع الخِلافُ والحِقْدُ من الطالب، بحيث لا يوافق، على أنه لم نحسب حسابَ ما جَرَى، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨) وكان زمانًا لم نحسب فيه حسابَ خَيْر خرَجَ منه مثقالُ ذرَّةٍ، ولا قِسْنا على شيء من الشرِّ إلا ولم نبلغ مِعْشَارَ ما يكون منه، بل يدهى منه أمَرُّهُ وأفظَعُهُ.

ولقد قال المُطالِبون: إنَّ أمير المسلمين كان أحَقَّ بها، وإنما فَعَلْنا ذلك فرارًا منه، وهذا من المُحَال أن يكون أحَدٌ يتبعَّد الشَّرَفَ، ويُدْعَى إلى ما فيه حَيَاتُهُ، فيأباهُ! ولو أنَّني أشعر بشيء من ذلك، ونَرَى أنَّ المَذْهَبَ في هذا، لكنتُ أشدَّ الناس اغتباطًا بالأمر، وإليه مُسارَعةً، وعليه حرصًا.

ولم يكن مَنْ ألَحَّ في ذلك أكثر من المُعْتَصِم - رحمه الله - فبادَرْتُ إلى ما تقدَّم ذِكْرُه، خَوفًا من كلِّ ما ذكَرْناهُ، وإنه، لمَّا تواتَرَت على أمير المسلمين هذه الأنباءُ، وصُوِّرَتْ عنده على غير ما هي، عَمِلَتْ في نفسه.

وانقطع رَجاءُ مؤمَّل بِلَوْشة من أن يجيبَه سلطانٌ من الأندلس، وعند ذلك، خاطَبَ أميرَ المسلمين، فلم يَصِل الخطاب، وهَيَّأ العسكر إليها مع نعمان، حتَّى انقضى خَبرُها، على ما وَصَفْناهُ.

٦٨- تدخل عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد:

واعْتَقَدَ المُعْتَمِدُ دُخولَ النصارى بَلَده ومُحاشاتَهم لِجهَاتى، مع ما كان فى نفسه من أمر مُرْسِيَة، فإنَّ ابن رَشِيق قال لى مشافَهةً، ونحنُ على لِيِّط: «أُريدُ أَن أكون صَنِيعك وأدخُلَ فى جُملتك» وقال لى رَسُولُه بعد ثقافه: «لو أنك تقبل مَنْ تخلف فيها، لأقامَ الخُطْبَةَ باسمك، وكانت فى طَاعَتك! تَجِدُهُ ويجِدُك! فأَبَيْتُ هذا القول جُمْلةً، وقلتُ فى نفسى: «هذه نَصْبَةٌ لم يكَدْ أصحابُنا يتخلصون منها إلاَّ بَعْد المرام الشديد والكدِّ العظيم! رُدَّ منهم هذه المشقَّات! فلا يعترِضها هذا الوَقت إلا جاهِلٌ بالزَّمان! وليت لو سَلِمْنا من هذا كلِّه! وإنه مَنْ أَمَّلَ أن يُبقى بَلَده، فقد شرِهَ إلى كثير، فكيف لفُضُول العَمَل الذى كنتُ أَرَى وأُمَيِّزُ؟.

ولمّا قامت علينا اليُسَّانَة، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، كان ابن الأحْمَر يُداخلُها، ويَعِدُهم ويامُرُهم بالتثَبُّت، حتَّى تبدو إليهم الأحوال، وَيَبْلُغُنى من ذلك ما يُقْلِقُ، فأَردتُّ بعض المكافأة على ذلك، وأن نُوَجِّهَ إلى مُرْسِيَة مَن يعقد ما ابتدأنى به رَسولُهم ابنُ يكُّون، المُتصَرِّف فى خِدْمَتِهِم، ويقول لهم أن يُبَيِّنوا كيف يريدون مُحاولة هذا الأمر: إن أرادوا القيام بدعوتنا لمُلِمَّة متى كانت، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا، وما فائدةُ ذلك وثمرته فيما نَشْتَرِط نحن به؟.

ولمّا توجَّه مِن ثقاتنا لذلك مَنْ أنْفَذْناهُ، اعْتقَدَها المُعْتَمِدُ فى نفسه، على أنَّنا لم نكنْ نغرم على ذلك أبدًا أكثر من طلب التَّعلاَّت عليه آخرَ ذلك بأن نسمع منه ما لا يوافق، فينتقض العمَل بسَبَبه، أو تُوقَف الحالُ إلى أمد مّا، كالذى يَقَعُ بين الملوك من المُداخلات والأعمال: فمنْها ما لا يتمُّ، أو يتمادَى إلى حين.

٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة من قِبَلِ عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها:

وإنَّ أمير المسلمين، لما أتى سَبتَةَ، وهو قد أحشد وأعدَّ، قاصِداً إلى جهتَنا، لا يريدُ غَيْرها، أرْسَلْنا إليه رُسُلاً مقدَّمةً، بعد عِتاب كبير جرى بيننا وبَيْن المُعْتمِد على خبر مرسِيَة، لم يَرِدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه.

وحانَ وصول أمير المسلمين إلى سبتة، وقدم رُسُلُنا عليه، وهم: ابنُ سَهْل القاضى، المتقدِّمُ ذِكره، المُسْتَعْمَلُ للعملة الموصوفة، وباديسُ بن وَاروِى من تَلكاتَة، يهنُّونه على سلامته ويتلَقَوْن بالرَّحب قدومَه ومُسارَعَتَنا إلى ما يذهب إليه فى جهادِه، وما أشبه ذلك.

فانصرف الرسولان المذكوران، يعلمانى أن أمير المسلمين قابِلٌ لكلِّ ما ذَكرْناه، قد أعْرَضَ عليهما من الجميل ولطيف القول ما لا شك فى مَحَبته، فسرَّنا ذلك، وكان فيما قال لهم: «يصنع ما شاء! لستُ ممن يكلِّف أحَدًا إلا طاقَتَهُ!» فكان ذلك منه دهاءً وحِذْقًا، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ، من قِبَل ابن سَهْل بالمُخاطبة وغَيْرِه، أن نفارَنا عنه إنما كان من خشونة الكتْبة الواردة من عنده، وأن المُدارةَ بالقول أوْلَى، حتى يُظْهِر ما شاءَ ويمهِّد لعَمَله بذلك.

وإنَّ ابن سَهْل، لما رأى من خِلاف الجُنْد، واطلع عليه من أنفُس أهل البَلَد ما اطلع، قدَّم لنفسه، ورأى ألا يُخلِّى من عَمَل يقَرِّبه فيمن تقرَّب، وأعلَمه أنَّ البلدة ليس عليه فيها مُختلف، ونفث ذلك باديسَ المذكورَ، وصحَّ عندى وقتَ انصرافها أنَّ ابنَ وَاروِى قال: «أرْسَلْنا للخِدْمة له فى زعمه، ولم نَصْنَعْ غير أنِّى كتَّفْتُه، والقاضى ضرب عُنُقَه!» إلى أن وصل أمير المسلمين قُرْطُبة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٦- استسلامه للسلطان المرابطي، سجنه، إخراجه من الاندلس ونفيه

٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه:

[وعند وصوله قُرْطُبة] اجتمع [أمير المسلمين] بالمُعْتَمِد، وسأله عمَّا لَهِجَ الناسُ به من مُداخلة الرومى، فشهد بذلك، للذى كان فى نفسه من كلّ ما وصفناه، وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابًا يقول فيه: «اقبَلْ إلينا، ولا تتأخَّر ساعةً واحِدةً!».

فرابَنى ذلك، وهو موضعُ الانقِباض، لِمَا تقدَّم من الطلَب، وأنَّ بمَحْضَره جميعُ أعدائنا، وإلْحاحُهُ علينا فى الوصول، واعتذرْتُ إليه بتَوْجِيه رُسُل: أحَدُهما ولَدُ حَجَّاج، والآخر ابنُ ما شاءَ الله، فساعةَ وصولِهما، قَرَّعَهُما بكلِّ ما نُقِل إليه، وأمر بثقافهما فى الحديد على المقام، وقال لهما: «بالله! إنِّى غَزَوْتُه كما نَغْزو ألفُونْشَ! والذى يقدر عليه، فَلْيَصْنَع!» وأتانى بعضُ الفُرْسان الناهضين مع الرُّسل على أسوإ حالة، مضروبين ملهوفين، أَطْلَقَهم قَرُورٌ ليُعْلِمونى بالقِصّة، ويقول: «بالله! أنْ أطْلَقَهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمَّلٌ وأصحابُه!» فدهمنى من هذا الأمر ما لا مَرْفع فيه ولا حيلة، ولا ظَنَنْتُه أن يجرى على هذه الرتبة.

وأرْسَلَ على المقام كُتُبًا إلى اليُسَّانة - فأوّل ما طاعَتْ له - وإلى جميع حصون الغَرْب، على يدى نُعْمان المذكور، الساعى فى مُداخَلَتها قديمًا، وكان من كُتُبه إليهم: «أمّا بَعْدُ، فقد ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) إن لم تُطَوِّعونا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩) وإنَّ خِطابَه لم يردْ على معقل منها إلاَّ وألقَى بيدِه، وقام أهْلُه على إخراج قائدهم، حتَّى تناثَرَت المَعَاقِلُ كلُّها كانْتِثار العقْد، إلى أن وصل الأمير إلى بَلِيلُّش، ومن امتنَعَ منها، قاتَلَتْهُ الرعيَّةُ معهم، حتَّى يلقى بيده.

فلم نَدْرِ ما نصنع «واتَّسع الخَرْقُ على الراقِع» وقلتُ: «لا طاقة لى بجميع أهل البلاد، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة! فَبِمَنْ نُمَسِّك الحَضْرة؟ ليس فيها خلقٌ من غير جِنْسٍ ممَّن كان فى المَعَاقِل «ولا يتمكن للخِباء أن يَقفَ دونَ أوتاد!» ولا فى الأمر من مُداراة ولا حيلة مع الرَّجُلِ أكْثَر من رَغْبته فى خَلْعنا! ولا ثَمَّ غَيْرُهُ يُسْنَد إليه، فَنَسْتَرِيحَ فيه من هذه الداهية العُظْمَى والطامَّة الكبرَى! ولا فى المُمْكِن أن نَوَجِّهَ إلى الرومىِّ، فيكون ذلك فساداً فى الدين، واستعجالا للمكْرُوه؟ وإن شعر بذلك أهْلُ حَضْرَتنا، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنا قبل المُرابطين! ما دام السترُ بَيْنَنا وَبَيْنهم، فيكشفون لنا القِناع على بصيرة!» فما عَهِدْنا أيَّامًا وليالى كانت أفْجَعَ لقلوبنا، وأدْهَى لنفوسنا من تلك الأيام.

٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة:

وقدَّم أمير المسلمين عسكَرًا إلى غرناطة، ما دامَ مُحاوَلَتُهُ للحصون، يحرسونها من دخول عَسْكَر بَرَّانِى، إلى أن يَرِدَ عليها بنفسه، وأرسل القوَّادُ إلينا أن نُبيحَ لهم القُوت والعلف بالمدينة، فأجَبْناهم، لئلا يَقَع مِنَّا شىءٌ من الخِلاف، يتسبَّبُ به إلى ما هو أكْثَرُ.

وأرسلتُ آخَرين من الفُقَهاء إلى أمير المسلمين بمال، ويُعْلِمونه أنِّى ابْنُهُ،

وغيـرُ مُخالفٍ عليـه، والطاعةُ منّا له على مرغـوبه، دون أن يحوج إلى هذا التعب كلِّه، فأرسل إلينا الفقيهَ ابنَ سَعْـدُون، يقولُ لنا: «لا طاعة ولا صُلْحَ إلا بالخروج إليـه! وهذا أمانه: كتـابٌ بخطِّ يَدِه، يتضـمَّن الأمان فى النفس والأهل دون المـال» فأيْقَنْتُ بالغَـرَض، وكان فى آخـر كتـابه لنا: «إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا، فتَخَيَّرْ من بلادكَ مَـوْضِعًا تصيرُ فيه، ولْتكُنْ غير غَرْنَاطة، لنَرى فيها رأيَنا! عُدَّةٌ فاترةٌ لا تَتِمُّ!».

فـرويْتُ هذا الأمر، وعَلِمْتُ أنّى بحـال ومكان لا اخـتيـارَ لى فيـه، وأن المَذْهب فىَّ إلاَّ إلىَ مَعْقلاً، وأنه لا مَهرَبَ من بين يديه، فقُلْتُ: «من السَّخْف يكون أن أقولَ: «قد اخترْتُ مَوضِعَ كذا!» فإن كان لها كارِهًا، لم ألبَث أن أُردَّ منه بتعلُّل وحُجَّة للقوىِّ على الضعيف! وإن كان فى نفسه العِوَضُ، فبِخُروجى إليه يُرْبَى ما يَعْتَقِدُهُ من إحسان، ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه، فإن كان قد أجمل وقبل، فَلهُ الفَضْلُ، وعلىَّ الشكرُ آخرَ الدَّهر، وإن كان قد غدر، كُنَّا واثقِين بالقَدَر، وأبْلَيْنا عند الله وعند الناس العُذْرَ!».

٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة:

ولما التَفَتْنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرَكاتِهم، اطلَعْنا على أُمورٍ دليلةٍ على الانتقـال، مؤذنة بالزوال، وقسَّـمناهم أصنافًا على القيـاس والرتبة، مع المُعـايَنة لما عَمِىَ قَـبْلُ، وإظهارِ ما خَـفِىَ، إذ لا حَرَج ولا هيبـة ولا صَوْلة تتقَى، أمَّـا الجُنْدُ من البَرْبر، فكانوا مُغْـتبِطين بهم، طامـعين فى الزِّيادة على أيديهم للجِنْسية، واتفق رأيُهم على ألا يلقوه بحَجَرٍ، وقدَّموا كُتُبَهم بالطاعة، وراجَعَهم عليهـا، يَعِدُهم بأن يُبْقيهم فى أماكِنِهم على أفـضل ما كانوا عليه، فمـن كان منهم بالمـدينة الفوقىَ، تقلَّـعَ إلى السُّفْلَى بأهله ومـاله، وبقى هو

بنسْمَتـه مُنْفرداً متأهبًا للشـرِّ، إمَّا بالخروج إليه من الطاعـة، أو بإسلامنا إليه والتبرُّؤ منا.

ومن كان من التجار وأهل البلد، فكانوا على نيَّة أنهم مع مَنْ سَبَقَ، ولا طاقـةَ لهم بالحرب، ولا هُمْ أهْلُـهُ، وأكْثـرُهم خرج من البلدة يقـول: «لأىِّ وَجْه تحتمل الحِصار؟ تاجِرٌ هُنا وصانعٌ كما فى غَيْرِها!» وأمّا الرعيَّة، فبَخٍ بَخٍ ذلك ما كـانت تبغى، طمـعًا منها فى الحُـرِّية، وأنها لا يُلْزِمـها غيـر الزكاة والعُشْر.

وأمّا الرَّقَّاصة من المَغَارِبة، الذين كـانوا عِماد الحضرة، وبهم كُنَّا نُمْسك الحصون، فَـهمْ أول من طاع، وأعين مَنْ بالحضرة إليـهم يقولون: «ما الذى خـالفَ بنا عن صِنيع بـنى عمِّـنا؟» فلم نَجِـدْ فى صِنْفٍ منهـا راحـةً يُرْجَى معونتُها!.

وأمّا العَبـيد والصقَالبـة، فالعبيـدُ الأعْلاجُ، أوَّلُ من عصا، كـما ذَكرنا، بلَوْشـة، رَجَوْا أن يكونوا عـنده فى أعْلَى مرتبـة، ولم يفكروا فى عـاقِبـةٍ أن يخطئـوا عنده، فيقـول: «ما نصـحوا مـولاهم رَبَّ الإحسان إليـهم! فكيف غيرُه؟» إلا أنَّ كل واحـد بشَهْوَته بين عينَيْـه، للذى شاءَه الله ـ لا راد لأمـرِه ولا مُعَقِّب لحُكمه!.

حتَّى الـخَدَم من النسـاءِ والخِصْيـان: كلٌّ طامعٌ فى إقـبال الدُّنيا عـليه، والخروجِ عن ثقاف القصر إلى راحة التسريح، والاستهتارِ بالرجال، وما أشبه ذلك، فجَـعْفـرٌ الخصىُّ منهم ولَبـيبٌ كانا زَعـيمَى المُداخَلـة ورأسَ الفتك، يقولان: «نحن لا وَلَد لنا ولا تَلْـد! فعـلى أىِّ شـىء نـصبـر عـلى القتـال؟ وما عَسَى نطْمَع أن نَصِيرَ إليه: هل يجمل بنا سلطنة أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فِقْهٌ؟

إنّما نحن بمنزلة العيال: من سَبَقَ استَمْتَعَ بنا، وكُنَّا عنده من جملة الفَيءِ، نَرْزُق كسائر الكَسْب، فلا نضيعَ! تعالوا بنا! نُقَدِّم لأنْفُسنا!» فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين بالإنزالات القويَّة، والمثاقيل، والمَراتب العالية، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامِهم لنا، حتى اتفقت من كلِّ جهة.

٧٣- لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم:

ولما اتَّسَقَ له ما أَمَّلَ، وعَلِمَ بما معه فى البلدة، بعد تَقْدِمة عَسكَرِه، كما ذَكَرنا، إلى فَحْص غَرْناطة، وكان أَهلُ البلد يتقلَّعون من المدينة إلى البادية، ويخرجون منها أفواجًا، رأينا إمارة الشرِّ وعلامة السوءِ، فإذا بأمير المسلمين فى أَثَر ذلك العسكر مُقْبِلاً إلى الحضرة، فهاج الناسُ وجزعوا، واتَّفَقَ رأيى، مع مَنْ نصحنى، أنّ الخروجَ إليه أَوْلَى، والتزامى عليه أنجأُ من هذه النار الموقَدة، فلعَلَّهُ، إذا رأى براءتنا مما نقله العدوُّ، ولم يَجِدْ فى المدينة نصارى كما قيل، فلا بُدَّ له من وَجْهَيْن: إمَّا صَرْفُنا إلى أوْطاننا، وإمَّا إخْراجُنا، فَلَنْ نعدم جميلاً، إذ لم نُهِجْ عليه حَرْبًا، ولا أتْعَبْناهُ فى أمرٍ.

وكَمْ عَسَا العَيْشُ فى هذه الدُّنْيا والنجاة بالنفس فى دار الدُّنْيا وتخليصُها من الأوزار فى الآخرة، لا يُبالِغ ذلك شيءٌ ولا يعدله! فاستَعْمَلْنا العَقْل الذى جعله الله أميراً على كلِّ شيء، وكلُّ قُوَّةٍ لا يتأنّيها العَقْلُ ضُعْفٌ وسُكْرٌ، مع سوءِ العاقبة، ولا سيَّما أنّنا بحال لا بُدّ من إسخاط الرُّوم بإرْضاء المسلمين، أو إسخاط المسلمين بإرضاءِ الرُّوم! فالآن يَرِثُها المسلمون أوْلَى وأجْمَل للعاقبة، إذ هى نُشْبَةٌ لا مَلْجأ منها إلاَّ بما ذكرنا.

اللَّهُمَّ إنه لو امتَسكْنا فيها بنفقة الأموال، ولا يمكن استِبْدادٌ دون انتظار قوَّةٍ من النصارى، ثُمَّ أتَى الرومىُّ، فينحاش عَسْكَرُ المسلمين إلى الجزيرة أو

إلى قُرطبة، مـرتقبًا لما يكون منه، فيـقول لى الرُّومىُّ: «قد أقلَعْتُ عنك من أرادَكَ هاتِ من الأموال ما نستَـحِقُّ من المكافأة!» فلو قلتُ له: «اترُك عَسْكرًا معى، وابقَ أنتَ لئلاّ يُعاوِدَنا!» ما كان يفعل، ويخشى على عسكره البوارَ بين أهل البلدة والعسكر الخارج، ولو انصرف دون أن يترك قـوة، فساعة انصرافه وإقبال المُـرابطين، لم تَرْتَـفِدْ لهم ساعةٌ، وينقطع الرجاء عن مـعونة أخرى: فهناك النكال الأكبر، وصَحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة.

ولو أن عند إقـبال الرُّومىِّ، يقـول لنا: «إن كنت تـتقى من المـرابطـين، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم، فتخل لنا عنها، وتصير إلى كل ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحَشَمك وذخـائرك، كالذى صنعت بحفيد ابن ذى النون، إذ عاوَضتُه بلـنسيةَ، وإلا، فلا استيطان لك عندنا، إذ لا تفـيدنا بالبلدة، وما يغنى خروجك إلينا وتركك لمـدينتِك مطيبةً للمُرابِطين، فـيدخل علينا الحزم منها» فلو أطعـنا، لارتَكَبْنا من الأوزار والخروج عن الدين ما بـلغنا الله عليه والناس أجمعون، وكُنَّا نـترك غرناطة حَبْسًا للرُّوم، يُضرُّون منهـا المسلمين، فلا دماء تسفَك منها، ولا داخلة تُدخَل إلا وكانت فى صَحَائِفنا، ولا خيْر فى أثرة الدُّنيا على الآخرة!.

ولو أن يتـربَّص المُـرابِط عـند إقبـال الرُّومىِّ، ولا ينـحاش له، كـمـا وَصفْنا، ويبنى على لقـائه، فلو التَقَت الفئتان، فـلا بُدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأُخـرَى، فلو أنها على الرُّومىِّ، ففـى إثر ذلك، لم يقدِّم على قَتْلنا شـيئًا بالحُـجة أننا أجْلَبْناه، ولو أن الرُّومىَّ يغلب، فنبـقى بعد ذلك فى المُلك ما شـاءَ الله، لم يطِبْ لنا مُلْك، ولاستحـينا من الله والناس أن يكون ذلك ببَوَارِ المسلمين وهلاكهم! ثمَّ إنه لا يصحُّ لنا ثبوتٌ معه، وأىُّ شىء كان

يحجره عنَّا، ولا شيء نرتجى به نزع أنْفُسَنا منه، ولا بمن ننتصر لو هَمَّ بأخْذِ الكلِّ.

كَيْفَما رَوَّيْتُ فى هذه الوجوه، لا خيْـرَ فيها لمن تَعَقَّبَ الأمر وتَدَبَّرَهُ، إلا ما صَنَعْناه مع حكمه الأقدار التى لا تجرى على إهمال! فخَرَجْنا إلى الرَّجُل، كأنَّمـا نُساق إلى الموت، لا نَدْرى ما نَلْقى، إلا كـالخاطِرِ بنفسه، مـتَوَكِّلين على القَدَر.

٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله:

ولمّا لقيناهُ، سُرَّ بذلك، وأقسم لنا على الأمان فى أنْفُسنا وأهْلنا، ولَنَا منه المُراعاة والكرامـة ما بَقِىَ، ثُمَّ أشار على قرُور بالترقـيب علينا، إلى أن يُثَبِّتَ خبرَنا، ويَقِفَ على أموالنا.

فانـتدب [قَـبْل ذلك] أهلُ دولتنا، يطلب كلُّ واحِـدٍ منهم أن نُودِعَ عنده شيئًـا، فلم نَفْعَلْ، وقلتُ فى نفسى: «هؤلاء يَطْلُبـون ما يتزوَّدُونَ به، وليس ذلك شفـقةً منهـم علىّ! وليس نُخْلِى من دفع ذلك إليهـم من وَجْهَيْـن: إمَّا فاسِقٌ يستأثر به دونى، فتكون حسرتُها فى نفسى، ولا نَقَيْتُ بها عن وجهى، وإمَّا مُـتَبَسِّل بُبْـعضِهِ، يحـمله إلى الأمير ليـتَهَنّى به ما يـبقى له، وعند ذلك نَفْتَضِح عنده، ولا يقبل لى صَرْفًا ولا عَدْلا، وربَّما يحنق علىَّ، فيؤَذِّينى بعد الأمان، مع حُبِّهم فى المال، وإنه لا شىءَ نرجو به بعد الله التَقَرُّبَ إليهم إلا بالأموال، ولو أمكننى أن أزيدَ فيـها، فتملأ أعْـيُنُهم! وأنا لا أبتغى إلا العيش لخاصَّـة نفسى وأهْلى، وقد خَفَّفَ الله عنِّـى بقِلةِ العيال، ولا خيـر فى الغَرَر بمال لا أدرى إن بَقِىَ مـعى، مع اختلاطِه وكـثرةِ شُبُهـاتِه، وكثرة المـال إنَّما

يحتاج للمَمْلكة والأجناد، فالآن قد أزاح الله ذلك عنى، ولم يَبْقَ إلا طَلَبُ السلامة بحُشاشة النفس، وهى غنيمةٌ فى مِثْل هذا الوقت الحادٌ!.

فخَرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القَصْر، ولا خَوْفَ عليه ذلك الوَقْتَ، إذ كان الناسُ بَيْن يأس وطمع فى الرجوع، فلا جرأة من أحد فى اعتراض شىء من ساقَتِنا، ولمَّا أُنْزِلتُ بتولِّى قَرُور للأمر، جعل الحرَص على الخِباء، وأمر بطَرْد الداخل والخارج، وحِيلَ بَيْننا وبين عبيدنا وصنائعنا: كلٌّ يفتِّش عليه ويُبْحَث على ما لَدَيْه من مال كسبه فى ولايَتِنا.

ثُمَّ أتانا الفقيهُ ابنُ سَعْدُون من عند أمير المسلمين، يقول: «أحضِر الأموال والأزِمَّة بها! فإن مُؤملاً قد أخبره أنه ليس عندهم درهم إلا بزمام وذِكْر» فقلتُ له: «نَعَم! كان ذلك، قد تَرَكْتُه فى دارى، فإن أباح لى المسيرَ بنفسى لاستخراج الكُلِّ، وإلا، فهذه أُمِّى، تتولَّى ذلك مع ثِقاته حتى لا يغادِرَكم منه خيط!».

وكان، عند خروجى، قد وقع فى نفسى من خوف الثقاف ما خشيتُ الفرقةَ منها إن تَرَكْتُها فى القَصْر، فخرجتُ معها، ولم ألتفت إلى ما سِوَاها، وأنا مع ذلك فى حيرة لا أدرى لما يصير أمرى، قد أُشرب قلبى من الخوف والجزع ما لم أعْهَدْهُ قطٌّ، ولا كان فيه عزاء، فإن الأمور التى ينبغى لها الاستثباتُ والصبرُ ما كان من أمر دون أمر، وإن جلَّ خَطْبٌ، يُرْجى فى غيره الراحة، وبعض الشرِّ أهوَنُ من بعض، وإنَّما هذه النصبة لم يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أمَل ورجاء ليُسْر، إلا بحيث يُحتَسَب، فأذْهَلَنى ذلك عن كلِّ ما لى فيه صلاحٌ من تَقْدِمَة النَّظَر فى مال أو غيره، بل، كانت نفسى آكَدَ

علىَّ، لم تعمل حساب مَنْ يعيش، لا سيَّما من لم تَجْر عليه قبل ذلك محنة، ولا أكربه الدهر برزيَّة، فجاءت جُمْلةً، أَبْهَتَتْ وخانت القياس، وحادَتْ عن سبيل المعهود.

وقد كان أرسل إلىَّ قَرُور يطلُب خطَّ يدى بإسلام المدينة وإخراج من لى فيها من الحَشَم، فبادرْتُ على المقام، إذ الالتواءُ عن ذلك ممَّا لا ينفع، ولو فعلتُ، لكان ذلك زيادة فى الهوان، ولم يَفِدْ شيئًا، وأنا قد حَصَلْتُ فى القبضة.

وكنتُ أخرَجْتُ مع نفسى أسبابًا منها سَفْطُ ذَهَبٍ فيه عشرة عُقود من أنفس الجَوْهَر، وذَهَبًا مَبْلَغهُ ستَّة عشر ألف دينار مُرابِطيّة، وخَوَاتِمَ، وتأوَّلْتُ فى إخراجها معى أن قُلْتُ: «إن كان الأمر يبدو من الأمير بثقاف، فهذه حاصِلةٌ لا تنفع، تُجْعَلْ كَسِوَاها، وإن لم يكن، وربَّما تأخَّرَ فى الأمر بعد قضاء غزوته، دارَيْتُ منها وأعْدَدتُها لِمَا ينوب على العَسْكَر ومُتاحفة المُرابِطين».

ولم يُترك لنا خادمٌ إلا حِيلَ بيننا وبَيْنها، وفُتِّش عليهم ألا تكُنْ فى أوْسَاطِهم خبيئةٌ، وجعل قَرُور يقول لى ولأُمِّى: «اكشفا لى عن ثيابكما، فقد أُخْبِرَ السلطانُ أن خيرةَ الجَوْهَر على أوْسَاطِكُما» فتَبرأنا له عن ذلك، ونزعتُ له عن الثياب، ثم جعل ينفض المخدات عن الصوف، ويفتش بينها، ويُقَلِّب التوابيت على وجوهها، ويحلُّ طى الثياب فَتْشًا لم يُعْهَد مِثْلُه قطُّ، ثم أمر بحفر الأرض التى عليها الخِباء، خَوْفًا من أن ندفن فيه شيئًا، وهو فى ذلك كلِّه يقول لى: «إن سلمتَ بروحك، فما فى الأرض أوْجَه منك».

وصار الكلُّ فيئًا من خادمٍ وغُلامٍ، ما خَلاَنى وأُمِّى، وكنت وقت خروجى قد أخرَجْتُ مع أُمِّى صَبِيَّةً طمعتُ أن أنجو بها، فلا يُوبَه لها، ألاَّ أنفرِدَ دون أحد من أهلى، لتكونَ لى عُدَّةً لما بَعْد ذلك، فأتى قَرُور، وألقى يَدَه فيها، وأخرَجَها، وفَتش ثيابَها على المقام، وتحمَّلها، ثمَّ أتى إلى أثاث الخِباء كلِّه وفتَّشَه ظاهرًا وباطنًا، فكلُّ ثوب أو حاجةٍ استَحْسَنها، أخَذها لنفسه، وكاد أن يُعَرِّينى من الكلِّ، وأصاب الدنانير المذكورة، فقال لى: «ما أردتَّ بإخراجها؟» قلتُ: «لأُتاحِفَ بها الأمير!» فهدَّدنى وأدخلنى تحت وَعِيد، ثم أمر بانتقالها عن المقام، وأخذ السَّفَطَ بما فيه من الجَوْهَر وَالخواتِم: هو من جِهةٍ، ورَبِيبُهُ من أُخرَى، وأنا فى هذا كلِّه لا أرجو شيئًا إلاَّ السلامة فى الروح، ولم نَشُكّ إلا أنه لا يكون بعد هذا إلا القتل.

ثمَّ إنه أمر والِدَتى بالطلوع إلى القَصْر لاستخراج الأموال، فتكدَّرْتُ لذلك أيَّامًا، ما منها يَوْم إلاَّ ونظُنُّ أنها لا ترجع إلىَّ، حتى دَفَعَتْ إليهم الكُلَّ بالأزِمَّة، لم يُغادِرْهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ، حتى أن الحاجة اليسيرة ربَّما كانت عندى فى الخِباء، فيُشَدِّدُ فيها على الوالدة، فتأتى عنها وتحملها إليهم.

ولم يَتَبَيَّنْ لى خِلاَفُ أهل بَلَدى، إلاَّ والأمْرُ قد فات، من النظَر فى الزمامِ أو غَيْرِه، ولم يتقدَّمْنى أحَدٌ إلى مِثْل هذا، فنأخُذَ حِذْرى ونتأهبَ له، ولم يكن إلا ما شاء اللهُ، إذا أعطى، فلا مانِع، كما أنه لا يتهيَّأُ، مع ما سُلِبَ وضاعَ، ثُبُوتٌ ولا بَقاءٌ، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء.

فلمَّا تَقَصَّوْا الجميعَ، وتبين الحقُّ، جاءَنى قَرُور بوصية السلطان، مع أبى بكر بن مُسكَّن، وهو فى ذلك على مُنْتَقِمٌ شانئٌ، وهو يقول لى: «الأميرُ

يُنهِى إليك أن لا يَبْقى لك عند أحد وَديعةٌ، وإنَّ ما فى قَصْرِك قد تنزَّلْتَ عنه بالأزِمّةِ، وما فى خِبائك قد صار إلينا وفتشْنَاهُ، وبَقِىَ لنا أن ندرى مالَكَ مودُوعًا، وإذًا، لا عَهْد بَيْننا وبَيْنك، إن خُرِّج قِبَلك دِرْهَمُ عند أحد، ولا تكون عقبَاك فى ذلك إلا أن يجعلك فى الصَّحْراء بحيث لا تربح ذلك المال، ويبقى عند من أَوْدَعتهُ» فرجعت إلى نفسى أن نعلم لها عند أحد درهمًا وديعة، فلم أجِد، وأقسمت له على حق.

ورجعتُ إلى الوالِدة، أعِظُها، وأقول لها: «أسألُك بالله! ألاَّ ما أشْفَقْتِ علىّ؟ فربُما قد أخرجْتُنَّ شيئًا لا أعْلَمهُ، فيظهر بعدى، ويكون فيه هلاكى، وهلاكك والدُّنيا أقلُّ من هذا كلِّه! والقومُ، كما تَرَيْنَ، متعلَّقون بشعرةٍ، يطلقون معنا أرَق سَبَبٍ! فإياك أن تشمتى بى! وإذا تبرأنا له، لا يمكن له تَضْيِيعُنا، وليس يُدَّخَرُ المال إلاَّ لثلاث: سلطان يجور، أو فِتْنةٌ تدوم، أو عُمْرٌ يطول، ونحن فى نفرٍ يسير!».

فلما سَمِعَتْ ذلك، بكَت وقالت: «نخشى أن نبقى فُقَراءَ! والموتُ أَهْوَنُ من الفَقْر!» فسَهَّلْتُ عليها الأمر، وقالت: «إن الله لا يُضيع مَنْ خلَقَ!» فكتبت تسميةً بما أوْدَعَتْ من مَتاعِها، تلك الليلةَ التى حان خروجى فى غَدِها: ذَكَرَتْ أن لها عند لَذَّة خادِمِ ابن أبى خَيْثَمَة كاتبنا سُبَيْبات لبعض جواريها، ولها عند ابن الزَّيتُونىِّ القَرَوىِّ أربعة آلاف مِثْقال، وحَلْيًا أرْسَلَتْ فيه على المقام: نحو خمسة عشر عِقْدًا، فأما الحلى، فأتاها وأعطته لقرور، ولم تؤخِّر به ساعة، وأما الذهب، فإنها، لما جلبَتْه من ابن الزيتونىِّ، بادَرَ به إلى السلطان وتحمله لنفسه وكذلك فَعَلَتْ خادِمُ ابن أبى خَيْثَمَة، وأتت إلى قَرُور

بتلك الأسباب، فوقع إلينا الخبرُ، وزادنا ذلك همّا أن بدروا به للشرط الذى اشترط علينا، فأخذتُ على المقام تلك التَّسْمِيَةَ، وأرسلتُها إلى قَرُور، قبل أن يبدأ بنا، فقال: «قد أخرجوه لنا، فإياكم أن يبقى لكم شىء عند غيرهم!» فاستَفهمتُ والدَتى ثانيةً، وبَكيتُ لها، فقالت: «ما لى شىء عند أحد أكثر!» فأخذنا المَصاحِفَ، وحَلَفْنا فيها لقَرُور أنه ما لنا شىء أكْثَرُ، لا مُوْدَعٌ ولا مَرْفُوعٌ» فأعلم السلطانَ بما أقسَمْنا به، وجعل مع هذا يبحث ويَسْتَقصَى، فما وَجَد لنا أكثَرَ كما قالت الوالِدة.

ولمّا لم يجد شيئًا، أتانا قَرُور ثانية، وقال: «إنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثرَ، ولكن إياك أن يكون لكم مالٌ مدفونٌ!» فقُلْتُ: «ما عَلِمْنا قطُّ بدَفْنٍ، ولا حسبنا هذا الحساب، ولا كان الدَّفْنُ شأننا! وغَيْرُ مُتَعَذِّرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله، حتَّى يَرَى!» فقال لى: «إياك بالمُنكَّب!» فقلت: «ما لى بالمُنكب إلا شىء من الأثاث عَدَّدْتُه لنزولى فيها: جميع ذلك بزمام بخطِّ يدى، يُرْسِل فيه الأمير ويأخذُ به!» فقال لى: «هات خطَّ يَدَك بإخلاء المُنكَّب!» فبادرتُ على المقام، وأصاب الزِّمام بالمُنكب على الصِّفة التى وَصَفْتُ وكان الجُنْدُ بها قد تَرَبَّصُوا، وقامت الرعيَّة، فطلب خطَّ يدى بالإخلاء.

ولمّا صحَّ عنده براءتُنا من جميع الأشياء أتانا قَرُور لتحصيل ما بقى، والعَجَبُ منه فى تلك المُدة أنه أتانى بسفر كبير، وقال لى: «اقرأه! فإن فيه جميع الأعلام التى رأى الناسُ لنا بِمُلْك الأندلُس، وفيه عباراتُها!» ولا أدرى ما أقرأُ [ولا أسمع] أكثر من قوله لى بهذا اللفظ: «ليس كذا هو؟ فجبيتَ

الأموال، لا [بقى لك] منها شىء!» ولما وقف على جميع ما فى الخباء من وطاء وثياب، رفع بذلك كتابًا إلى الأمير، وأعاد الفَتْشَ، يَجِدْ غَيْر ما رآه أولا.

٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلمَّا خُبِر بما فى التسمية أنه لا غِنَى للإنسان عنه، سَوَّغَهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَم، أمرَ لنا بها، وأعَارَنا دَوَابَّ خمسةً لنقلان الأثاث كلِّه، وأمَرَنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء، وقال: «تَنْتَظروا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم» وأعطانا من المُرابِطين مُشَيِّعين مَنْ يُؤنِسُنا ويتكَفَّل أُمورَنا، فشكرنا له ذلك، وتحرَّكْنا على المقام، إذ كان الحفزُ منه فى ذلك شديدًا.

وكُنَّا طولَ طريقِنا جازعين، لا ندرى ما يذهب إليه بنا، ولا ما الإشارة فينا، وقد كنتُ أرى المُرابِطين ينزلون بَمَنْزِلٍ، أو يَحتَلُّون فى موضعٍ، فأقول: «إن ذلك لشىء أُمِرُوا به!» فكنتُ طريقى ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ، أَسْأَلُ الله أن يُكفِّرَ بها السيئَات، ويجعلَها آخرَ مصايبنا بعزَّته، إلى أن وَصَلْنا الجزيرة.

فأُرْسِلْنا إلى سَبْتة، ودَخَلْنا البَحْرَ فى يومٍ عاصفٍ، أَدْرَكَتْنا فيه أهوالٌ لم نَكَدْ نسلم منها إلاَّ بالأجَل الذى لم يحضر، حتى خَرَجْنا إلى سَبْتة، بعد أن قيل لنا: «فيها تنتظروا الأمير!» كما قيل عن الجزيرة، فزادَنا ذلك قَلَقًا.

ثُمَّ نُقِلْنا إلى مكْناسة الزَّيْتُون[1]، وتَلَقَّانا الأميرُ سِيرُ، وأَنَّسَنا، وأخْبَرَنا أن مُقامَنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلُس، وأرْسَلَ إلينا مائةَ دينار، وعند

(١) **مكناسة الزيتون**: مدينة فى المغرب من نظر فارس إلى جهة المغرب، وهى أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون، الممدَّن منها يسمى تاجرارات، وتفسيره المحلة، وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة، وهى مدينة جليلة فيها الأسواق الحفيلة (الروض المعطار).

حُلولِنا بهـا، أيقَنَّا بالمُقام فـيها، وبقـينا على تلك الحال، قـد فُقد مـا كان بأيدينا، وأحوَجْنا إلى بيع ثيابنا التى تُرِكتْ بنا بعد أن استَـحْوذ قَرورٌ وحاشِيَتُه على أكثرها (فكلُّ يَدٍ وما انْهَبت!) لم يتركوا لنا إلاَّ ما لا نَظَرَ له على نزارة ما أَبْقىَ، والسلطانُ ـ أيَّدَهُ الله! ـ غافِلٌ عن ذلك، لم يكن الشكوى إليه، إذ كان قَرورٌ واسِطةً، وما كنت أتشقَّى من ذلك أكْثَرَ.

ومن أعْجَب الأشيـاء أنَّه، عند حلولى بمكناسة [كـتب إلىَّ] يقـول لى: «أخبِرنى عن الخـاتم الذى خَرَجْتَ به!» [وقـد كنتُ] أخْرَجْتُـه من إصبعى وبْعْتُهُ بعشـرة دنانير، فراجَعْتُه نعلمه بحاجـتى إلى ثَمَنه، وإنَّما أراد أخْذَه لئلا يُبْقى لنا شيئًا، ويتقصَّى الجميع، وعَلِمَ أنَّه لم يَبْقَ لى غَيْرُه.

ثمَّ إنَّه وافـانى من عند السلطان ثلاثمـائة دينار أُخـرَى، وأنا بِمكْنَاسَـة، وخاطَـبَنى بكتاب يَعِـدُنى بكلِّ جمـيل، ويقول لى: «لا أنْسَـاكَ ما بقـيتُ!» فسرَّنى ذلك ـ أحْسَنَ الله جَزاءَهُ! ـ فلقد كان أرْفَقَ بى بَعْدَ الله! من كلِّ أحَدٍ، وأعْلَمَنى أنَّه، إذا وَرَدَ مَرُّوكُش، أكونُ معه حـيثُ ما كان، إكرامًا لنا وإيثارًا، فعَلِمْتُ أنِّى منتقلٌ عن مِكْناسة، إلاَّ أن الروعَ كـان أفْتَرَ، إذ لم يكن أن تُؤَخَّرَ العقوبة إلى ذلك الأمـد، وقَرُورٌ، مع هذا، لا يَدَعُ طَلَبى عند السلطان، على إحسانى إليه، جِبِلَّةً قد جبله الله على بُغـضى، مع قلَّةِ رحمتِه، وقساوةِ قلبِه، ودناءته ولَوْمِه.

٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله نفيه:

وبَلَغَنا فى طريقنا ذلك ما كان من ثقاف أخينا تميم بعدنا، وأنَّه، لمَّا كان فى مدَّة كوننا بغـرناطة لإخراج الأموال، ونحن على تلك الحال مُـرَقَّبين فى

الخباء، كان تميم المذكور يزورنا، ويتكدر علينا للذى يلزم من حُبِّ القرابة وصلة الرَّحِم، وكان قَرُورٌ، فى هذا كلِّه، يرمقه ببَصَره، ويعتقد فى نفسه لذلك شرًّا، وصوَّر عند السلطان أن مالا أخرجناهُ مِنَ المالِ مَوْدُوعٌ عنده، ليسلم لنا بسَلامَتِهِ، مع ما زِيدَ فيه من الطَّلب، أن قيلَ للسلطان: «ثقفتَ صاحبَ غرناطة، وأخوهُ منه! وإن تركْتَه ينصرف إلى بلده، طلَبَك بالثار، وأفْسَدَ عليك ما ترجو صلاحه، مع شرَّته وحدَّته! فهو بذلك مَرْسُومٌ مَعروف! فعاجل بثقافه، يصفى لك ما تؤمِّل!».

وكان قبل ذلك، على ما أعلمنى أخى المذكور، قد أنَّسَهُ السلطان، ووَعَدَهُ بصَرْف بلاده إليه التى صارت إلىَّ، وقال له: «لَسْتَ من أخيك [بالمسئول، وأنتَ أظهرتُ لى] الطاعة، وأجملتَ المُعاشَرة، وإنَّك أوَّلُ مَنْ ضرَبَ الدَّرَاهم [المُرابِطيَّة] والآن تستحمد عاقِبةَ رأيك، ونجعل لك بتلك المَزِيّة على أقرانك!» فطمع الصبىُّ بذلك، وشرِهَ إليه: كلُّ ذلك خِذلانٌ [اغترَّ به] ملوك الأندلُس، وأسعد من أجْله المُرابِطون، فعميَت البصائر، وقويَت الشهوات، وامتدَّت الآمال بَحَيثُ يَنبَغى لها أن تقصر.

فلمَّا هَمَّ به، أُخِذَ فُجاءةً لئلا يشعر، فيغيب المال الذى اتُّهِمَ به، ويَفِرَّ، ونال من قَرُور هوانًا كثيرًا، ولم يترُك له سَقْطًا، وبيعت أسبابُه فى موضع مَحلَّته، قِيمَ لها ثَمَّ سُوقٌ، وأُلْقى فى الحَديد، وأُمِرَ به إلى السُّوس[1]، ولما كان طَرِيقُه على مِكْناسة، لَقَيْناهُ، فأخبَرَ بهَوْل ما قاسى، وبَصُرْنا به، وهو على تلك الحال قد شقى بالكَبْل لعِظمِه، لا يقدر أن يتحرَّك به، فأوجب

(١) فى أقصى بلاد المغرب، وهى مدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خير وفضل، وأهلها أخلاط، وهذا السوس الغربى قرى وعمارات كثيرة متصلة بعضها ببعض (الروض المعطار).

ذلك ما وُسِمَ به من الشرِّ، وأنَّ أهْلَ مـالَقة رفعوا إليه حـينئذ أفعالاً قبـيحةً، وأبَاذِى سيِّـئَـةً أسداها إليهم، على ما ذُكِرَ، فاتَّفَقَت الأسبابُ، فلم يُرد الأميرُ أخذَه إلا ببيِّنةٍ، إلى أن وصل السُّوسَ، ووصَّى به أمـيرُ المسلمين إلى بَزْلَف، وبالَغَ فى إكرامـه، وكان معه فى عافـيةٍ ورَغدٍ من العيـش، وفوَّض أمْرَه إلى وُلاةِ السوس بعد بَزْلَف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الحادى عشر

عزل بقية ملوك الطوائف
ومصيرهم بعد ذلك

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة:

وحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوة، بعد أن أكْمَل ما شاءَه من أمر بنى عَبَّاد وصاحِب ألْمَرِيَّة:

ونَحنُ ذاكِرون منها ما بَلَغنا منها، مِمّا يقبله العقلُ، لا بتخليط الناس، ونختصر من الوصف ما يغنى عنه الإكثار: فإنها أمورٌ لم نُشاهدها، فنُخبَرَ عن يقين وإطناب، ولا غابت عنَّا كل الغياب، فنجهَل مَصْدَرَها ومواردها، أن الذى كنتُ فيه أشغلُ وأكرَبُ من التفات ما حدث بعدنا لقلة المبالاة بما لا يغنينا منها، ولشغلِ خواطرنا بما دَهينا به، على أنَّ ذكرَ ما سمعَ، ونحن قد أمنا من الموت، أيسر من ذكر ما عايناه، ونحن جازعون منه، فحقَّ لنا أن نذهل عن علم جليته بالمعاينة، وعن وصفه بعد الأمان، فإنه من ذكرَ الهولَ، فكأنه فيه.

وقد كان أمير المسلمين، قَبْلَ مجيئِه إلى غرناطة، قد وعد المعتمدَ بها، وقال له: «أنا رجلٌ مَغْرِبى، وليس قدَّمَنى أخذُ مالٍ ولا بلاد! وقد ترى، ما رُفع على صاحب غرناطة، ونتوقع عليها من الرومىٍّ، وليس غرضى أكثَرَ من تخليصها، فإذا صارت فى يدى، ولا يُمكنُنى إمساكُها لبينِ بلاد الأندلُس من العِدْوة، وضَعْتُها عند ذلك فى يَدِك: فتكونُ أعْلَمَ بما تَصْنَعُ بها، وأقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ المسلمين».

فلَمْ يشُكَّ المُعتمد أن ذلك منه كائنٌ، وَعَمِلَ حسابًا آخرَ أن قال فى نفسه: «إن لم يتهيَّأ له أخذُها بقعود صاحِبها عن الخروج إليه، فليْسَت مِمَّا

تؤخذُ من وفقة واحـدة! ستنجرُّ الحالُ من أجلها، وتشيخُ عليـها المَحلات، كمـا صُنِعَ بلِيِّـيط، وتدخل الشتـوة، فيـحتـاجُ إلى الانصراف، وتبـقى هذه المَعاقِل التى طاعت للأمير أكُونُ زعِيـمها، وفى خلال ما يتلوَّى أمْرُ غرناطة، احْتِيجَ إلىَّ، وكان لى بذلك الصولةُ على الفريقَيْن، ولا نُخْلَى من بَرَكَتِها!».

وكان الحـبيبُ إليـه أن تَبْقى على مـا ذَكَرناه، إذ لا يعلم، عند حـصوله عليهـا، ما تكون قَرْعَتُـه معه، كالذى كـان، وسكت عنِّى فى الأمْر، ولم يُرَ الانكشاف بسـرِّه إلى رَئيس يفشى عليه، غَيْـر رُموزات، إذ ذاك لا تنفع، ولو قال لى: «انْتَسِكْ!» فأنا أحْوَطُ على حـالى، أو: «اخرُجْ!» لم أُطِعْهُ ما تهمه، ولا يمكن أن يعطينى تَقْوِيَة، فيفتـضحَ عند المُرابِط، إنما كان صَنْعُ الأمير أن يَطَّلِع وَيَرَى، عسى يتهيَّأ له فى النصبة شىء، أو يَسْلَم من معرَّتِه، قد تنشّبَ، ولم يَجِدْ مَحِيصًا غير ما كان بسبيله.

وكذلك ابنُ الأفْطَس مـعه على تلك الحال، وَصاحِب ألمـريَّة فى ألمرية لم يتحرَّك: كلُّ أحَدٍ منهم إلى ما ينقض من أمْـرِ غرناطة، قد أبهتهم أمرُها، وأقلَقهم.

ولمَّا بصرتُ تألبَهم علىَّ مع الأمير، خاطَبْتُ كلَّ واحد منهم بكتاب أقولُ لهم: «هذا الأمـرُ مُنْجـرٌّ إليكم! واليـومَ بى وغَـدًا بكم!» فلم يمكنهم قـراءة الكتب دونَه، وعـرضوها عليـه، فَحَنَقَ[1] علىَّ، وكُـتِبَت الأجوبة بـإملائة، يقولون: «إنَّما تُريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن قـد برَّأنا الله منها!» وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب: فِعْلُ من قـد وَحِلَ، ولم يقدر على أكثَر ما قدمنا ذِكرَه، مع الطمع وعَمْىِ البصائر، كما وَصَفْنا قَبْل:

(١) تحرف فى المطبـوع إلى: «فخنق» بالخاء المـعجمة، ثانى الـحروف، وحَنِقَ عليه حَنَقًا: اشـتد غيظه.

وكان رُسُلهُم إليَّ قبلَ ذلك يحضُّونى على الامـتساك والتَجلُّد، وقال ابن الأفطَس: «أنا أعتـذِرُ عنه!» ولم يَرَوا كَتْب كتـابٍ خَوْفًا من أن يكون ظهـيراً عليـهم، غَيْرَ إهـذاء ذلك على الألْسِنَة، فعلمتُ أنهم قَـوْمٌ قد أسْلَمـونى إلى طاقَتى، فإن كانت لى، لم تَدْخُل عليهم داخلةٌ، وإن كانت علىَّ، لم يُفْسِدوا وجُوهَهم مع المُرابط، وحسْبُه اجتهادُهم معه بأنفُسهم ورجالهم.

فرأيـتُ حالى فى هذا كلِّه تالفـةً، وعَلِمْتُ أنه، طُولَ مدة امـتسـاكى لو امْتَسكْتُ، لكان سـلاطينُ الأندلُس أجمع متألبّين على فِتْنتى مـع رَعِيَّتى، لِمَا يلزمهم من الطاعة للمُرابِط والطمعِ، عسى يحْصُل لأحَدٍ مزيد فى بلاده، ولا تمكن لأحَد منهم مَـعُونتى ولا الاستـفسَاد من أجْلى، فنحْـنُ لم يُعِنْ بَعضُنا بعـضًا على الـرُّومىِّ! فكيفَ على المُـسْلِم، مع حَرْب الـكانون وقيـام أهل البيت! هذا مـا لا طاقة به لمن عقل! ولم نظنَّ نحن أن الأمْـرَ ينفتق إلى هذا كله، ولا نُعاجل هذه المُعاجَلة، ولو عَلِـمْنا ذلك، لم يكن أحدٌ يتقدمنى إلى الخروج إليـه، إذ ما سِـوَى ذلك على هذه الرتبة لا ينفـع، وإنَّما طَمَعْنـا بما قَصَصْناهُ قَبْلُ، وحَسْبُك!.

وإنه، لمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجْرَ على قـياس، خَرَجْنا إليه، ولم نَلْتَوِ ساعة.

٧٨- حركات المرابطين على ألمرية:

ولم يُقدِّم أميرُ المـسلمين شيئًا، وقت خروجى إليـه، على إرسال جيش إلى صاحب ألمـرية، قبل ابن عبَّاد، إذ كان بـتخلُّفِه مَوسومًـا بالنفاق، ولأنَّه مُعاقِدِى على ذلك، وأنَّ تَخَلُّفَه لا يكون إلا عن اتفاق.

فلم يُحَرِّك منهـا مَوضعًا إلا وأجـابَ، وتناثَرَت مَعاقلهُ أجـمع، حتى بلغ العسكرُ إلى باب ألمرية، وكـان الرَّجُلُ ـ رحمه الله ـ ساعَةَ ورود الخـبرَ عليه بخرُوجنا، انطبق له، واعـتلَّ لما رأى من هَوْله وسوء عـاقبته، وقـضى عليه وصول العـسكر إلى الباب، وهو على تلك الحـال، فأقرعَ لهـا وماتَ ووَلِيَ بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة، الناهِضُ إلى قلعة حمَّاد[1] على ما نَصِفُه بعد هٰذا.

وقد كان، لِمَا رأى من طَلَب [المُرابط لبلاده] قد وجَّه إليه ابنه الآخر، يَعِظُه ويُعلمه بوَجه الحقِّ فـيه، إذ كان ينْتَحِلُ فِقهًا، وذلـك مما ذَكَرْنا من قلَّة المَيْز بالأحوال، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتعلةً، ويطمع إطفاءها بالوعظ! فساعةَ وصوله، أمر الأمير بثقافـه على المقام فى الحديد، وتحيَّل أبوه فى انطلاقه، حتى انصرف إليه فارًا من المرابِط: اختلسَهُ من مَوْضِعه رَجُلٌ له شَبَّاك، قذف به فى البحر حتى سَلِمَ إلى والده.

وفتـر الطلَبُ على ألمرية للشـغل بما حدث بـأمر ابن عبَّـاد، وأنَّه أوكَد الأشياء، وإنَّ ابن صُمَادِح، لما حـضرته الوفاة، وصَّى ابنه هذا المستَخْلف، وقال له: «أمْتَسِكْ فى هذه القـصَبَة طولَ مقام ابن عبَّاد فى مُلْكه بإشْـبيلِيَة ما استَطَعْتَ! فـإن رأيتَ ابن عبَّـاد قد خرج، فـلا تتربَّص ساعـةً واحِدةً، وَانجُ بنفسك إلى القلعَـة، وادخل البَحْرَ بما قدرته عليـه من ذخائرك، إذ لا مَطْمَعَ لك فى البقاء بَعْدَه!».

فحفظ وصيَّة أبيـه، وساعةَ ما انقضى فى إشبيليَة مـا انقضى، تَخَيَّرَ قِطعةً أشْحَنَ فـيها جمـيع ما قدر عليـه من ذخائره، وكتم أمْـرَه، وخرج باسم أنَّه

(١) قلعة حماد ـ قلعة بنى حماد ـ من أكبر البـلاد قطرًا، وهى فى سند جبل سام صعب المرتقى، وقد استدار سورها بجميع الجبل (الروض المعطار).

ناهضٌ إلى أمير المسلمين بهديَّة ليُهَدِّنَ بذلك أهل المرية، فسُرُّوا بفعله، وقالوا: «هذا هو الصواب، قبل أن يحلَّ بك ما حلَّ بغيرك!» حتى توسَّط البَحْرَ، وأعْطى للنَّواتيَّة مالاً جسيمًا، وأخبرهم غرَضَه، وخرجَ بالجزائر، وأكْرَمَه صاحب القلعة، وأمَّنَهُ فى ذخائره، وأكرَمَ ضيافَته، وخيَّرَه حيث يحبُّ السُّكْنَى، فاختارَ تَدَلّس، لأنَّها على البَحر، وليغيبَ عن عين السلطان، خَوْفًا من الطلَب، وانْخَمَلَ فى ذاته، وأخَذَ لنفسه بالأرْجَح فى أكثر أحْواله.

٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطى والمعتمد:

وإن المُعْتَمِد بن عَبَّاد، لما بصر بدخول الأمير غَرْناطة، واستنجز وَعْدَه، فَلم يُلْتَفتْ، ورأى ثقافَها بالمُرابطين وإخراجَ من فيها من الحَشَم وكلٍّ من طمع بالبقاء على حاله، جزع جزعًا شديدًا، وخاف أن يثنِّى به، إذ رأى الأميرُ مَذْهَبَه فى البلاد واستصراخَه، ولم يمكن للأمير أن يأخذَه بغير ذنب، فيقبح ذكره، وأشار إليه المُرابطون بثقافه، فأبَى حتى يلوحَ قِبَلَهُ ذَنْب يؤخَذ به، ثُمّ إنه، بعد أن نهضَ واتبَعَه قَرُور يقول له: «الأميرُ يحتاجُ إلى تذكارك بعض الأمْر!» فَأبى، ومضى لوجْهته، فارّا بنفسه، وأطوَى المَراحِل، حتَّى وصل قُرْطُبَةَ، وقال فى طريقه إلى ابن الأفطَس: «انْجُ بنفسك! فقد تَرَى ما حلَّ بصاحبِ غَرْناطة، وغَدًا بنا!».

ثمَّ إنه، بعد أن ظهَر للأمير نُفُورُه، وَجَّهَ إليه يأمُرُه بالقدوم عليه، ويقول له: «نُرِيدُ الاجتماعَ بك فيما نحنُ بسبيله» ليقولَ: «لا!» فَيجدَ السبيلَ، كما فَعَل، فراجَعَهُ ابنُ عَبَّاد: «إنَّ ذلك كان وَقْتَ كُنْتَ ضَيفًا، وتُريدُ الغَزْوَ، فلزمتْنى معونتُك بنفسى وجميع أموالى! والآن إنَّما أنت لى جارٌ مِثل باديس

وحفـيدِهِ، وأنْتَ أقْدَرُ مِنِّى على الشـرِّ بجنُودِك! فلا يُمْكِنُنى التغـريرُ بنفسى، عسى أنك تُريد أخْـذَ بَلَدِى، إذ لا تصحُّ لك غَرْناطةُ إلاَّ بما يضاف إلـيها من الأنْدَلُس!» فشـرط عليه أميرُ المـسلمين أن يلتزم الرِّباط، ويقطع القَـبَالات، وتَحامُلاً كثـيراً عَلِمَ أنه لا يفعله، وفى تركِهِ أو فعله قطعهُ، فـامْتَنَعَ ابنُ عبَّاد جَهْدَه، وبَنَى على الشرِّ.

وبـدأ [المُـرابطُ] بِمُداخَلَة مَعَاقِله، فانْتَشَـرَتْ، كما جرى لغيرها، وقامت عليه الرعايا بكلِّ قطرٍ، فأرسل إذ ذاك إلى الرومىِّ، يستـغيث به، فقعد عنه، خَيْـفَةَ من التغرير، وهى حُـجَّةُ أمير المـسلمين على ابن عبَّـاد، أن قال له: «ظَفَرْتُ بكُتُبِك إلى الرُّومىِّ وإرسالك عنه!» فقال المُـعْتمد: «لو فَعَلْتُهُ قَبْلَ أنْ تُؤخَـذَ بلادى بَطَرًا وأشَرًا، كُنتُ أُلام! وأمَّـا بعـدَ أن رأيتُ طَلَبِى فى الروح، اضطَرَّتْنى الضَّرُورةُ إلى ذلك للمُدافَعة، ولو يومًا واحدًا!».

وهى كانت عِلَّةُ الجميع، وبذلك هلك ابنُ الأفْطَس، ومِنهُ أُتِىَ.

٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد:

فلمّا تبـين للأمير خلافُـه وقُعودُه عنه، شاورَ الفُـقهاء فى أمْرِه، فـأشارُوا عليه بغَـزْوِه، فكان غَزْوُهُ بعد إبلاء عُـذْرٍ، ولهذا ما أخَّـر به لِيُهْلِكَ من هلك عن بيِّنةٍ ولتكونَ له الحُجَّة على من يُريدُ إخراجَه، فـأمَرَ الأميرَ سِير بالخروج إليه، ونَهَضَ، ونَحْنُ بِمِكْناسة، ونازلهُ مُدةً طوِيلةً، ومَـعاقِلُه قد ذهب أكْثَرُها بالطاعة.

وافتـتح الأميرُ بخـلال هذا مدينةَ قُـرْطُبة، واستُـشهدَ فـيها ابنُه المـأمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بكْـر - رحمـهم الله - بمُـداخلَةِ مـن أهْلِ البلَد، مع

انخراق المدينة، وأنَّه لم يمكن ضَبْطُها إلاَّ بأَهْلِها، وكان المُعتَمِد حَذِرًا على قُرْطُبة، يرجو بَقاء حاله بثُبوتها، ويُوصى ابنَه بالصبر، ويقول له: «لا تجزع! فالموتُ أَهْوَنُ من الذّلِّ! ولَيْسَ السُّلطانُ إلاَّ من القَصْر إلى القَبْر!».

فلمَّا أُخِذَتْ قُرْطُبة، انقطع الرجاء، وضاقَتْ إشْبِيلِيَة، ونفد ما كان بيده من أَجْل النفقات، إلى أن دخلها الأميرُ سِير عُنْوةً بمُداخَلة من بَعْض أهلها، وهلك فيها عالَمٌ، وانكشف الحُرَمُ، إذْ للجَيْش مَعَرَّةٌ لا تُمْلَك بَعْدَ صَبْرِهم على مَلِكِهم، وظهر لِسير من اجتهادهم فى القتال ما أعجبه ذلك، وقال: «لو أنِّى أقصد مدينةَ الشِّرْك، لم تَمْتَنِعْ هذا الامتناع!».

وكان دخولُها من ناحية الوادى، وهو أَسْهَلُ الأماكِن، ولولا صبْر أَهْلها وكَثْرة أقاربِ ابنِ عبَّاد، لم يستطِع [المُعْتَمِدُ] على شىء، فكأنَّهُ غُلِبَ بالثِّقاتِ الذين كانت الأبوابُ بأيديهم، ووكَّلَهم بمَنْ سِواهم، إلى أن لم يكُنْ مع القضاء مَدْفَعٌ، وكان دُخولها يوم الأحد فى [٢٢] رَجَب [سنة ٤٨٤] فى التأريخ الذى دُخِلَتْ فيه غَرْناطة بَعْدها بعامٍ كامِلٍ.

ودُخِلَت قَبْلَها قَرْمُونَة،(١) ومات فيها عالَمٌ كثيرٌ، ثُمَّ الْتَوَى أمْرُ رُنْدَة(٢)، ونَازَلَهَا قَرُور، إلى أن ظفر بالراضِى، وخَدَعَهُ، وحصل على أمواله، ثمَّ قَتَلَه، خَوفًا من أن تفتضِحَ تلك الأموالُ، وقيلَ: إن ذلك لم يكن عن رأى السلطان، وأمَرَ بقَتْلِ كلِّ من ظفر به فى رُنْدة المذكورة من الأحرار

(١) قرمونة: مدينة بالأندلس فى الشرق من إشبيلية، وهى مدينة كبيرة قديمة، وهى فى سفح جبل عليها سور حجارة من بنيان الأول، وبها جامع من البناء وسوقها جامعة (الروض المعطار).

(٢) رندة: بالأندلس من مدن تاكرنّا، وهى مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهى على نهر ينسب إليها (الروض المعطار).

والجُند المُقاتلين، وقُتل فيها رَجُلٌ من العَرَب يُعرف بأبى الصِّمْصَام، جرْأةً على الله، ليأخُذَ بِنْتَهُ، ونكحها من بعده، وحصل على مالِهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ (هود: ١٢٣) وامْتَسَكَ بالعَبيد، وصيَّرَهم إلى السلطان.

ولمَّا ظفر بابن عَبَّاد، فَيَّأَ الأميرُ سِيرُ خدَمَهُ وعَبِيدَهُ، حاشى أُمَّهَات الأولاد، وأمَرَهُ أميرُ المسلمين بإرساله إليه، فقدم إلينا بمكناسة مع دَخْلَتِهِ، وبَقِيَ فيها إلى أن سِيقَ معنا إلى أغْمات[1].

٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش:

وإنَّ أمير المسلمين، لمَّا فتح الله له فى هذا كلِّه، أخَذَ فى الانصراف إلى مَرُّوكُش، وقد بلغ من آماله غايتَها، وامتَلأَتْ يَداهُ بالأموال، وقسم على أجناده بعضًا من الفَيء، وأهدَى إلى الصَّحْراوِيِّ عَمِّه من تلك الذخائر.

وأمرنا أن نَسْتَوْطِنَ أغْمَات، فأتَيْناها، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل، وأنزلَنا بداره الصُّغرَى فى الحريم، ولم يَزَلْ يَعْتَقِدُنا من إنعامه، كَيْفما هيَّأ الله على يديه، ووَجَدْناهُ بعد الله أرفَقَ بنا، وأحْسَنَ مَذهَبٍ فينا من الناس أجمعين، ومن كلٍّ من سبق إليه منَّا إحسانٌ.

٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ومهلكه:

وبَقِيَ ابنُ الأفْطَس يتخدَّم أمْرَه، وكان يُدَارى ابن الأحْسَن، وينفَعِلُ له فى كلِّ ما أراد، طمعًا منه فى البقاء لحَيْنِه، وهو، فى ذلك كلِّه، يُنْهِشُ، ويُرِى آيات تَدُلُّ على الشرِّ، وأنَّ المذهب فى أخْذِه، ودَاخَلَ عليه ابن الأحْسَن فى بلده، فشعر بذلك، وتيقَّظ له، واستوحش من المُرابطين، وداخل الرُّومِيَّ، فحقَّتْ عليه المُطالَبة، وسُعِيَ عليه جَهْرًا، بعد السَّعْى سرًّا، وهو، فى ذلك كلِّه، مِثْل السَّمَكة العاجزة المَوْصُوفة فى «كتاب دِمْنَة» لم تَزَلْ فى تَقَلُّب

(١) أغمات: بأرض المغرب بقرب وادى درعة. (الروض المعطار).

وتَرَدُّدٍ، حتَّى أخذَها الصيَّادُ، وهو كذلك يُريدُ أن يُخَلِّطَ: يُخَاطِبُ الأميرَ بإظهار الطاعة والمُشاركة فى أمر الرُّومىِّ، ويُخاطِب ألْفُونش ليستعينَ به على مُلمَّة، إن دَهَتْهُ من المُرابطين، وكان ابنُه المنصورُ داهيَةً بالأمور، قد أُشْرِبَ قَلْبُه الحذَرَ والخَوْفَ، وقد رأى طريقةَ ابنِ الأحْسَن، وسعيَه على أبيه، وهو رَجُلٌ سِجِلْمَاسِىٌّ فَقيهٌ، مُتَصَرِّفٌ فى أُمور الأمير، استَوْطَنَ بَطَلْيَوْسَ، واكتسب فيها مالاً، يَرَى أنَّ كَوْنَه فى الثَّغرِ لِمَا ينفع المسلمين، وهو يعمل فى خَلْعِ صاحبِها.

وكان ابنُ الأفطَس الشيخُ مُتَّبِعًا لهَوَاهُ، لو سألَهُ روحَهُ ما لا يَحِلُّ عليه [عمل] به، مُتَوَقِّعًا لشرِّه، وكلُّ شىء يحذرُه الإنسانُ ويكرهُهُ بقلبه، ولا يكون عليه بالخيار، فهو مُتَوَرِّطٌ لا مَحالة، فيه، فإن المُدارة فيه ممَّا لا تنفع، والاستِعْمالُ مُنْقَطِع، ولا خَيْرَ فى مُجاوَرة عدوِّك عند الحاجة إليه، إلاَّ أن تَدْرَى عند ذمِّ العاقبةِ معه أنَّكَ مُسْتَغْنٍ عنه بغَيْرِه، وإلاَّ، فأنتَ له طُعْمَةٌ.

فقال له ابنُه المنصورُ: «هذا التردُّدُ لا يجزِئُك، ولا يغنى عنك ما تُرِى من إظهار الطاعة للمُرابط! ولا طاعةَ أهْلِ بَلَدِكَ لَكَ ومَحَبَّتهم التى كانوا يعرضون عليك! فلو أنَّهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ فى عزيمة، لَمَا أبقَوْا عليك، كالذى رأيتَ صُنِعَ بغَيْرِكَ! فإمّا أن تُصفِىَ للمُرابِطِ، فلَنْ تَبْلَغ مرضاته إلا بالانخلاع له ووَضْعِ البَلَد فى يديه، وتَقْنَعْ بأن تكون مُتَحَرِّيًا، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة، فعَاجِلْ ذلك، تَجدُ عنده الأمانَ! وإن نفرَتْ نفسُك عنه، فلا تتأخَّرْ عن الفِرار منه بنَفْسِك وأهْلِك وجميعِ أموالِكَ! يجعلك الرُّومىُّ فى أىِّ بلدة شئْتَ، وربَّما سَوَّغَها لك، كما فَعَلَ بابن ذى النُّون فى بَلَنْسيَة، وتَتْرُكُ مدينة بَطَلْيَوْس، لا تدخل على المسلمين داخلةٌ، فيحصل لك النجاةُ بمُهْجَتِك،

وسلامـةُ البَلَد للمسلمـين!» فقال له أبوه، وسَـفَّهَ رأيَه: «لا أتركُ مَـوْضِعِى! وعسى أن تُهَيِّئَ الأقـدارُ ضِدَّ ما تَظُنُّ!» فخرج عنهـا ابنُه، ونَجَا بمالِه وأهلِه، وأخذَ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه، وبَقِىَ الشيخ لحَيْنِه، حتى نفذ أمرُ الله فيه.

وإنَّ الأمير سِيرَ، لِمَا أراد من التخدُّم لأمْرِ بَطَلْيَوْس والحيلةِ فيها، لم يَثِقْ بنفســه فى ذلك، لحـدوثِ ولايـتـهِ الأندلُس، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعـانى إلاَّ بدَاوَائِه، ولا يُلقَى أَحَدٌ إلاَّ بحَـجَرِه، فتخيَّــر لذلك ابن رشيق، لأنه أَنْدَلُسِىٌّ، عالِمٌ بالمكايد فى الفتون، مع ما كـان له عليه من الأيادى قَبْلُ فى لِيِّط، وأنَّ ثقافَه ذلك الوقتَ لم يكن إلاَّ على رغْمٍ منه بمُضَادَّةِ قَـرُور له، فانتهز الفُرْصةَ فى إطلاقه، والمُكافاةِ له على صَنِيعهِ بما يأمرهُ من أَمْرِ بَطَلْيَوْس.

وخاطَبَ السلطانَ فى أَمـره، بعد أن أَطْنَبَ من صِفَةِ حـاجته إليه، فـقبل قَوْلَه، وأَمَرَ بإرسال، وأَلْطَفَ له القَوْل، واعتذر إليه مِمَّا جَرَى، وأمر له بمال جسـيمٍ، ونَهَضَ، بعد أن حَدَّ له الوقـوف عندَ أوامِرِ سِير، وأنّه مُـسْتَحْيِـيه، فمضَى، وفـجىء الناس من انطلاقه ما تعَجَّبـوا منه وخلَّطوا القول فى ذلك، كلَّ أحَدٍ على مِقْدار عَقْلِه أو شَهْوَتِه.

فلمَّا وصل، تَخَدَّمَ أمْرِ بَطَلْيَـوس بكلِّ وَجْه من المُداخَلَة لأهْلِ البلد ومن معه فى القَصَبَة من الحَرَس وغيرِهم، حتى وقع الاتِّفاق على أن يطرقَها لَيْلاً، ويفتحوا له [الباب] فكان من ذلك ما حاوَلُوهُ، وتعلَّقوا بالسُّور عند الإمارة التى كـانت مع من دَاخِلَه، وتُقُـبِّضَ على الشَّيخ وابنَـيْهِ الفَـضْلِ والعَبَّـاسِ، واحتُوِى له أموال جسـيمة، وأَمَرَ سِيرُ بإخراجه للقَـتْل، بعد أن رأى فى نفسه

هوانًا عظيمًا، وشدَّةً على المال، ونقم عليه ما كان من عَمَلِه مع النصارى والمَعَاقِل التى أعطاهم، فأمرَ بقَتْلِه مع ابنَيْه الفَضْل والعباس - رحمهم الله.

وطَاعَ جميعُ ذلك الثَّغْرِ للمُرابِطين، كأنَّه لم يكن قطُّ لغَيرِهم، وفِئَ أهْلُه وبناتهُ، وجميعُ ما تَرَكَه، ثمّ صار ابنُه المنصورُ فى جُملة الرُّوم، حَنَقًا لما جرَى على أبيه، يطلب الثأر، ويتطرَّق معهم بلاد المسلمين.

٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى

استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية

وصرف المُرابطون وجُوهَهم إلى فِتنة الرُّوم ومُقاصَاتِها، بعد إكمالِهم لأخذ سلاطين الأندلُس، يقولون: «إنَّه لا ينبغى لنا قتالُ الروم، ونَتْرك وراءنا الأعْداءَ، ممَّن يُوَاسِى عَلَيْنَا مَعَهم!» فكُلُّها تَهيَّأتْ بلا مَشَقَّةٍ غير إشبِيلِيَة، فوقع فيها بعض التغَدُّر، كما قدَّمْنا ذِكْرَه، فسُبْحان المقدر الذى إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ» فيكون، هذا نَصٌّ ما كان ولا نعلم ما يكون، كما قال بعض الشُّعَراء:

وأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأمْسِ قَبْلَه
وَلكنَّنى عَنْ عِلْمِ ما فى غَدٍ عَمِ

ثم نشأ بعد ذلك من أمْرِ بَلَنْسِيَة ما لم يَنْبلجْ بها ما يوصَف، فإنَّ الحديث لا يَحْسُن ذِكْرُه إلاَّ بَعْدَ تَفَضِّى آخرِه، والقَوْسُ لا تُكَبَّد إلاَّ بقَبْضِ طَرَفَيْها، فإذا استكمل الخَبَر، طابَ إيرادُه وحسُنَ مَوْقعُه، ونُمِّق بَعْضُه ببَعْض، ولو أنَّنا نَدَعُ هذا التأليف إلى مُدَّةٍ يتمُّ فيها خَبَر بَلَنْسية، لأتيْنا به بَعْدَ أن يكون الظهرُ للمسلمين، وتُرِكَ هذا الدِّيوان مَخْرُومًا، انتظارًا لمَا يكون فيه أمَلٌ بعيدٌ.

واستئنافُ تأريخ له فصولٌ لا يُعْنى، لا سيَّما أنَّنا أخَذْنا أنْفُسَنا في حيِّز تمامه بما يليق بالزمان، ورُضْناها بما تستمرُّ عليه من تَرْك الشَّرَه والتَّنزُّه عما فات، وإعمال قَطْع اليأسِ عمَّا قيل، واليأس عما فات يُعَقِّب راحةً، ولَرُبَّ مُطْعَمَةٍ تعود دُرّاخًا.

فإذا كان ذلك كذلك، فأوَّل ما يَجِبُ أخْذُ أنْفُسِنا به إخلاصُ النِّيَّة لأمير المسلمين ـ أيَّدهُ الله! ـ وتَمَنِّى الخَير له، لأنَّ صلاحَ المسلمين بصلاحه، ومن الديانة اعتقاد ذلك، لِمَا أُمِرَ به من طاعة الأئمَّة والنَّصْح لكلِّ مُسْلم، لا سيما أنَّه مُحْسِنٌ إلينا، ثمَّ اقْتَصَرْنا على النظر فيما يخصُّنا وأنْزَلْنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلاَّ على هذه الحالة، واعتَبرْنا بمن كان قَبْلنا، ونَظَرْنا لمن هو دوننا.

٨٤- تأملات في تقلب الأقدار:

وما حلَّ بابن الأفطَس، فشكرنا الله على ما نَجَّانا منه، وصرَّفْنا وَجْهَ اهتبالنا إلى ما ننتفع به، وغَلَّبْنا النفسَ الناطقةَ على الحَيَوانيَّة، فإنها تحمل على الفضائل والإنصاف، ومَعْرِفةِ حقائق الأشياء، كما أنَّ الحَيوانيَّة تحمل على الغلبة، وإيثارِ الشهوات، والحيدةِ عن سُبُل المَعْرفَة.

ورأينا أنَّ شُغْل البال بما مَضى لا يَرُدُّ شيئًا غير الهمِّ والكرب اللَّذَيْن يُنحلان الجِسْمَ ويُذْهِبان اللُّبَّ، وأنَّ الحَرَجَ على ما لا يكون تعبٌ للبَدَن ومَشَقَّةٌ للإنسان، لأن الفلاسفة تقول[1]: لا يُلْتَذُّ بما مَضَى، ولا يُدْرَى ما يكون فيما بَقِيَ، وإنما له لذةُ ساعَته التي هو فيها، أو عَمَلُه الذي يَجدُه لِمَعادِه، فإن أعْقَبَ الله بخير، فَلَنْ نَخْسَر ما سَلَفَ من أيامنا، فَنَهْرمَ قَبْلَ أوان

(١) في المطبوع: «لأنَّ تقول الفلاسفة» ولا وجه له.

الهَرَم، وإن كان الذى يأتى أشد من هذا، فيحـقُّ اغتنامُ ما نحنُ فيه، ونعُدُّها أعيـادًا، ونُحْدِثُ لله عَمَـلاً يَرْضاهُ، وإن كنّا أبَدًا على هذه الرقـبة بلا انتـقال (وغَيْر متمكِّنٍ من ذلك) فَتوْطِـينُ النفس على ما يَعْلَمُ أنها عليه دائمةٌ، أحْرَى وأرْوَحُ للبالِ.

ثمّ إنّى اعتبَـرْتُ جميع ما فى الدُّنْيـا، التى إليها يَسْعَـى الناسُ، فوجدتُ نفسى مُـبْلِغةً منها كل أمَلٍ، وإن انقَطَعَتْ، فلم نصـحبْهـا، ونحنُ منها على يقينٍ بتَخْلِـيدِها، بل، لكلِّ شىء مُدّةٌ، ولا بُدّ من تَرْكِهـا، والخروجُ منها فى مُدّة العُمُر خيرٌ من مَيْـتَةٍ على فِتْنةٍ أو غَرَقٍ، عَسَى بذلك أن يُعْظِمَ الله الأجْرَ، ويُكَفِّر السيِّئات، ويكون ذلك للإنسان زاجرًا عن الآثام، ويعتبرُ فَقْدَ مالِه كأنَّه لم يكتَسِبْه برَزيّةِ نفسه إذ حان حينُه، فيُقَدِّم بها النظَرَ، بتوفيق الله تعالى، قبل الموت وحلول الفوت، والله المُسْتَعان! لا شَرِيك له!.

سُئِلَ النبىُّ ـ عليـه السلام ـ عن عَلامـةَ انشراحِ القَلْب للإسلام، فـقال: «هو التَّجـافِى عن دار الغرور، والإنابةُ إلى دار الخلود، والاسْتِعْـدادُ بالموت قبل لقاء الفوت».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٨٥- المؤلف والشعر

وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس، ورتبة دَوْلَتنا، وما انتَهَتْ إليه فيها أحكامُنا، حسبما ساعَدتنا عليه أذْهانُنا، ونالَتْهُ مَقْدُرَتُنا، إلى انصرام الأمد، فلنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق بذلك من شِعْرٍ نَظَّمْناهُ وَقْتَ فراغِ البال وجمامِ النفس، مع ما أعان على ذلك من النَّظَر إلى كلِّ مُسْتَحْسَنٍ، والسُّرُورِ بطيب كلِّ خَبرٍ.

على أنَّني لم أنْتَحِلْهُ قَبْلُ، ولا كان من شأني الأخْذُ به، إلاَّ على سبيل الاستطراف والإطناب في وَصْفِ شيء أُريدُ نَعْتَهُ، فَرُبَّما صَنَعْتُ في البَيْتِ أو البَيْتَينِ أيَّامًا، أُحْضِرُ لها ذِهْني، وأحِدُّ فِكْرِي، فتصدع بعد كَدٍ، وما أكادُ، كالشيء المُسْتَغْرَبِ من غَيْرِ مَعْدِنِه، فيُنْشِدُها الكَتَبَةُ في مجالس الاحتفال للراحات، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشُّغْل، كالذي يأخُذُ به الملوكُ أنفسهُم في ساعات الدَّعَة، ونُضيفُ معها لُمَعًا من آدابٍ وسِيَرٍ تُحْضِرُني، ممَّا يختلج في الخاطر ويُجْرِيها الإنسانُ بصُحْبة الزمان وتَنَقلِه في الحالات، وقيلَ لرَجل: «من أين لك هذا العلْمُ؟» فقال: «قَلْبًا عقولاً، ولسانًا سَئُولاً!».

٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره:

وكُلُّ شيء إنَّما ينطبعُ في النشأة وحِينِ المَوْلِد، ولقد طالَعْتُ من مَوْلِدي أشياء مَيَّزْتُها من طبائعي وأخلاقي، على أنَّ واضِعِيه أَلَفُوهُ ونَحْنُ في حال الطفوليَّة، لم يُوصَل إذ ذاك إلى معرفة شيء من أحوالي، وكتَمَهُ عنِّي سِماجَةُ مُدَّةً، حتَّى وقع السِّفْر إلى يدي على غَيْر ظَنٍّ، فشَقَّ ذلك عليه، خَوْفًا عليَّ

من العُـجْب بمـا كان فـيه مَـنْصُوصًـا من السـعادة، فطالَعْـتُ منه عجـائبَ وغَرائبَ، إذ كان المَوْلِدُ رصْدى، وكـان الطالِعُ الحوتَ بأَرْبَعِ دَرَجٍ، وصاحِبُه المُـشْتَـرِى فى الحـادِى عَشَـر مع الزُّهَرَة، وسَـقَطَتْ الشـمسُ فى الدَّلْوِ مع عُطارِد، واتَّفَقَت النَّحْسَانِ فى الثَّوْرِ بَيْتَ الأُخُوَّة والقَرَابة، وصار القَمَرُ هَيْلاَجًا إذْ كان فى السابع من البُرُوج، فصَلُحَ لذلك لأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَّوْبَة؛ والزُّهَرَةُ كَـدْخُدَاهُ، دلَّتْ بمكـانِها ـ والله أعْلَم ـ على قَـوْلِهم، على سِنِـيهـا الوُسْطَى خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً يزيدُها المُشْتَرِى سِنِيه الصُّغْـرَى اثنَىْ عَشَرَ عامًا، فجميعُ ذلك سبعةٌ وخمسون عامًا، والله بغَيْبِه أعلمُ!.

وتكَلَّمَ (الطالِعُ) على أرْبابِ مُـثَلَّثـاتِ النَّيِّرِ الدالَّـةِ على تقسـيمِ السعـادة للمَوْلود، فكانَ رَبُّ المُثَلَّثَة الأُولَى زُحَلَ، ومَعَهُ المِرِّيخ فى بَيْتِ غُرُوبه، فدَلَّ على أنَّ الثُّلُثَ الأَوَّلَ فـيه بَعْضُ التَّـقْدِيرِ والتَّنْـغيصِ والتكْدِيرِ، ومِـثْلَهُ الثُّلُثُ الثانى الذى لعُطارِد، إذ كان فى بَيْتِ الشَّقَاء والهُمُومِ، مَحْسُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ، فَدلَّ على مِثْلِ ذلك وأشَدَّ، كالذى تَبَيَّنَ الآنَ، والقسمةُ الثالثةُ للمُشْتَرِى، وهو فى بيت الرَّجـاءِ والسَّعـادةِ، فَـدَلَّ على ضِدِّ ذلـك كُلِّه، وأطْنَبَ فى وَصْفِ السعـادةِ فيه، لا أدْرِى كـيف هو، إذ هو بعيـدٌ فى القِياس، قـريبٌ فى قدرة الله.

ثمَّ وَصَفَ خَـبَرَ الأَمْـراضِ، فدَلَّ على الأمـراض النَّفْسَـانيَّة من السَّـوْداء وحِدْثانِ النفس بأشياء مُخَوِّفة.

وذَكَرَ خَبَرَ البَنين، فقال: حيث شَهِدَ شاهِدٌ، يكونُ الوَلَدُ، وشَهِدَ آخرُ بأَنَّ لا وَلَد، ودَلَّ على القِلَّةِ، إلاَّ أنَّه لا بُدَّ من كَـوْنهم، وإنْ كان ما ذَكَـرْناهُ دليلاً على قِلَّتِهمْ، وربَّما كان ذلك فى نِصْفِ العُمُر، فظَهَرَ ذلك بنَشْأتِهم الآنَ.

وذَكَرَ خَبَرَ الزهادة فى الحرام كُلِّه، وحَقَّ ذلك لكُلِّ أحَد، غَيْر أنَّ الذى يَتَهَيَّأ فى نَصْبِه المَوْلِد أغْلَبُ على الطَّبْعِ، ثمَّ نَظَرَ فى وجْهِ التَّعَفُّف، والبَحْث على ما أوْجَبَ ذلك، وأنَّ تلك الزَّهادة من تِلْقَاء نَفْسِه مع سلامة المُعْتَقَد، فإنَّ الزُّهَرَة، إذ كانت فى أحد بيوت زُحَل، ظَهَرَ على المَوْلُودِ قُبْحُ ذلك الشَّرَه، فَتَعَفُّفٌ، وقال إنَّ حِكْمَتَهُ فى يدَيْه أكْثَر منها فى لِسانه.

ورأى صاحِبَ بَيْت العُرْسِ، وهو عُطارِد، فى بيت زُحَل، فدَلَّ على المَيْل إلى الصِّغار ذوى الطبائع العُطارِدِيَّة، مع مُنافَرَةٍ لا تُبيحُهُ الشَّرِيعةُ، إذ لم يَكُنْ بَيْنَ صاحِبِ العُرْسِ وصاحِبِ الطالِعِ مُواصَلَةٌ ولا مُشَاكَلَةٌ.

كُلُّ هذا قد عَلِمْناهُ من أنْفُسِنا، كأنه حاضِرٌ معنا، ومُطَّلِعٌ علينا، فلم نَشُكَّ فى صحَّته بإذن الله، فسُبْحانَ مُصَرِّفُ الأيّام ومُجْرِى الأفْلاك!.

(الفَلَكُ ما استدار من الأشياء، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣) وسَمَّاها سَمَاء، فإنَّ العَرَبَ تدعو كلَّ ما ارتفع سَمَاءَ، فهى، لارتِفاعها علينا، سماءٌ، وهَيْئَتُها: فَلَكٌ، لا سَماءٌ).

٨٠- آراء المؤلف فى التنجيم:

ولا يَعْلَم الغَيْبَ إلا الله، غَيرَ أنَّ أهل العَقْل منهم يقولون: إنَّما هى دلائلُ على الخيْر والشرِّ، ولا يُعْلَمُ بها الجَلِيَّةُ، كالْغَيْث المنْزَل دَليلٌ على نبات الزرع به، أو كالنار المشتعلة بمكان عَلَمٌ أنَّها مُحْرِقَةٌ، ويحْتَجُّون بحديث الرسول - ﷺ - فى قوله: أقْبَلَتْ بحريةٌ، فتشاءمت، فتلك عينٌ غديقةٌ، ومُعاناةُ الحكيم الماهِر دَليلٌ على بُرْئِه، يرجى له ذلك إن أخَّرَتْه المُدَّة.

وجىء بطبيبٍ عالِمٍ إلى أحد العُظمـاء من بلاد الهِنْد، فلمّا شكا المريضُ إليه، قـال له الحكيم: «قد بريتَ بحول الله!» فلمـا أعْلَمه التُّرْجُمـانُ بقوله، قال العَليلُ: «إن شاء الله!» فأجابَه الحكيمُ: «إنَّ الله قد شاءَ: لم يسُقْنى إليك من أرض الهِنْد إلاَّ وقد قضى بصحَّتك!».

وقد أغْلَى أهْلُ الهِنْد فـى هذا العلْم، ومنهم مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًـا، حتَّى إن فيهم من لا يولِّى مَـمْلَكَتهم إلاَّ مَنْ شاكَلَ طالعُه طالـعَ الدولة، وهم يزعمون أنَّ طالعَ المَلِك، إن لم يكن وَتَدًا من أوْتَادِ المَمْلكَة، أو كـان منها ثانى عَشرَ أو سادِسًا، وأمْكِنةُ الكواكبِ غَيْرُ مُتَّفقـة لذلك، فإنَّهُ ينحِسُها، ولو بلغ الجهْدُ من الاحتيـاطِ عليها: إمَّا تُهْلِكهُ، أو يُهْلِكهـا، ضَرَورةً تسوقُه الأقـدارُ إليها، فكانوا يتخيَّرُون الطوالع قبل اختـيار العقول والمذاهب، يَرَوْنَ أنَّ القَدَرَ أغْلبُ من الرأى، ويقولون: «لك سـعادةُ الدولة ومُسـاعَدةُ الأقدار! هَيِّـأت لما هَذِهِ الآراءَ لطولِ المُدَدَ».

ثمَّ إنَّهم يزعمون أنَّ العُمُرَ الطبيعىَّ مائة وعشرون عامًا، وأنَّ القواطِعَ التى تكون قَبْلَهُ إنَّما هى من أحـداثٍ داخلةٍ على الإنسان، عَرْضيَّةً، إمَّـا من فساد المزاج، فـتخـورُ الطبيعـة، إذ جعلوا الأربع طبـائع التى فى الإنسان قـوامَه كأركانِ البَيْت، فمَـتَى فسدَتْ منها طبيعةٌ، اعتَلَّ الجِسْم، وإن تغيَّرَتْ كلُّها، مات، وجـعلوها مُشاكِلةً للأزْمنة: فالـدَّمُ رَبيعىٌّ، والبَلْغَمُ شِتْوىٌّ، والصَّـفْراءُ صَيْـفيَّـةٌ، والسَّوْداءُ خَرِيفـيَّةٌ، فـمَنْ عالَجَ كلَّ زمـانٍ منها بضـدِّه من الأغْذِية والأدْوية، فقد أصاب، ولا باقى مع الله!.

و [لَمّـا] احْتجَّ عليهم بالذى يموت فجأةً أو فى زَحْمَةٍ، أو بأرَقٍّ سَبَبٍ،

وهو يظهر صحيح الجِسْمِ، أضافوا إلى الطِّبِّ من عِلْم النجوم، واتَّفق رأيُهم أن لا فَلْسَفَة تتمُّ حتَّى يجمعها، وأنَّ لا قوامَ لأحدِ العلمَين دون الآخَرِ، فقالوا: إنَّما ذلك من الهيَالِيج الساقطة، فإنَّ المَوْلودَ، إذا كانت هَيَاليجُهُ ساهرةً، صحَّ ارتباطُ نفسه بجسمه، فلا تخرجُ إلاَّ عنْ مَشَقَّة مع تمام المُدَّة التى تدلُّ عليها العطِيَّة، وإن كانت هَيَاليجُهُ ساقطةً كلَّها، عرض للموت بأرَقِّ سببٍ، فإن لم يكن له هَيَلاج، سيِّرت المَطْلَعيَّة وعُدَّ لها أعوامٌ، ويكون القطْعُ عند تمامها، وقد يكون فى تَحَاوِيل السِّنِينَ، وإن تتمَّ العطِيَّة عند انتهاء صاحِبِ حَدِّ الدَّرجَة إلى موضعٍ نحسٍ، قَطعٌ أو شبه القَطْع، إن لم تُسَاعِده النجومُ السعيدةُ، وسمَّوْهُ الجَانْ بَخْتان، وهو دليلُ الحياة بإذن الله.

ومنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه، ورضِيَ بما قسم له البارئ - عزَّ وجلَّ - فلا ينقد على نفسه، وعيش طيب العَيْش، يدرى أن لا قاطِعَ يقطع به فى تلك المُدَّة، ويُشَجِّع لقول علىٍّ - ﷺ - لرجُلٍ قد أَسَنَّ: «أية شجاعة قد فاتَتْك!» يعنى: لو أنَّكَ قَبْل اليوم تدرى أنَّ هذا يكون عُمُرَك لم تُبالِ.

وأمَّا أنا، فأقول: إنه تأنيسٌ ما لم تقرب المُدَّة، وزيادةٌ فى ألَمِ المَنِيَّة إذا اقْتَرَبَتْ، ولا يكون الطِّبُّ إلاَّ ليُصِحَّ البَدَن مُدة الحياة لكراهيَّة العَيْشِ فى نكد، وأمَّا لِدَفْعِ أجَلٍ، فلا ينفع شيءٌ.

٨٨- آراء طبية فى الأغذية والنبيذ:

قال بعض الحُكماء: «الناس يعيشون[1] ليأكُلوا، ونَحْنُ نأكُلُ لِنَعيشَ!» فتأمَّلْ مَعْناهُ.

وجمع أحَدُ الملوك أطِبَّاءَهُ، فقال لهم: «أعْلِمونى بالدواء الذى لا داءَ

(١) فى المطبوع: «يعيشوا».

معه!» فكلُّهم تكلم على الأدْوية والمُعاناةِ بها، غَيْرَ واحدٍ منهم كان أكبرهم سنّا، فردَّ عليهم أن: «ليس عن هذا سألكم الأميرُ! ولكنَّهُ يأذنُ لى فى الكلام؟» قال: «قُلْ! فأنْتُمُ مَعْدنُ الحكْمة والفَلْسَفَة!» فقال «أيُّها الأمير! إن الدواء الذى لا داء معه أن تكونَ، عِنْدَ أخذك للغَذاء، تَتْرُكُ منه بقَدْرِ ما تتمُّ به الشبعة، ولو لُقْمَتَيْنِ، ولا تتملأ! فذاك دواءٌ لا يحتاجُ معه إلى طبيبٍ!».

وذُكِرَ هذا عن الرَّشيد، أنه قُدِّمَ بين يديه قَصْعَةٌ بطعامٍ، فلما أكل قال: «هذا غذاءٌ ودواءٌ! فما زِيدَ عليه كان داء!» وعلى أنه لكلِّ امْرِئٍ من دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَ.

وقال النبىُّ ﷺ: «أصْلُ كلِّ داءٍ البُرودة، وأصلُ كلِّ دواءٍ الحِمْية!» وقيلَ: «أقْلِلْ طعامًا، تَحمَد منامًا!» وقالت الحُكماءُ: «إنَّ الكثرة والقلَّة عَدُوَّا الطبيعة».

قد نَرَى فى الخَمْرِ ما، إذا اعتدل مزاجُه منه بالكثير، لم يجب أن يُقال له: «قَلِّلْ!» ولا من شارِبٍ وافَقَهُ القليلُ، أن يُقال له: «ازْدَدْ!» غيْرَ أنَّ العاقِل يَرَى ذلك بحسِّه، ويعلم ما لم يُوافِق طَبْعَه، فلا يزيد عليه شيئًا.

وسُئِل حكيمٌ عن الخَمْر، فأعابَها، إلاَّ أنَّه قال: «إذا أخذتَ كَيْفَ يَنْبَغِى ومع من يَنْبَغِى، فلا بأسَ بها: تفرح النفس، وتذهب بالهموم، وتشجِّع، وتحمل على الفضائل، والتزيُّدُ منها شرٌّ مثيرٌ، كما أنَّ التقليل منها خيرٌ كثيرٌ!»[1].

وشبهُّوا كثيرَها فى الأبدان مثل التُّرْمُوس الذى إذا أُكْثِرَ عليه الماء وطال مكْثُه، استحال وذهب نورُه.

---

(١) الخمر محرمة شرعًا على جميع الوجوه، وقد تغير أسلوب المؤلف نحوها فيما يلى بقوله: «لا خير فيما لا تبيحه الشريعة».

وقيل فيها:

سَـــألت الـشَّـيْخَ بُـقْـرَاطًا
ويـقْـــرَاطٌ لـه عَـــقْـلُ
فَــفـضْـلٌ مـا لَـهُ شِـبْـهٌ
وطِـبٌّ مـــا لَهُ مِـــثْـلُ
فـقُـلْتُ: الخـمـرُ تعـجِـبُنِى!
فـقـال: كـثـيـرها قَـتْلُ!
فـــقُلْتُ: كَمْ تـقـــدِّرُ لى!
فـــقـالَ، وقَـــولُه فـــصْلُ:
وَجَـــدتُ من طـبـــائـع
أرْبـعَـــــةً هِـىَ الأصْـلُ
فـــأربعـــةٌ لأربـعَـــةٍ
لكـلٍّ طبـــيـعـــة رِطْلُ

هذا ما قـالَهُ الناسُ، ولا خيْـرَ فيمـا لا تبيـحُهُ الشريعـة، ولا بأسَ بعِلمِ الشيء عند الحاجة إلى وضْعِه، وبعْضُ الشـرِّ أهْوَنُ من بَعْضِه، لمن ابتلِىَ بها أن يأخُذَها على حقِّها.

وقالوا: إنه ممَّا يُولِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النَّرْجِس، كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِير وشمَّ البَنَفْسَج ممَّا يُولِّد الحزْنَ.

وقالوا: إنَّها من أكبر أدوِيَة السَّوداءِ فـى تلك الساعة، وتعقِّبُ سَوْدَاءَ أشرَّ من الأُولَى إن أكْثـرَ منها، والعِلَّة فى ذلك أنَّه لا خيـرَ فيها إلاَّ مـا رقَّ منها، وحَالَ عليـها الحَوْلُ، وعطرَت رائحتُـه، وهى حارَّةٌ يابِسَةٌ، ثمَّ تستـحِيلُ إلى

البرد عن شرب الماء للضرورة، وتَجِدُ الرطبة منها، كَبِدِيَّةَ اللَّون، غليظةَ الرَّوْنَق، مولدةً للدَّمِ والنَّوْمِ، وهى الموافقةُ لزمان الشتاء، ولْيَتَّخذْ منها لكلِّ زمان ما يوافقُ طَبِيعَتَه، ويخالف هَواهُ.

ورأوا أنَّ أخْذَها بعد الغَدَاء بساعة، لِيَنامَ الإنسانُ قَبْلَها ويُرْوَى من الماء أنْجَعُ له وأنْفَعُ، وكذلك الجِماع أنْفَعُ أن يكون بَعْدَ سكونِ الأعضاء وتودُّعِها بالنوم بعد الطعام، فى صبيحة تلك الليلة، عند تملى الأعضاء، واحتياجِها إلى إخراج الفضول، ونشاطها، ولا يكون ذلك عن تكلُّف، حتَّى تميلَ الطبيعةُ إليه، لا سيَّما إن ساعَدَتْها النفسُ، ويوافق ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا، إذ النفسُ والجِسْمُ شكلان مُرْتَبطان: متى اعتلَّ أحدهُما، تَضعْضَعَ الآخَر، ومتى صَحَّا جميعًا، قَوِيَت المنّة وتكاملت الصحَّة، ويكون ذلك أسرَعَ فى البَاه، كما أنَّ المَعِدَةَ متى اشتهَتْ شيئًا، فقد ضمنَتْ هَضمَه.

قال جَالِينُوس: «إنَّ المريض الذى يشتهى أرْجَى مِنِّى للصحيح الذى لا يشتهى!» ألا تَرَى أن الطبيب الماهر، إذا عانى العليلَ، وقاسَ بين دَوَائَيْن يكونُ نجعُهما واحدًا، قَصَدَ إلى الذى يعلم أنَّ النفسَ عليه أقْبَلُ فى حال الصحَّة، فَيَعمده، ألا تَرَى أنَّ شراب السَّفَرْجَل وشراب السَّكَنْجَبِين فِعْلُهما واحدٌ، غير أنَّ شراب السَّفَرْجَل أليَقُ بالنفس، وهى إليه أشْوَقُ، فيرى الحكيمُ تَوَقانَه إليه زائداً عليه فى الدواء[1]، وينجح فيه بالشهوة.

ولم يَرَوْا لشرب الخَمْرِ عند العطش شيئًا أنْفَعَ من شَرْب الماءِ، للتَّوَقانِ وإطْفاء الحرارة وقَمْع الأبْخِرة.

ولْيَستعْمِل من الطعام ما خَفَّ، ولو عاوَدَهُ فى النهار مرَّات، فهو أسرَعُ لهَضْمِهِ وأشْهَى لمَعْدَتِه، وأخَفُّ على جَوَارِحِه، قال بعضُ الحُكَماء: لأنْ

(١) فى المطبوع: «زائدا على فى الدواء» ولا وجه له.

أتملأ شرابًا أحَبُّ علىَّ من أن أتملأ طعامًا! فإن التُّخمَة، إن تعقّدَتْ، قَتلَتْ، وإن تحلَّلَتْ، أسقمَتْ» قال بعضُ الفلاسفة: «خفِّفوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات، لتصعَدَ إلى عالَمها الأكبَرِ، فتأتيكم بعجائبِ ما هُنالكَ!».

وقالوا فى الشراب إنه يُسَلِّى الهموم، وأنا أقولُ: إنَّها تَهيِّجُ الهموم، إنما هو ما نزل عليه: إن ألفَتْ سُروراً، حرَّكَتْ منه ما سكن الإنسان عنه، وإن ألفَتْ هُمومًا، ذكرَتْ لما هو فيه وأشدَّ منه، وفتقَتْ إلى طُرُق السوء، والهَمُّ إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء، فذاك الذى لا يُسْلِيه عنه شىءٌ، ولا يأتيه منه نعاسٌ، والغمُّ إنما يكون بما مَضَى، فربّما سَلت الخَمْرُ عن بعض ذلك، ولا شىء يولِّد النوم مثل الغمِّ بتذكارِ ما خَلَفَ، أو النَّظَرِ فى كتاب لا ينبغى منه تَعَلُّمًا أكثرَ من مطالَعة ما مَضَى.

ومن الجُهَّالِ مَنْ يَعْتقِدُ أن العَشاء قريب المنام يُولِّد الرقادَ من أجْل التملُّئ، وأنا أقولُ: إنَّه يمنعه، فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبْخِرة وكلُّ حارٍّ مانعٌ للنوم، كما أنَّ البرد فى الدماغ مُولِّدُهُ، ألا تَرَى أنَّ الأدمِغَة الباردة كثيرةُ النزلات من الرطوبات، وتولِّد النسيان؟ والسريعُ الحفظِ قد يكون فى دماغه مَرَارةٌ ويُبُوسةٌ؟ وقلَّ ما تَرَاهُ يَنْزلُ، وإن كان فلا يدومُ ذلك به، فإنها من فَضَلات الدماغ، وكذلك الجاحظُ العَيْنَيْن يُعرض عن ذلك، وقَلَّما يَسْلَم من الأمراض والتعرُّق، والغائرُ العَيْنَيْن عِنْدَهم أصَحُّ بَصراً مع أنَّها من صفات الجَمال إذا قالوا: «هو الغائرُ العَيْنَيْن، الأسيلُ الخَدَّيْن، المُشرِفُ الحاجِبَيْن».

كذلك قَوْلى، وإنه لا يتمُّ لأحَدٍ جمالٌ إن خشنَتْ أطرافُه وامتَلأتْ خَدَّاه، وكانت العَرَب تمدح فى الإنسان كِبَرَ رأسِه، وتقول: إنَّه عَلامةُ السُّؤدُد، ويَمْدَح الغُلامَ الأبْلَهَ العقُول.

وقيل: الجمال فى اللسان، ما كان نـاطقًا بالصَّواب، ولا خيْرَ فى التَّهوُّر والإكثارِ بما لا يحتاج، ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلا فيما رثى به، فقال:

لَقَـدْ وَارَى المـقـابِرُ مِنْ شَـرِيكٍ
كَـثِـيـرَ تَحلُّمٍ وقَـلِيلَ عَـابِ
صَـمُوتًا فى المَـجَـالِس غَيْـرَ عَىٍّ
جَـدِيرًا حـينَ يَنْطِقُ بـالصَّـوابِ

٨٩- رجع الكلام إلى التنجيم:

وممَّا وَصَـفْناه من عِلْم التنجيم، احْتَـجَجْتُ يومًا بِبَعْضِ المنجِّـمين أنَّهم على غير شىء، فقـال: إن كُنْتَ نَقمتَ بأنَّنا نزعم أنّ الكواكبَ فاعِلَةٌ أو يَعْلَم أحَدٌ الغَيْب، فَمُحَال ذلك، لا يدَّعِيه أحَدٌ، غَيْر أنَّا نقولُ بأنَّها مُصرِّفَةٌ، ألستَ تقول فى الشمس: إنَّ الله خَلَقَـها ضياء؟ فكذلك أقول فى النجم السـعيد أو النحيس إنَّ الله خَلقـه لذلك، ثمَّ لا يَعْلَم كَيْفِيَّـة هذه السعادة وصورتَهـا غير الحَمَلة، والله أعْلَمُ بما يَتَهَـيَّـأُ منها.

«وليسَ منها شىءٌ إلاَّ مُـوافِقٌ للشرائع إذ النَّصْبَـةُ كلُّها مخلوقـةٌ من مُدَبِّر واحِد، لا إله غَيْرَه، فمَـتى كان فى العالم دَوْلَةٌ أو مِلَّةٌ، لم تدلَّ النجوم على غَيْرها، إذ الحُكْم مِنْ لَدُن الواحِد، فأوَّلُ ما نَبْتَدِئكَ به أنَّه ما من طالِع القِران مِلَّةٍ ومَوْلِد نبىٍّ إلاَّ وقد شـاكَلَ، واتفقَتْ له من السعادة فى الهيئـة ما خرج به من القوَّة إلى الفِعْل.

«وأُخْرَى، أَلَيْسَ تقـولُ اليَهُودُ إنهم زُحَـلِيُّون؟ لا شَكَّ فى ذلك! ألا تَرَى اتِّخاذَهم السَّـبْتَ عِيـدًا، وهو لزُحَل، وأخلاقَهم كلهـا مُطابقةٌ لِمَـا يدلُّ عليه

زُحَلُ من البُخْل، والقَذَارة، والخُبث، والمكْر، والخَديعَة؟ ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهم شَمْسِيُّون، لا امْتِراءَ فى ذلك! ألاَ تَرَى أنَّ يومَ الأحَد جُعِلَ لهم عِيدًا، وهو يوْمٌ شَمْسِيٌّ، وطبائعَهم موافقةٌ للشمس، وصُوَرُهم فيها: البَيَاض والحُمْرة والشُّقْرة، والرَّهْبانيَّة فى عُبَّادِهم لعقْم الشمس؟ ثُمَّ المسلمون: أَلَيْسَ هم زُهَرِيِّين؟ والزُّهَرة دالَّة على الدين، والنظافة، والمُروءة، والضوء، والطهر من الجنابة، وإباحة النكاح، والإماء، والطيب والزينة؟ ثم أُمرْنا باتِّخاذ الجُمُعة عيدًا، وهو يوم الزُّهَرة!.

«ثُمَّ انْظُرْ إلى بُروج الفلك، تقولُ: إنَّ السابعَ بَيْتُ العُرْسِ، وأكْثَر ما يَسْتَعمِل الناسُ النِّكاحَ فى شهر رَجَب، وهو السابع من أشْهُر العام المؤرَّخ به، الذى أوَّلُه المُحَرَّم، والثامن من البروج بَيْت الموت والمواريثُ، وشهرُ شَعْبان الثامن من الأشهرُ الذى تُنْسَخ فيه الآجال، والتاسع من البُروج بَيْت الدين والسَّفَر، وشهرُ رَمضان المُعَظَّم، تاسعُ أشْهُر العام، وجب فيه الصوم ومُحَافَظَةُ الشَّرع، والعاشر بَيْت المُلْك والسُّلطان، واتُّخِذَ العاشِر من الأشهرُ عيدًا يَظْهرُ فيه بهاءُ الدين وعِزُّه.

«وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج: ١) وأقْسَمَ ﴿بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير: ١٥، ١٦) وهىَ المواكِبُ السيَّارة، ويزعمونَ أنَّ زُحَل هو النجم الثاقب، لأنَّه يفتق بضوئه سبع سَمَوات، وأنَّه أعْظَم من الأرض ستة وتسعون مرَّة، وغَيْرُه من الكواكب قد وصفوا قسمتَها من العظم على الأرض، غير القمَر وعُطارِد، فإنَّهما[1] أصْغَر من الأرض، وأنَّ الشمس أعْظَمُ من الدُّنيا مائة وثمانون ضِعْفًا، ولكلِّ كَوْكبٍ منها مُدَّةٌ يقطع

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «فإنها».

فيها الفلكَ، ورُتْبةٌ هَيَّأها له بارِئُه ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّ العالَمَ السُّفْلىَّ مُتعَلِّقٌ بالعُلْوىِّ، مؤثِّرٌ به بإذْنِ ربِّه».

ومنهم من قال: لأىِّ شىء تُنْسَبُ إلينا الزَّنْدَقة؟ ولم نُنْكِر الخالق، وإنما تكلَّمنا فى المخلوقات، فيُوصَف كلُّ مخلوقٍ بما يُدْرِكه عِلْم الإنسان، كواصِف رَجُلٍ أو شَجَر أو جَبَل!».

وذُكِرَ عن حكيم أنَّه رُئِى بالمُصْحَف عن يمينه، والأسْطُرْلاب عن شماله، فسُئِلَ ما الذى أوجب جَمْعَهُما[1] لدَيْه، فقال: «أتلو فى المُصْحَف كلامَ الله، وأعْتَبِرُ فى الأسْطُرْلاب خَلْقَ الله، وعلم الهَيْئَة عِبادةٌ!».

وإنه لمَّا نُصَّ علىَّ هذه المقالة، كان جوابى عنها: «كلُّ ما تقول يشبه يكون من موافقة أهل السُّنَّة بما احْتَجَجْتُمْ به، غَيْر أنكم خَالَفْتم القرآنَ فى قولكم «يكون» و «لا يكون» والله يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥) فقالوا: «لَسْنا نقطع عن الأمر أنَّه يكون، ولا نقول إلاَّ أنَّه يدُلُّ، ونأتى بحُجَّةٍ إلاَّ يتمُّ شَرْحُها اللَّهُمَّ! إذ قُلْنا: هذا مَوْلِدٌ سعيدٌ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والكائن فيها، ومِنّا مَن يتحرَّى، فيعدل ولا يتكلم على شىء، وقَوْلُنا هذا كقَوْل من رأى سحَابًا ثقالاً فيقول: «هذه تدُلُّ على الماء الكثير» هَلْ قائلٌ ذلك مُلْحِدٌ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاءُ.

وهذا أيضًا ممَّا قدَّمْنا ذِكْرَه صَدْرَ الكتاب أنَّ كلَّ مفتون مُلَقَّنٌ حُجَّتَهُ، والله يقول: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٤) على أنَّ الحقَّ عليه نورٌ لا يخفى، تقول العَرَب: «الحقُّ أبْلَج، والباطِل لَجْلَج» قال المأمون: «لا أغْتَبِطُ بأيَّام السرور مُذ عَلِمْتُ التنجيم، ولا استمريتُ الطعام مُذ عَلِمْتُ الطِّبَّ، ولا طابَ لى النوم مُذ عَلِمْتُ عبارة الرؤيا!».

---

(١) فى المطبوع: «جَمْعَها».

٩٠- مسائل فلكية:

ويزعمون أنَّ الليل ظِلُّ الأرض، ولا ضياء غير الشمس، فبإشراقِها على الأرض عند طلوعها، كان النهار، وبدخولها تحت الأرض، رجع الظِّلُّ طالعًا، فأظْلَمَ الليل.

وبَعْضُهم من قرأ أن الشمس تجرى، لا مُستَقَرَّ لها، إذ يقولون: إنَّ الشمس لا تستَقِرُّ بمكان، إذ لا يصحُّ أن يكون المكان إلاَّ أعظم من الذى تَحِلُّ فيه، ولا أعظم من الشمس إلاَّ الفلك، والفلكُ دَوَّارٌ.

وقالوا فى الكسوف: إنَّ الكلام فيه ما يمكن إلاَّ بالوقوف على صورة الهَيْئَة، ولولا ذلك، لم يَجِد القول، وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذى حُدَّ أمْرُهُ وَقْتَ انْجلائِه ومَبْلَغِ المُنْكَسَف منه، وإن الشمس فى ذاتها لا يعرضها شىء غير أنَّ جرم القَمَر يحول بَيْنها وبَيْن الأرض متى قابَلها، وكُسوف القمر من مُقابَلة الأرض.

وزعموا أنَّ ضوءَ الكواكب والقمر من الشمس، وأنَّها أجْرامٌ شَفَّافةٌ تكْتسى النور من النَّيِّر الأعظم، فيبدو ضوؤُها بغَيْبِها، ويطمس عليها طلوعها، وهو قول الشاعر فى ذلك:

لأنَّكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكِبُ
إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب:

وقال أهْلُ الطبيعة: إنَّ لا حَيَوان إلاَّ بالحرارة والرطوبة، أيْنَما كان الماءُ والشمس تولَّد فيه الحَيوان، وقد يكون من غير نسلٍ، ونَرَى حَيَوانًا يكون فى جوف صَخْرةٍ صَمَّاءَ مُلَمْلَمَةٍ، والله يخلق ما يشاءُ، قال تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠، ٦١) وذُكِرَ عن الحجَّاج أَنَّهُ رئى فى المنام على حالة حسنة، فسُئِلَ عن ذلك، على ما كان من جوره، فقال: «رَحِمَنى ربِّى بكَلِمةٍ قُلْتُها: مَرَرْتُ يومًا على زرعٍ، فقُلْتُ: لو شاء الله، لأنبتَهُ فى النار واليَفَاع!» (أى فى الصحارى التى لا ماءَ فيها) وقال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

ولم يبلغ الإنسان بعِلْمِه أكْثَر من معرفة الطبيعة: علاجُ ضعيف لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه، فعالجوا الأبدان بما أدركَتْهُ، عقولُهم، وجرَّبوه بأعمارهم، وتركوه سلفًا فى الأواخر، فكلٌّ يُعَانى على مقدار تَجْرِبَتِه...[1] ولا يوافِقُ القِراءَةَ حَظًّا حسنًا ومَعْرِفةً بهذا الشأن، فقد أَخْطأَ وتكلَّفَ، وقالوا: إِنَّ الدواء المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب: يُنقِّيه ويحلقه، فاستعمالُه فى زمان الخريف أَوْلَى فى سُلطان السَّوْداء فيه، كما أَنَّ استعمالَ الفَصْد فى زمان الربيع تخفيفٌ لا يحظى من أَخرج فيه الدم، وإِنَّ أَشْبَهَ شىء الأغْذية بمزاج الإنسان: فالخُبْزُ النَّقِىُّ واللحم الثَّنِىُّ والشراب الحَوْلِىُّ، فمَن اقتصر على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم، قوىَّ البِنْيَة.

وقيل لجالينوس الحكيم، وكان فى زمان المسيح ـ عليه السلام: «إِنَّ الله أرسل نبيًّا يبرئُ الأكْمَه والأبْرَصَ!» فقال: «وأنا أُعالِجُ الأكْمَهَ والأبْرَص!» فلمّا قيل: «يُحْيى الموتَى» لم يُصَدِّق ذلك حتى رآه مُعايَنَةً حقّا.

---

(١) بياض بالأصل.

٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم:

وتُنْكِرُ الحُكَماءُ ما يزعم الناسُ من رُؤية الجِنّ، وتُكَذِّب من يقول بسماع نُطْقِهم أو كلامهم على ألْسِنة البشر، وتقول: إنَّه لا يتكلَّم إلا من له لِسانٌ وآلة تُعينه، وإلاَّ، فكَيْف تنطق ريحٌ تهبُّ؟ إنما هو بِرْسامٌ يعرض فى دماغ مَن يَدَّعى ذلك، فيتصوَّر فى دماغه أمْرٌ ما يخيَّل له بفساده أنه يتكلَّم ويسمع، ما ليس منه شيء على حقيقةٍ، فيَهْذِى هذيانًا، ضَرْبًا من الروحانية التى يكون الإنسان، مُفكرًا فى بلدةٍ أو شَخْصٍ أو صورةٍ من الصُّوَر: إذا حَدَّثْتَهُ نَفْسُه بها، صار كالناظِرِ إليها، وإن سدَّ عَيْنَيْه، أو كالنائم يَرَى ما تُحَدِّثُهُ به نفسه، أو كالناظِرِ فى المِرآة يَرَى ما ليس بِمَوْجود، هذا لعمرى مَذْهَبٌ خُولفَ به طريقُ السُّنَّة، والله يقول: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (النمل: ٣٩) وقَوْلُه: ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧) وهذا دَلِيلٌ على أنَّه لا يكون النطقُ إلاَّ بِلِسانٍ، ولا المرويَّة إلاَّ ببَصَرٍ ليس على خِلْقة الإنْس، كلٌّ على جِبِلَّةٍ، يَرَى ويسمع ويعقل.

ولولا ذلك لم تَدِنْ، ولا سبَّحَتْ، ولا اهْتَدَتْ لِمَا يُسِّرَتْ له، إنَّ الطَّير التى هى عندنا لا تعقل وَصَفَها الله بمعرفَته، فقال: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: ٤١) وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) ووَصفَ بالسجود النجم والشجر والدوابَّ التى هى عندنا جَوَامِدُ، فكَيْفَ أحَدُ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْن بُشِّرا بالثواب، وأنْذِرا بالعقاب، وخُوطِبَا بما خُوطِبَ به الإنْسُ، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى﴾ (الأنعام: ١٣٠).

فمن لا يؤمنُ بأنَّهم لا يتكلَّمون ويعقلون، فلا يؤمن بالملائكة، ويحتاج أن يكون قولُه هذا نسقًا فى كلِّ من ليس له لسانٌ وجَوارِحُ أنَّه لا يتكلَّم بجَوارِحِ الإنسان، فالملائكة لا توصَف بيَدٍ ولا لسان، وهُم المنْزَلون بالوَحْى على الأنبياء والمُخاطِبون لهم بالكُتُب والسُّنَّة: فلا يؤمن بالرسالة مَنْ يَتمَذْهَبُ بهذا.

٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب:

وقالوا: إنَّ الجماع من أكْبَرِ أدْوِيَةِ السَّوْداء لسرورِ تلك الساعة، ودُخول الحَمَّام، لما يعرض الإنسان من الانطراب فيه، مَنْ سرَّه أن تقرَّ عينُه حياتَه، فَلْيتمتَّعْ ما وَجَدَ سهولةَ شَهْوَتِه، ومَنِ اغْتَنَمَ ساعةَ لذَّتِه، فقد غَنِم[1]، ومن أخَّرَها، فقد عَدِمَ! فإن الإنسانَ ابنُ الآن!.

وقالوا فى الجلوس على المِيَاه والرِّيَاحِين ممّا يُسْلِى العاشق ويتداوى من أحزانه به.

وأمّا أنا، فأقولُ: إنَّ ذلك يزيد فى تَذْكاره، ونقيم البُرْهانَ على ذلك أنَّ النفسَ لا تولع إلاَّ بما استَحْسَنَتْ، فكلُّ مُسْتَحْسَنٍ تَراهُ يُخْرِجُها إلى ذكر الأسْنى فى خاطِرِها، وكلُّ حَديث إنما يسوقه إليه، وكلُّ ما زيدَ تَذْكاراً زاد شوْقًا، فأعقبه سَهَرًا وقَلقًا، والشىءُ لا يُعَانَى إلا بضدِّه: فكيفَ يشغف بحسنٍ ويُسليه حُسْنٌ؟ بل يُوقظه ويشغله! ألا تَرَى أنَّ المكروبَ يتفَرَّج بالسُّرور، والسُّرورَ، يضمحلُّ بالكَدَرِ؟.

وليس لعاشق مُرَزَّإٍ بمالٍ ولا أهل، فيتسلَّى بما يُذهب غُمومَه، بل هو من شأنه فى لَذَّةٍ حلاوتُها مشوبَةٌ بحرارَةٍ: وهو حُكْمُ الحلو كلِّه فى المُذَاقَة،

(١) فى المطبوع: «عنم» بالعين المهملة.

لا يكون إلاَّ مائلاً إلى الحَرارَة؟ وكذلك فى المُشَهَّيَات[١]: كلُّ ما تَمَّتْ حَرَارَتهُ، طابَ ريحُهُ.

وإذا قاس حالَ أزمنته التى كانت تَسُرُّه على ضروب من حالات الصبوة، لم يَجِدْ فيها مدَّةً كانت عنده أفْضَلَ، وأبْلَغَ فى السرور، وأهَشَّ للنفس وألْيَق بالحِسِّ وأذكَى للقلب، وأصْفَى مشربًا، وأهْنَأَ طَعْمًا، من تلك المُدَّة، وإنْ كان فيها بعضُ جَوًى، فإنَّه «لا بُدَّ بعد الشُّهْدِ من إبَرِ النَّحْلِ» ودواؤُهُ، ما لا يَرْضاهُ، ولا يختاره بدلاً مما هو فيه، إن يَشْغَلْه من ذلك خَطْبٌ كبيرٌ، ينسى به ما كان عليه، والذى هو بسبيله عنده أوْلَى.

٩٤- تأملات نظرية وأمثلة:

يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا:

والصَّبْوة تُحدث للإنسان هَيَجانًا وهُمُومًا: كالمُهْتَمِّ بالنظر فى ماله، أو المُشَغَّب بمُحاولَة ما يُصْلِحُه، فليس كلُّ شغب ضارًا، بل يؤلم منه مُكابَدة الأعداء ومقاساة طَلَب العيش، الذى، إن فتر عنه شَقِيَّ، لا طَلَب الزيادة فى الرزْق، فإن ذلك يَسْعَى كالبَطِرِ الذى هو بالخيار فى الكدِّ والراحة.

والنفسُ تَوَّاقَةٌ متى سَمعَتْ إلى مَرْتَبة، تاقَتْ إلى ما فوقها، فالعاقِلُ يَرَى أنَّ كُلَّ كَدٍّ وطَلَبٍ دون السَّعْى فى طَلَبِ ما لا بُدَّ منه من قِوام العيش فَخْرٌ وأشَرٌ ورَغْبَةٌ وحِرْصٌ، ولذلك هو الإنسانُ عن كلِّ شيء مَسْئُولٌ، إلاَّ عن ثلاثة: طعامٌ يسدُّ جوعَه، وثوبٌ يستر عورَته، وبَيْتٌ يكنُّه من الشمس، ولو أنَّ له الدُّنيا أجْمَع، لم يكن له منها زائدًا إلاَّ حظُّ العَيْن الذى يستوى به فيه مع غَيْره من الناظرين، فسلم من تبعاته[٢]، وتورَّط هو فى حِسابه وأوزاره،

(١) فى المطبوع: «المُشْتَهات».

(٢) فى المطبوع: «تعباته».

وما كان إلى انقطاع ونفـاد، فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فـيه، لو آلَتْ حالُه إلى السلامة بعد ذهابه، لا عَلَيْـه ولا لَهُ، فكيفَ، وهو قد أيْقَنَ بالفَناء وبَعْدَه الحساب والجَنَّةُ أو النارُ؟ وقـال المَسـيح ـ عليـه السلام ـ: «الدُّنْيـا قَنْطَرَةٌ: فاعْبُروها ولا تَعْمُروها!».

وعلى أنَّه لا يُوجَد أحَدٌ يزهد فى حالٍ كلَّ الزهادة، حتَّى يبلغ منه أمَلَه أو بَعْضه، فـإن الزهادة الطبيعيَّـة إنما تكون فيما تكْرَهُ النفـسُ، ولا بُدَّ من مَيْلِها إلى ما فيه أدنَى سُرورٍ، والله يقول فى الإنسان، لعِلْمِه به: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العـاديات: ٧) فكأنَّ الشىء، إذا أُدْرِكَ، انصـرفت عنه النفسُ لبُلوغ نَهْمتِها، ومتى تمنَّع عليها، كانت به أشَدَّ كَلَفًا.

ولقـد بَلَوْتُ من نفـسى بَعْضَ ذلك، إذ الطبعُ البَـشَرىُّ واحِـدٌ، لا يكاد يَخْتَـلِف إلاَّ فى الأقَلِّ، ولذلك أُمِرَ الإنسـانُ أن يحبَّ لأبناءِ جنسه مـا يحبُّ لنفسه، حَضّاً[1] على العَدْل والإنصاف.

وأجدُنى فى كثرة المال، بَعْـدَ تَمَلُّكى عليه مع ذهابه، أزْهَدَ مِنِّى فيه قَبْل اكْتِسَابِه، مع شُفوف الحـال إذ ذاك على ما هى عليه الآن، وكذلك شأنى كلُّه فى كلِّ مـا أدركْتُهُ قَـبْلُ من الأمْرِ والنَّهْـى، واكتسـابِ الذخائر، والتـأنُّقِ فى المَطاعِمِ والملابِس والمراكِب والمبانى، ومـا شاكلَ من الأحوال الرفيعة التى نشأنا عليها، حتَّى إنه لم يَبْقَ من ذلك ما تَتَمَنَّاهُ النفسُ، وما لا تظنُّه، إلاَّ وقد بَلَغْنا منه الغايـة، وتجاوَزْنا فيه النهـاية، ولم يكنِ عند الحصـول عليه ينقطع ويذهب وشيكًا، فتطول عليه الحسـرةُ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام! بل، تمادَى برهةً من عِشْرين عامًا، وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يؤَازِيه، إذ رُبِّينَا فى حِجْرِه.

ووَجَدْتُنِى، بعد فَقْـد هذا كلِّه، على الوَلَدِ أَحْرَصَ مِنِّى على ما سِواهُ من

(١) فى المطبوع: «حظا».

كلٍّ ما وَصَفْنا، لعُدْمِهِ ذلك الوقت، وقلتُ فى نفسى: «الغايةُ التى إليها يَسْعَى الناسُ من أمْـر دُنْياهـم، قد أدْركناها، وشُـهِرْنـا بها فى الآفـاق، ولا بُدَّ من فَقْدِها، باكِرًا كان أو مُؤخَّرًا، بحياةٍ أو موتٍ! فنحسب هذه العشرين عامًا هى مائة عامٍ، إذا تمَّت، سواء، وكأن لم تغْنَ بالأمْس! ونَحْنُ الآنَ جُدراءُ بالنظر فيما نَبْتَغيه، ولله أن يَقْضِيَ ما شاءَ!».

وقِيلَ لرَجُل حرَّاث: «هَلْ زرعتُمْ؟» فـقال: حرَثْنا، واللهِ الزارِعُ!» وكذلك ذُكِرَ أنَّه لم يَبْقَ من المُتَوَكلِّـين على الله غَيْر الـمُزارِعين، فـإنَّهم يدفنون فى الأرض أقواتَهم ويطلبون فَضْلَ الله وبركَتَه.

٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده:

وكان تدبيرُنا هذا إلهـامًا لينفذ القَدَر، بكَوْنِ مَنْ نشأ من الوَلَدِ، لم يتـبعَّد وقته، ولا كان فى غير مكانه.

(وذكر الفَـلاَسِفَـةُ أنَّ الوَحْـيَ يتجـزأً على ثلاث: كلامٌ، وإلْهـامٌ، ومَنامٌ، وهو قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل: ٦٨) وقِيلَ فى قوله - عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص: ٨) إنَّما كان وَحْىَ إِلْهَامٍ، وكان النبىُّ - ﷺ - يقـول فى بعض أقسامه: «لا! ومُقَلِّبِ الـقلوب!» فإنَّها بين يدى الرحمن يُقَلِّبُها كيف شاء لينَفِّذَ فيه أحكامَه وتجرى عليها أقدارُه).

فما بَقِيَ لنا من الآمال غَيْر مالٍ حَلالٍ للمعاش، يغنى عن السؤال، وعَمَلٍ صالحٍ للمَعاد، يُنْجى من العقابِ ويوجب الثواب.

وقد كان سُـقْرَاط الحكيم يكْرَه الوطأ مدَّة عُـمُره، يَعْتَقِدُ بذلـك أنه مُهْرِمٌ للجسم ومُسْرِعٌ إلى الفناء، فقد قيل: إنَّ فـاعِلَ ذلك مُقْتَبِسٌ من حَيَاتِهِ، فمن

شاءَ، فَلْيُقَلِّلْ، ومن شاءَ فَلْيُكْثِرْ! ولهذا أرجح الجاحِظُ فى «كتاب الحَيَوان» بَأنَّ الخصىَّ إنَّما طال عُمُره من أنَّه لا يُجامِع.

وأمَّا أنا فأقول[1]: إنَّ تلك الساعة التى يستحيل فيها عن الإنسانيَّة بقطْعه إلى [الحيوانية][2] أشَدُّ استِفْراغًا، وأذْهَبُ لجَوْهَريَّته، وأقطع لعُروقِه من أن لو جامَعَ كلَّ يوم فى عُمُره عشر مَرَّات، لأنَّ المُجامِعَ مُخْرِجٌ للفضول، وهذا خُرِّج منه الجَوْهَرُ، وفُرِّغَتْ عروقُه، ولُيِّنَتْ لحمُه، وأُضْعِفَتْ عُصُبُه، وأرْخَتْ جِلْدَتُهُ.

ولمّا كَبِرَ سِنَّ سُقْراط، وعَلِمَ أنَّه ليسَ بعد الكِبَر إلاَّ الموت، جَامَعَ مَرَّةً من عُمُرِه، آخِرَ زمانِه، وتأوَّلَ فى ذلك إتمامًا لحكمة البارئ ـ عزَّ وجلَّ ـ وقال: «لم تكن حِكمةُ النسل إلاَّ بهذا الفعل، وإنْ أنا مُتُّ تارِكًا له أصلاً، كُنْتُ كالساخِط أو المُعنِّت لِمَا رتَّبَه الرَّبُّ، وعَسَى بذلك نستوجب عقابَه!» ثمَّ قال، إذا حضره الموت: «ما أظُنُّ عيبًا علىَّ إلاَّ مُجامَعة تلك الساعة!».

وكان من نِعْمة الله علىَّ إن رزَقنى بِكْرَ أولادى ابنة، لم يَزَل قَبيلُنا كلُّه يتبرَّك بها، ويكْرَه أن يكون بِكْرُهُ ابنًا ذَكَرًا، وقد رأينا فى سَيْف الدوله أبينا ـ رحمه الله ـ أن لم تتمَّ له فرحتُه بذلك، على أنَّ هذا ليس على العموم، وإنَّما ذَكَرْناه للتفاؤُل، إذ قال نَبيُّنا ـ ﷺ ـ: «تَفَاءَلُوا ولا تَطَيَّروا!» فَنَحْنُ قد تَفَاءَلْنا، لا سيَّما بما شهر عند أهالينا وقالوهُ قديمًا، ولو كان ضِدَّهُ، ما ذَكَرْناهُ، للنهى عنه.

ثمَّ رزَقنا بعد هذا ابنَيْنِ، لم نُبَشِّرْ بالاثنين، كى لا يجتمع علينا حزنُ ذلك مع ما نَحْنُ فى سبيله، لُطْفًا من الوهَّاب وإنعامًا وإحسانًا، فتَعْدادُ نِعَمِ الله

(١) فى المطبوع: «أقول».

(٢) مكان ما بين الحاصرتين بياض بالأصل.

شُكْرٌ لها، والإعلانُ عى وَجْهِ الشكر والتقـوى، لا على الفَخْرِ والخُيَلاء، من أوْجَبِ ما يأخذ به الإنسانُ نَفْسَه، قال النبيُّ - ﷺ : «أنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدم، ولا فَخْر، وأنَا أفْصَحُ العَرَبِ، ولا فَخْر!».

٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه - راضين عنه أو ساخطين عليه:

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهتبالِنا إلى وَضْع هذا الكتاب، وهو لَعَمرى بمنزلة الابْنِ الذى يُبْقِى ذِكْرَ أبـيه فى العالَم، لنُبَيِّن به عن أنْفُسنا مـا أشكل على الجاهِلِ من مقالة سوء [فى دَوْلَةٍ] زَعَمَ الحاسدون أنَّ منها كان سقوطُنا، ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَـها لِمَا نرجـوه من ثوابنا، وحَسناته لبُـعْدِنا منها ونَـزَاهتنا عنها، وإنَّمـا وَضْعنا هذا الكتـاب لمن أشكل عليــه الأمْرُ من أهل الفـضل والحقِّ، المُحبِّين لله فينا، الوادِّين الخَيْرَ لنا، ولا يزيد البُغاة إلاَّ طغيانًا وتَعْنِيتًا.

فنردُّ على أهْلِ الإنصاف وذوى الألـباب: «إنَّكم أنْتُم المخَـاطَبُون من الله ورسوله! فَعَلَيْكم اعـتِمادُنا، وإيَّاكم خاطَبْنا، ولكُم ما تـكلَّفْنا! فلا عَمِىَ بكم عن المعرفة تحيُّدُكم عن المِنْهـاج، ولا شَنَآن لِتَرَةٍ سَلَفَتْ تُحرِّفكم إلى نفثات الحاقدِين! والله يجعلنا فى الجنَّة إخوانًا، كما جَعَلَنا على الخَيْر أعوانًا!».

ونَرُدُّ على من اعْتَرَضَ جَـهْلاً أو حِقْدًا: «اخسـأ بِجَهْلِك، ومُتْ بِغَيْظِك! فلَيْسَت الأقدارُ جاريةً على اختيارك، ولا أنت المُخاطَبِ! بل تأخُذ بأدَبِ الله تعـالى لنبيِّـه - ﷺ - فى قـوله: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعـراف: ١٩٩) وهل تنقمك، أيُّها الطاعِن لنا، أن ورثْنا مُلْكًا عن آباء كِرام، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمُرك كلِّه؟ إذ قالت العُلَمَاءُ إنَّه من عاش ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحـابه، فهو، وإن قَصرَ عُمُرهُ، طويـلُ العُمُر، مع أنَّه كان فى

طاعةٍ لم تُوصَف مقدمًا، بحمد الله، بجورٍ ولا طغيان، ولا سَفكْنا دمًا، ولا غَصَبْنا مالاً، وكانت مُدَّتُنا فيه نحو من عشرين عامًا خَيْرًا من سِنِينَ، إذ لَيْلة القَدْر خَيْر من ألف شهرٍ، وتمامُ المدد على قديم الدَّهْر عادةٌ لا تُستغرَب لنا خاصَّةً، ولا بُدَّ من الفراق! فلله الحمدُ إذ لم نفقدها بفَقْد عقولنا ولا أدياننا، ولا تمَّتْ بنفادِ أعمارِنا: فَيومٌ من عُمُرِ الإنسانِ يذكر الله فيه خَيْرٌ من تَمامِ عَمَله، ومِيْتَةٌ على بلاء وتذكارٍ خَيْرٌ من مِيْتةٍ على فِتْنةِ غَفْلَةٍ.

٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء. حياته الخاصة

ثمَّ أضربْتُ عن وَصْف كلِّ جميلٍ فَعلْناهُ، وحزْمٍ استَشْعَرْناهُ، وخِدْمةٍ للدولة تكلَّفْناها.

وطَلَبْتُ بُنيَّات الطريق، وتَتَبَّعْتُ ما لا عارَ فيه على الملِك، ولا نَقْصانَ في المملكة، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشغل كي تعقب نَشَاطًا، وعَمَّا دُفِعْنا إليه تَسْلِيَةً، فقد قالت الحُكماءُ: «تَرْكُ اللذَّات يُعْقِب البَرَدَة، ويؤثِر في الجِلْد أدْواءً مُنْكَرَةً، وقيل: إذا لم يكن للمرء على البقاء مَقْدُرَة، فَلْيتمتَّع، فإن تَرْكَ ذلك للنفوس.

فهَيَّجْتَنا بِلَفْظك، وأخْرَجْتَها من حيِّز الهَزْل إلى الجدِّ، وكُنْتَ كَجَارِ سَبَّة: إن رأى حسنةً، كَتَمَها، وإن رأى سيِّئة، أذاعَها، فطَفَّفْتَ وأرْبَيْتَ إن افْتَرَيْتَ، وما أذَعْتَ هذا، وأنت تَعْلَم أنَّه لم أكُن مخلوعَ العذار، ولا أخلدتُ إلى راحة توجب الغفلة، كالذى صَنَعَ من كان قَبْلَنا من الملوك، وتَعَفَّفْنا عن الدماء والأموال والحُرَم!.

ولم يَبْقَ لك ما تقول: «إنَّما كان صاحِبُ غَرْناطة حريصًا على جَمْعِ

المال، مُحِبّاً فى الحِسان، يُنادِم الصبيان!» [وإذًا] لم تُحْسِن الرويَّة، ولا ظَنَنْتُه فكراً.

أَلَسْتَ تعلَم، أيُّها الجاهل، أنَّ الملكَ لا ينتَفِع من المال إلاَّ بما كان أوقاراً؟ وهَل استوجب الملكُ إلاَّ بذلك؟ وكَيْفَ لا يحرص على صيانةِ عِزِّه والعُدَّةِ على عدوِّه؟ ما أنساكَ لو عَلِمْتَ أنَّه مَنَعَ من حقٍّ أو أعطَى فى غَيْرِ ما يجب؟ فقُلْ مَتَى ضاع مَعْقِلٌ، أو رفض جُنْداً، ودخلَتْ داخلةٌ من التقتير أو المنع؟ أو مَتَى شكا رجلٌ من المسلمين أنه أخَذَ مالاً بغَيْرِ حق؟ لم تستَطِعْ على تزوير ذلك! فالأَغْلَبُ يعلم صِحَّته، وأكْثرْ من قَوْلك متى خرج من عنده شاعِرٌ بصلَةٍ جَزْلةٍ، أو متى خرج [مادِحٌ] بكسوةٍ سَنِيَّةٍ: أمرٌ لا يحتاجُ فيه إلى اعتذار، إذ العَمَل به من الأدبار.

وأمَّا مُنادَمة الصبيان، فإذ لم يكن بُدٌّ من استعمال شيء من الخَمْر، التى قد تاب الله علينا منها، فما لِلعُقار والرِّيار؟ ليس هذا مَجْلسَ حُكْمٍ: فيُتَخَيَّرَ له ذَوو الأسنان، ولا وُضِعَ لتدبيرِ رأى، فيُشاوَرَ فيه أُهْلُ العِلْم، ولا مَيْدانَ حَرْب، فيُدْعَى إليه أنجادُ الفُرسْان! ولكُلٍّ وقتٍ حِكَمٌ: من استعمل فيه غَيْرَ شاكِلَتِه، فقد جَهَلَ، ولَم نكُنْ مع هذا نأخُذُ معهم فى جِدٍّ، ولا نُمكِّنُهم من أمرٍ، ولا نُنْهضُهم إلى غَيْرِ طريقَتِهم؟.

والمُستعملون لخدْمة الدولة مَشْهُورُون، ممَّن له حنكة ودرية: والخديمُ لا يكون نَدِيمًا: كَيْفَ تَصُول اليَوْم على من اطّلَعَ على عَوْراتِك البارحة، إذ السُّكر عورةٌ؟ أم كَيْفَ تأمُرُ بِخِدْمةِ الجُنْدية والشِّدَّة عليه فى الخروج مَنْ تَعَاطَى معك الكأسَ، وكثَّر معك المزاح والعَرْبَدة؟ ثمَّ تطلبُه لخِدمَتِك، فتَجِدُه عَشُولاً عمَّا يصلحك مَشْغُولاً.

وبغَيْـرِ هذا كلِّه، فإن الدُّوَلَ الكـبارَ لم يَزَلْ فيـها الغِلْمـانُ وأبناءُ الصنائع صغارًا وكِبـارًا، عَبِيدًا وأحْرارًا، وهُمْ بين يدى الرئيس جَمَـالٌ، وعلى خِدْمَته أعْوانٌ، ويتصرَّفَ الصغيرُ السنِّ فيما لا ينبغى للمُسِنِّ أن يتولاهُ، ولِكُلٍّ دَرَجَتُهُ ورُتْبَتُهُ، وهَل المُلْكُ والمالُ إلاَّ للتزَيُّنِ والتـجمُّل به، وانتخابُ الحِسان منهم تليقُ بهم الكسـوةُ السنيَّـة والمراكِبُ الفـارهة؟ وأخُوكَ من وَاتَاكَ، إذ يتـعبَّـد بمالِكَ من شئتَ يتعبَّد [خِدْمَتك من] حُرٌّ أو مَمْلوك، وإنَّ ابْنَ الإنسان، إذا لم يَصْلُح له. . .[1] إن يَقُلْ هذرًا، أىَّ عَمَلٍ ولَّيْناهُ على بلدة، أو صرَّفْنا إليه حُكْمَ رَعِـيَّة؟ إلاَّ مـا وَصَـفْناه، لا أدرى غَـيْره وإلاَّ. . . فـتكون مُـجْرِحًـا، ولإشارَتِكَ عاضدًا، أو تكون قاذفًا مُسْتَوْجبًا!.

جَعَلَنا الله وإيَّاكَ عن الشرِّ مُعْرِضين، وبطاعته عامِلين! إنه أكْرَمُ الأكْرَمِين! لا رَبَّ غَيْرَه، ولا إلهَ حَقٌّ حاشاهُ!.

كمل الكتاب، والحمدُ لله، وصلَّى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الملحق الأول

منتخبات عن «كتاب البيان المغرب»[1]
لابن عذارى المراكشى
عن دولة الأمير عبد الله بن بلكين بن زيرى

---

(١) فى هامش المطبوع: عن مخطوط مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(١)

وفى سنة ٤٦٥، كانت وفاة باديس بن حَبُوس على قول المُرَادى، والأكثرون على أنَّ وفاته كانت ٤٦٩، هكذا ذكر ابن القطَّان فى «نَظْم الجُمَان».

ذكر بيعة حفيد باديس بن حبوس

هو عبد الله بن بُلُكِّين الهالك بتدبير اليهودى المتقدم ذكره، وتسمَّى بالمُظفَّر بالله، الناصر لدين الله، وكان غلامًا لم يبلغ الحلم، فاتَّفق على مبايعته وَزَراءُ جدِّه ووجوه صِنْهاجة، وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف بسِمَاجة، فاستقلَّ بحاله ورياسته، وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين، وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جَيَّان، فكان ينهمك فى شرب من الخمر، ويحدِّث أحداثًا قبيحة من القتل، وكانت له كلبة سمَّاها لُبُّونَة، فمن أحدث له حادثًا أو استوجب عقوبةً، أمر به، فرُمِىَ إلى الكلبة، فأكَلَتْه، فتفرَّق الناسُ عنه وكرهوه، واتَّفقوا على تقديم عبد الله بن بُلكين المذكور فقام بأمره سِمَاجةُ خير قيام.

وطمع ابن عَبَّاد فى رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس، فحشد من كان عنده، واستكثر من الجند، وقدم إلى إغرَناطة، فبرز عليها، وبنى بقربها حِصْنًا على ستَّة فراسخ منها، وملأه بالرُّماة والرَّجالة، وترك الخيل فيه مع قائده، وأمرهم بالضرب على إغرَناطة وجِهَاتِها، فكان ذلك.

ثُمَّ لم يزل سِمَاجة يخدم الصبىَّ إلى أن بلغ مبلغ الرجال، فأراد الانفراد

بحاله، فنفى عن نفسه سِمَاجة، فلحق بألمَرِيَّة بمال كثير وحالة جسيمة، ولم يزل بها إلى أن هلك، وبقى عبد الله بن بلكين بغرناطة، وسيأتى خبرُه فى دولة المُرَابِطين إن شاء الله تعالى.

(٢)

وفى سنة ٤٨٢، طرد عبدُ الله بن بُلُكين من غرناطة مُقَاتِلَ بن عَطِيَّة البرزالى[1]، وكان فارِسَ الإسلام، وهو مع إخوته فى ثلاثمائة فارس، فكان ذلك ابتداءَ نحوس عبد الله بن بلكين.

وفيها، قام مُؤَمَّل، مَولى بَادِيس بن حَبُوس، فى قَصَبَة لَوْشة، على حفيد مولاه بدعوة لَمْتُونة، فأخذه عبدُ الله وسجنه.

. . . . . .

فأوَّل من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحبُ إغرناطة عبدُ الله ابن بُلُكِّين، كما ذَكَرْنا، فنظر فى اختزان الأقوات، وألْحَقَ الرُّماة والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصَّل بعضها ببعض، وأقام عليها الدَّيْدَبَانات، ونصب الرعَّادات، وملأ بيوت السلاح، وجدَّ فى ضرب السِّهام، وبذل فى ذلك جهده، وإذا نفدت هذه، لم تغْن العُدَّة، ونقل المال والذخيرة، وخرَّج المتاع والآنية إلى قصبة المُنكَّب لكَوْنها فى غاية المنعة وعلى ضفَّة البحر، ولم يستأصل ذلك لكثرته، وهدم حصونًا، وتوهَّم عليه القيام منها، ومن مأمَنِه يؤتى الحذر.

وعمد على مال كثير، وثياب نفيسة، وتُحَف جليلة، وأعلاق رفيعة، فوجَّه بها إلى الإذفونش، وكتب إليه متطارحًا عليه، مستجيرًا به، وأعلمه أنَّ

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الزناتى».

البلد بلدُه، وأنه فيه فائدة، فاهتزَّ لذلك إذفونش، وقبل المال والهدايا، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مِلَّته أن يشدَّ اليد عليه فى ملكه، ولا يتركه لضَيْمٍ ولا هضيمة، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه فى نصره، وراجَعَه بمثل ذلك من قوله، فقويت نفسُ حفيد باديس بذلك.

وفى ذلك يقول السِّمْسَارِىُّ:

صاحِبُ غَرْناطة سَفِيهٌ
وأعْلَمُ الناس بالأُمور
صانَع إذْ فُونْشُ والنصارَى
فانْظُرْ إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافًا
لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهًا
كأنّه دودة الحرير
دَعْوهُ يبنى فسَوْفَ يدرِى
إذا أتت قدرة القدير

واتَّصلت أَبناؤُه بأمير المسلمين على حقيقتها، فاشتدَّ غضبُه، واستزاد جزعه.

وكان أبو جعفر القُلَيْعِىُّ من أهل إغرناطة فريد عصره فى الخير والعلم والتلاوة، والمُشار إليه...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الملحق الثانى

منتخبات عن كتاب:

«الإحاطة فى تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب السلمانى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(١)

ترجمة عبد الله بن بلكين[١]

عـبد الله بن بُلُكِّين بن بَادِيس بـن حَبُـوس بن ماكْـسَن بن زِيرى بن مَنَاد الصِّنهاجيُّ أمير غرناطة.

أوَّلِيَّتُه: قد مرَّ ذلك فى اسم جدِّه ما فيه كفاية.

حـــاله: لَقَبُـه المُظفَّر بالله، الناصر لدين الله، ولى بعد جـدِّه الحاجب المظفَّر بالله فى شوَّال سنة ٤٦٥ وصحبه سِمَاجة الصِّنهاجيُّ تسع سنين.

قال الغافقيُّ: وكان قد حاز حظًا وافرًا من البلاغة والمعرفة، شاعِرًا جيِّدَ الشعر، مطبوعَه، حسنَ الخط، كـانت بغرناطة ربعة مُصْحَف بخطِّه فى نهاية الصنعة والإتقان.

ووصفَهُ ابنُ الصَّيْرفيّ، فقال: كان جبانًا، مغـمد السيف، قلقًا، لا يثبت على الظهر، عِزْهاةً، لا أَرَبَ له فى النساء، هيَّـابةً، مفرط الجزع، يخلد إلى الراحات، ويستوزر الأغمار.

خلعــه: قال: وفى عام ٤٨٣، تحرَّك أميـر المسلمين يوسف بن تاشُفِين لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر ويمَّم قُرْطُبة، وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقده، حسبما تقدَّم فى اسم مُؤمَّل مَوْلَى باديس وقدَّم إلى غرناطة أربع محلاَّت، فنزلت بمقربة منها، ولم تمتدَّ يدٌ إلى شىء بوَجْه، فسـرَّ الناسُ واستبشروا، وأمنت البادية، وتسـايَلَ أهلُ الحاضرة

---

(١) الإحاطة ٣/ ٣٧٩.

إلى القُـرَى، وأسرع حفـيدُ باديس فى الـمال، وألحقَ السـوقة والحـاكّة[١]، واستكثر من اللفيف، وألحَّ بالكتْب على إذْفُونْشُ بما يطمعه.

وتحقَّق يوسفُ بن تاشُفين استشراف الحـضرة إلى مَقْدَمه، فتحرَّك، وفى ليلة الأحد لثلاثِ عشرة خَلَتْ من رجب، اجـتمع إلى حفيد باديس صَنَائعُه، فخوفوه من عاقبة التربُّص، وحملوه على الخروج إليه، فركب، وركبت أُمُّه، وخرجا، وتَرَكـا القصر على حاله، ولقى أمـير المسلمين على فـرسخَيْن من المدينة، فترجَّل وسأله العفو، فعَفَا عنه ووقف عليه، وأمره بالركوب، فركب وأقبل حتى نزل بالمشايخ[٢] من خارج الحضرة، واضطربت المحلات، وأمر مُؤمَّلاً بثقاف القصر، فتولَّى ذلك.

وخرج الجمُّ من أهل المدينة، فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشُفين، فقبلهم وأنَّسهم وسكَّن جانبَهم، فاطمـأنُّوا، وسهَّل مؤمَّلٌ إليه دخول الأعيان، فأمر بكَتْب الصكـوك ورفع أنواع القَبَالات والخَرَاج، إلا زكاة العـين وصَدقة الماشـية وعـشر الزرع، واستـقصى ما كـان بالقصـر، فظهر على مـا يحول الناظر، ويروع الخـاطر، من الأعلاق والذخـيرة والحلى، ونفيـس الجَوْهَر، وأحجـار الياقوت، وقـصب الزمرُّد، وآنيـة الذهب والفضة، وأطـباق البِلَّوْر المحكم، والجُرْجانيَّات، والعِراقيَّـات، والثياب الرفيعة، والأنماط، والكلَل، والستـائر، وأوطئة الديبـاج، ممَّا كـان فى ادِّخار باديس واكـتسـابه، وأقبلَتْ دوابُّ الظهر من المُنكَّب بأحمـال السبيك والمسبوك، واخـتلفت أُمُّ عبد الله

(١) الحاكة: أعنى السفلة وأهل الشر، ومفردها (الحاك).

(٢) فى المطبوع «بالمـشيخـة» والمثبت من الإحـاطة ٣/ ٣٨٠، وبهامشـها: «هو، كمـا يبدو من ضواحى غرناطة الإسلامية يصعب اليوم تحديد موقعه.

لاستخراج ما أُودِعَ ببطن الأرض، حتى لم يَبْق إلا الخرثى والثقل والسقط، وزَّع ذلك الأمير على قوَّاده، ولم يستأثر منه بشيء.

قال: ورغب إليه مؤمل فى دخول القصر، فركب إليه، وكثُر استحسانه إيَّاه، وأمر بحفظه وتفقُّد أوضاعه وأفْنِيَته.

ونُقِلَ عبدُ الله إلى مَراكش، وسنُّه يومَ خُلِعَ خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر، فاستقرَّ بها هو وأخوه تَميم، وحُلَّ اعتقالُهما، ورُفِّهَ عنهما، وأجروا المُرَتَّب والمُساهمة عليهما، وأحسن عبد الله أداءَ الطاعة، مع لين الكلمة، فقُضِيَتْ مآرِبُه، وأُسْعِفَتْ رغباته، وخفَّ عَلَى الدولة، فاستراح واستُرِيح معه، ورُزِق الوَلَدَ فى الخمول، فعاشَ له ابنان، وبِنْتٌ جمع لهم المال، فلما توفِّى ترك لهم مالا جمًّا.

مولده: وُلد عبد الله سنة ٤٤٧.

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطية[1]

مُقاتِل بن عطيَّة البِرْزالىُّ، يكنى أبا حَرْب، قال فيه أبو القاسم الغافقىُّ: من أهل غرناطة، ويُلَقَّب بذى الوزارتَيْن، ويعرَّف بالرِّيِّه لحمرةٍ كانت فى وجهه.

حالُه: كان من الفرسان الشجعان، لا يصطلى نباره، وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بنى بِرْزَال، وولاَّهُ الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس مدينة السُّيسّانة، والتقى به ابن عبَّاد وأخذ بمخنقها، وكان عبد الله

(١) الإحاطة ٣/ ٢٩٩.

يحرزه، وعندما تحقَّق حـركة اللمتونيِّين إليه، صرفه عن جـهِته، فقل لذلك قاصرُه، وأسرع ذهاب أمره:

شجاعـتُه: قال: وحضر مُقاتل مع عبـد الله بن بلكين أمير غرناطة وقيعة النيبَل فى صـدر سنة ٤٧٨، فأبلى فيـها بلاءً عظيمًـا، وجرح وجهُـه وخرق درعُه بالطعن والضرب، وذكـر من حضرها ونجا منها، قـال: كنتُ قد سقط الرمح من يدى ولم أشعـر، وحملت الترس ولم أعـلم به، وحملنى الله إلى طريق منجاة، فركبتُها مـرة أقَعُ ومرةً أقوم، فأدركتُ فارسًا على فرس أدهم، ورمحه على عاتقه، ودرقتُه على فخذه، ودرعُه مهتكةٌ بالطعن، وبه جرحٌ فى وجهه يثعب دمًا تحت مِغْفَره، وهو مع ذلك ينهض على رسله، فرجعتُ إلى نفسى، فوجدتُ ثقلاً، فتذكَّرتُ الترس، فـأخرجتُ حمالته عن عاتقى وألقيتُه عنِّى، فوجدتُ خـفةً وعُدْتُ إلى العدوِّ، فصاح ذلك الفـارس: خُذِ الترس!» قلتُ: «لا حاجة لى به!» فقال: «خُذْهُ!» فتركتـه ووليتُ مسرعًا، فهمز فرسه ووضع سنانَ رمحه بين كتـفَىّ وقال: «خُذ الترس، وإلاَّ أخرجتُـه بين كتفيْك فى صدرك!» فرأيتُ الموت الذى فَرَرْتُ منه، ورجعت إلى الترس، فأخذتُه، وأنا أدعو عليه، وأسـرعتُ عدواً، فقال لى: «على مـا كنت فليكن عدوَّك!» فاستـعذتُ وقلتُ: «ما بعـثه الله إلاَّ لهلاكى!» وإذا قطعة من خـيل الروم قد بصرت به، فوقع فى نفسه أنه يسرع الجَـرْى فيسلم وأُقْتَل، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه، عطف عليه كالعقاب وطعنه ووطره، وتخلَّص الرمح منه، ثمَّ حمل على آخر، فطعنه ومال على الثـالث، فانهزم منه، فرجع إلى، وقد هبتُ من فعله، ورشـاش دم الجرح يتطاير من قِناع المِغْفر لشـدة نفسه، وقال لى: «يا فاعل! يا صانع! أتلقى الرمح، ومعك مُقاتِلُ الرِّيَّة؟».

(٣)

ترجمـــة مؤمـــل[١]

مُؤَمَّل، مولى باديس بن حَبُوس.

حـالُه ومِـحْنَتُـه: قال ابن الصَّيْرَفى وقد ذكر عـبدَ الله بن بُلُكِّين حفـيدَ باديس، واستـشارته فى أمره لما بلغـه حركة يوسف بن تاشفـين إلى خَلْعه: وكان فى الجـملة من أحبـابه رجلٌ من عبـيد جـدِّه اسمُه مُـؤَمَّل، وله سنٌّ، وعنده دهاءٌ وفطنةٌ ورأىٌ ونظرٌ.

قال فى موضع آخر: ولم يكن فى وزراء مـملكته وأحْبار[٢] دولته أصـيلُ الرأى جَزْلُ الكلمـة إلا ابن أبى خَيْثَـمة من كتـبته، ومـؤَمَّل من عبيـد جدِّه، وجعفر من فِتْيانه.

رجع، قال: فـألطف به مؤمَّل فى القول، وأعلمـه برفق وحُسْنِ أدب أنَّ ذلك غـير صـواب، وأشار إليـه بالخروج إلى أمـير المـسلمين، إذا قَـرُبَ، والتطارُح عليه، فإنَّه لا يمكنه مدافعـته ولا يطاق حربه، والاسْتِجداء[٣] لـه أحمد عـاقبة وأيمنُ مغبَّـة، وتابعه على ذلك نُظَراؤُه من أهل السنِّ والحنكة، ودافع فى صدر رأيه الغلمـة الأغمار، فاسـتشاط غيظًا على مـؤمل ومن نحا نحوه، وهمَّ بهم، فخـرجوا، وقد سلَّ[٤] بهم فرقًـا منه، فلما جنَّهم الليلُ، فرُّوا إلى لَوْشـة، وبها من أبناءِ عـبيـد باديس قائدُها، فـملكوها وثاروا فيـها بدعوة أمير المسلمين يوسُف بن تاشُفين.

---

(١) الإحاطة ٣/ ٣٣١.

(٢) فى المطبوع: «وأحِبّاء» والمثبت من الإحاطة التى ينقل منها.

(٣) فى المطبوع: «والاستخذاء» والمثبت من الإحاطة.

(٤) تحرف فى المطبوع إلى: «وقد سبل» وصوابه من الإحاطة.

وبادر مؤَمَّل بخطاب يوسف المذكور، وقد كان سفر إليه عن سلطانه، فأعجبه عقلاً ونبلاً، فاهتزَّ إليه، وكان أقوى الأسباب على حركته، وبادر حفيد باديس لأمره، فأشخص الجيش لنظره صهره، فتغلَّب عليهم، وسيق مؤَمَّل ومن كان معه شرَّ سوق فى الحديد، قد أُركبوا على دواب هجن، وكُشفت رؤُوسهم، وأردف وراءَ كلِّ رجل من يصفعه، وتقدَّم الأمر فى نصب الجذوع وإحضار الرماة، وتلطفَ جعفر فى أمرهم وقال للأمير عبد الله: «إن قتلتَهم الآن، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك! فاستخرج المال، وأنت من وراء الانتقام!» فثقَّفهم، وأطمعوا فى أنفسهم ريثما شغله الهول، وأنفذ يوسف بن تاشفين فى حلِّ اعتقالهم، فلم تسَعْهُ مخالفته فأطلقهم، ولما ملك غرناطة على تَفْيِئة[1] تلك الحال، قدَّم مؤمَّلا على مُسْتَخْلَصه[2]، وجعل بيده مفاتيح قصره، فنال ما شاء من مال وحظوة، واقتنى ما أراد من صامت وذخيرة، ونُسبت إليه بغرناطة آثار، منها السِّقاية بباب الفخَّارين، والحَوْز المعروف بحَوْز مُؤمَّل[3]، أدركتُها، وهى بحالها.

وفاتُه: قال ابن الصَّيْرَفى: وفى ربيع الأوَّل من هذا العام، وهو عام ٤٩٢، توفِّى بغرناطة مؤَمَّل، مَولَى باديس بن حَبُوس، عبدُ أمير المسلمين وجابى مُسْتَخْلَصه، وكان له دهاءٌ وصبرٌ، ولم يكن بقارئ ولا كاتب، رزقَه الله عند أمير المسلمين أيَّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً، ولما أشرف على المنيَّة، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص، وأشهد الحاضرين

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «تفثيه» وصوابه من الإحاطة.

(٢) المستخلص هنا يقصد به الأملاك والأموال الأميرية (الإحاطة ٣/ ٣٣٣) حاشية!).

(٣) حوز مؤمل: اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يقع فى جنوب غربى الحمراء ويشتهر برياضه ومتنزهاته (الإحاطة ٣/ ٣٣٣ حاشية ٢) وتحرفت العبارة فى المطبوع إلى: «والحور المعروفة بحور مؤمل».

على دفعه إلى من استوثقه على حمله، ثمَّ أبرأ جميعَ عُمَّاله وكُتَّابه، وأنفذ رجلاً من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملة من مال نفسه، يُريه أنَّ ذلك جميع ما اكتسبه فى دولته أيَّام خدمته، وأنَّ بيت المال أولى به، ورغب فى ستر أهله وولَده، فلما وصل ذلك إليه، أظهر الأسف عليه، وأمضى تقديم صنيعته.

ثمَّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتجنه، وشقاء مَنْ خَلْفه بسببه، وعدَّد مالاً وذخيرةً.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١- فهـــرس الأعـــلام

(أ)

أبو إبراهيم اليهودى (ابن نغرالة): ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٥٤.

ولد أبى إبراهيم اليهودى: ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨٤، ١١٣، ١٦٦، ٢٤١.

ابن الأحسن السجلماسى: ١٣٠، ٢٠٦.

ابن الأحمر: ١٧٧.

أبو الأحوص بن صمادح (صاحب ألمرية): ٦١، ٦٢.

أختا عبد الله المؤلف: ١٧٢، ١٧٥.

الإذفونش: ٢٤٣، وانظر «ألفونش».

ابن أرقم ٦٩.

ابن الأصبحى: ١٢٢.

ابن أضحى الكاتب: ٨١، ٨٢.

ابن الأفطس = المتوكل

إفلاطون: ٢١، ٢٢.

ألبرهانش: ١٥٣، ١٥٤.

ألفونش السادس: ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ١١٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨.

(ب)

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله): ٢٤، ٢٦، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٣، ١٠٥، ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٢

باديس بن المنصور (أمير إفريقية): ٣٩.

باديس بن واروى: ١٧٨.

باطر (بطره): شولش: ٩١، ٩٦.

ابن البراء: ١٦٩.

بزلف (والى السوس): ١٩٦.

بقراط: ٢٢١.

ابن بكر: ٢٤.

أبو بكر بن مسكن: ١٤٨.

بلبار الصنهاجى: ١١٢.

بلكين بن باديس سيف الدولة (والد عبد الله المؤلف): ٢٦، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

بلكين بن حبوس: ٤٣، ٥٠.

بلكين بن زاوى بن زيرى: ٣٩.

(ت)
ابن تاقنوت: ١٢١، ١٢٢
تميم بن بلكين بن باديس المعز (أخو عبد الله المؤلف): ٦٦، ١١٥، ١٩٤، ١٩٥.
(ج)
الجاحظ: ٢٣٤.
جالينوس: ٢٢٢، ٢٢٨.
جعفر الخصى: ١٨٤، ٢٥١.
ابن أبى جوش: ١١١.
(ح)
حبوس بن ماكسن (أمير غرناطة): ٣١، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٥١.
الحجاج: ٢٢٨.
ابن الحديدى: ٩٩.
ابن الحسن النباهى (قاضى مالقة): ٨٢.
(خ)
ابن الخياط المنجم: ١٠٠.
ابن أبى خيثمة: ١٩١، ٢٥١.
(د)
داود بن عائشة: ١٣١.
(ذ)
ابن ذى النون: ٧٤، ٨٠، ٨٥، ٩٢، ٩٨، ٩٩.
(ر)
الراضى (ابن المعتمد بن عباد): ١٣١، ١٤٠، ٢٠٥.
أبو الربيع بن الماطونى: ٦٥، ١٦٣.
أبو الربيع النصرانى: ٨٦، ٨٧.
الرشيد (هارون): ٢٢٠.
الرشيد (ابن المعتمد بن عباد): ١٠٣.
ابن رشيق: ١٠٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩.
الرومى أبو النصرانى = ألفونش السادس.
الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالى): ٢٤٩، ٢٥٠.
ابن الريوله: ١٠١.
(ز)
زاوى بن زيرى: ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧
زاوى الصنهاجى: ١١٢.
زهير (صاحب ألمرية): ٥١.
ابن الزيتونى القروى: ١٩١.
(س)
سراج الدولة: ١٠٤.
ابن سعدون: ١٨٣، ١٨٨.
ابن السقاء: ٦٢.
سقراط: ٢١، ٢٣٣، ٢٣٤.
ابن سلمون: ١٤٧.

سماجة الصنهاجى: ٩٨، ١٠٩، ١١١، ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ٢١٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٩.
السمسارى: ٢٤٣.
ابن سهل (القاضى): ١٤٦، ١٤٩، ١٧٨.
السيد لذريق: ٢٠٩.
سير (الأمير المرابطى): ١٩٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨.
سيف الدولة = بلكين بن باديس والد عبد الله.

(ش)

شِشْلانْدُ: ٩٥.

(ص)

الصحراوى (أبو بكر عم يوسف بن تاشفين): ٢٠٦.
ابن صمادح = أبو الأحوص والمعتصم صاحبا ألمرية.
أبو الصمصام: ٢٠٦.
ابن الصيرفى: ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.

(ع)

ابن عباد (المعتضد بن عباد): ٦٠، ٦٣، ٧٦.
ابن عباد = المعتمد.
عباد ابن المعتمد: ٩٣.
العباس بن المتوكل بن الأفطس: ٢٠٨، ٢٠٩.
أبو العباس الحكيم: ١٦٥.
أبو العباس (كاتب حبوس): ٤٢.
ولد أبى العباس: ٤٧.
ولد عباس (كاتب زهير): ٥١، ٥٢.
عبد الله بن القروى: ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٧٧، ٧٨.
عبد الملك (القاضى): ١٣٠.
أم العلو (بنت عم ماكسن): ٨٦.
على بن أبى طالب: ٢١٩.
على بن القروى: ٤٩، ٥٣، ٥٥، ٥٦.
ابن عمار: ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٢١.
عمر بن عبد العزيز: ٢٤.

(غ)

الغافقى (أبو القاسم): ٢٤٧.

(ف)

فرقان: ٤٩
الفضل بن المتوكل بن الأفطس: ٢٠٨، ٢٠٩.

(ق)

القادر (حفيد ابن ذى النون): ٩٩، ١٠٣، ١٨٦.
ولد القاضى (صاحب باغه): ٨٢، ٨٣، ٨٤.
قرور: ١٣٨، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٥.

ابن القطان: ٢٤١.
ابن القليعى، أبو جعفر: ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨، ٢٤٣.
(ك)
كباب بن تميت: ٩٧، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥.
(ل)
لبيب الخصى: ١٦٧، ١٦٩، ١٨٤.
لذة الخادم: ١٩١.
ابن أبى لولا: ١٦٤.
(م)
ابن ما شاء الله: ١٨١
ماكسن بن باديس بن حبوس: ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩٧، ١١٩.
المأمون بن المعتمد: ٢٠٤.
المتوكل بن الأفطس: ١٣٢، ١٣٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠.
مجاهد (صاحب دانية): ٦١، ٦٢.
ولد مجاهد: ٨١، ١٠٠.
مخلوف بن ملول: ٧٦.
المرتضى: ٣٥، ٣٧، ٥٢.
ابن مرتين: ٩٣.
ابن المرة: ١٦٣، ١٦٥.
المستعين بن هود: ١٠٠.
مسكن بن حبوس المغرالى: ٧١، ٧٣، ٧٨، ٧٩.
المظفر (جد عبد الله): = باديس بن حبوس.
المعتصم بن صمادح (صاحب ألمرية): ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٢٢، ١٣٢، ١٤٠، ١٧٦.
المعتضد = ابن عباد.
المعتمد بن عباد: ٩٢، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٤١، ٢٤٩.
معد بن يعلى: ١٧٢.
المعز بن باديس (أمير إفريقية): ٣٩، ٤٠، ٥٩.
المعز = تميم بن بلكين بن باديس.
معز الدولة بن المعتصم بن صمادح: ٢٠٢.
مقاتل بن عطية: ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٠.
مقاتل بن يحيى: ٦٣.
المقتدر بن هود: ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤.
ابن ملحان: ٩٣.

منذر بن هود: ١٠١.
المنصور بن أبي عامر: ٢٧، ٣١.
المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس): ٦١، ٦٢.
المنصور بن المتوكل بن الأفطس ٢٠٧، ٢٠٩.
المؤتمن بن هود: ١٠١.
موسى: ٢١.
موفق (صاحب المدينة): ٥٣.
مؤمَّل ١٤٨، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨١، ١٨٨، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢.
ابن ميمون (أمين يهود اليسانة): ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥.

(ن)

النابة: ٦٣، ٦٩، ٧١، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢.
نعمان: ١٧٠، ١٧٦، ١٨١.

(هـ)

ابن هود = المقتدر.

(و)

واصل العلج: ٨٣، ٨٦.
والدة المؤلف: ١١٩، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.
ولد حجاج = يوسف بن حجاج.

(ى)

يحيى بن يفران: ٧١، ٧٦.
يدير بن حباسة بن ماكسن: ٤١، ٤٣، ٤٧، ٤٩، ٥٠.
ابن يعيش: ٨٢.
ابن يكون: ١٧٧.
يوسف بن تاشفين أمير المسلمين: ١٣٤، ١٣٦، ١٥٧، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.
يوسف بن حجاج: ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

الإفرنج: ٦١، ١٠٣.
البربر: ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٦١، ٧٩، ٨٣، ٨٦، ١١٨، ١٨٣.
بنو برزال: ٨٠، ٨٢.
بنو تاقنوت: ١٢٠، ١٢٣.
تلكاتة: ٧٦، ١١٢، ١٧٨.
بنو حمود: ٦٠.
الروم أو النصارى: ٩٢، ٩٥، ٩٨، ١٠٥، ١١٤، ١١٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٥، ٢٠٩، ٢٥٠.
زناتة: ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.
بنو زيرى: ١٥٨.
صنهاجة: ٣٨، ٤٠، ٤٩، ٥٠، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ٢٤١.
بنو عباد: ٦٣، ١٠٢، ١٩٩.
بنو اللوارنكى: ٩٩.
لمتونة: ٢٤٢.
المرابطون: ٦٢، ١٠٤، ١٠٩، ١٢٩، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٧١، ١٨٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٤٢.
المغاربة: ٧٦، ٧٩، ٨٠، ١٥٠، ١٨٤.
بنو مغيث: ٩٩.
اليهود: ٧٩، ١٦٣، ١٦٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٣- فهرس الأعلام الجغرافية

أرجذونة (Archidona): ١١٧، ١٢٠.
إسطبة (Estepa): ٩٧
إشبيلية (Séille): ٩٧، ١١٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩.
أشتنير: ١١٦.
حصن آشر (Iznajar): ٣٤.
إغرناطة = غرناطة
أساغمات: ٢٠٦.
إلبيرة (Elvira): ٣٣، ٣٥.
ألمرية: ٥١، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٥٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٤٢.
أنتقيرة (Antequera): ١٢٠.
أيرُش: ١١٧.
باب الفخارين (بغرناطة): ٢٥٢.
باب فنتالة (بمالقة): ١١٨.
باغه (Priego): ٦١، ٨٤.
بزليانة: ١١٦، ١١٧.
بسطة (Baza): ٩٣.
بطليوس (Badajoz): ١٣٢، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.
بلنسية (Valence): ٩٩، ٢٠٧، ٢٠٩.
بليلش (Vrlillos): ٩٢، ٩٣، ٩٦.
بياسة (Baeza): ٨٠، ٨١، ١٢١.
تدلس (Dellys): ٢٠٣.
تدمير: ١٠٢.
الجبل (نظر): ١٤١.
جريشة: ١٢٢، ١٣٢.
الجزائر (Alger): ٢٠٣.
جزيرة الأندلس: ١٢٩، ١٣٥.
الجزيرة الخضراء (Algeciras): ١٣٠، ١٣١، ١٩٣.
جطرون (Jotrón): ١١٧، ١١٩.
جليقية (Galice): ٩٥.
جيان (Jaén): ٣٤، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٩٧، ١١٩، ٢٤١.
حمارش: ١١٩.
الحمراء (Alhambra): بغرناطة: ٧٢، ١٦٣.
الحمة (Alhama): ١١٦.
حوز مؤمل (بغرناطة): ٢٥٢.
دانية (Denia): ٦٢، ١٠٠، ١٠١.
الرملة (La Rambla): بغرناطة ٤٩.
رندة (Ronda): ٢٠٥.
ريه: ١١٦.
رينة: ١١٧، ١١٩.
الزاوية (La zubia): ٣٦.
الزلاقة (Sagrajas): ١٢٩، ١٣٢.

سبتة (Ceuta): ١٣٠، ١٣١، ١٥٩، ١٧٨.
سرقسطة (Sarahosse): ١٠٣، ١٥٣.
السطح (عمل): ٣٦، ٤٩.
السوس: ١٩٥، ١٩٦.
شاط (Jete): ١١٥.
شربة: ١٤١.
شرق الأندلس: ٧٨، ١٠٣، ١٥٣.
شقورة (Sehura): ١٠٣، ١٠٤.
شلير (Sierra Navada): ٣٦.
شنت أقلج: ٩٣.
شنت مرية (Santa Maria): ١٠٣.
شنيلى (Genil): ٣٦.
شليش: ٩٣.
صالحة (Zalia): ١١٥.
الصحراء (Sahara): ١٩١.
صخرة حبيب: ١١٧.
صخرة دومس: ١١٦.
طرلبش: ١١٤.
طليطلة (Toléde): ٧٤، ٨٠، ٨٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٢٩،
العدوة (Maroc): ١٤٩، ١٥٠، ١٩٩.
الغربية: ١١٩.
غرناطة (Grenade): ٣٤، ٤٠، ٥١، ٦٠، ٦٣، ٧٠، ٧٢، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٢، ٩٤، ٩٧، ١٠٩، ١١٣، ١١٧، ١٣٥، ١٤١، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢.
فحص غرناطة: ٩٢، ١٨٥.
فنيانة (Finana): ٧٧، ٧٨، ١١٣.
الفونت (Alfuente): ٥١.
قاشتره: ٩٧.
قامرة: ١١٩.
قبريرة: ٧٢.
قبرة (Cabra): ٦١، ٨٢، ٨٤.
قرطبة (Cordoue): ٦٠، ٦٢، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٨٦، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥.
قرطمة (Cartama): ١١٩.
قرمونة (Carmona): ٢٠٥.
القصر (حصن): ١١٦.
قلعة أسطلير (Alcala la Real): ٩٧.
قلعة حماد: ٢٠٢.
قولجر: ٤٩.
القيروان: ٣٩، ٤٠.
لرقة (Lorca): ٦١.
لوشة (Loja): ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨٤، ٢٤٢.
ليط (Aledo): ١٠٤، ١٢٩، ١٣٦،

١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٥، ١٧٧، ٢٠٠، ٢٠٨.
مارتش (Martos): ٩٧.
مالقة (Malaga): ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٧٦، ٨٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٤١، ١٧١، ١٩٤، ١٩٦.
المدينة: ٣٥.
مراكش: ١٣٠، ٢٠٦ (وانظر مروكش)
مرسية (Murcie): ٩٨، ١٠٢، ١٠٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠، ١٧٧، ٢٤٩.
مروكش: ١٥٥، ١٩٤، ٢٠٦.
مرية بلش (Velez Malaga): ١١٦.
المشايخ: ٢٤٨.
المطمر: ٩٧.
مكناسة الزيتون: ١٤٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٦.
منت ماس: ١١٧.
المنتورى: ١١٣، ١١٤.
المنكب (Almunecars): ٦١، ٧١، ١١١، ١١٥، ١٥١، ١٩٢، ٢٤٢.
ميشش (Mijas): ١١٩.
النيبل (Nivar): ١٥٩، ٢٥٠.
نيمش: ١٢١.
وادى آش (Guadix): ٥٥، ٦١، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ١١١، ١١٢، ١٤١، ١٥٣.
اليسانة (Lucena): ١٦٣، ١٦٤، ١٧٧، ١٨١، ٢٤٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٤- فهـــــرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة
مقدمة هذه الطبعة	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
الفصل الأول	
نظرات عامة للمؤلف	
١- القواعد التى يتعين للمؤلف اتباعها	١٥
٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به.	١٧
٣- قصور القياس دون عون من الوحى	١٩
٤- ضرورة التعليم والتجربة	٢٣
٥- التكوين السياسى للمؤلف	٢٤
٦- صعوبة الإنصاف التأريخى	٢٦
٧- المصادفة وأثرها فى التأريخ، مثل المنصور	٢٧
الفصل الثانى	
الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة، أيام زاوى بن زيرى وحبوس بن ماكسن	
٨- الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور، قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دول الطوائف	٣١
٩- استقرار بنى زيرى فى إلبيرة بناء على طلب أهلها	٣٣
١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة	٣٤
١١- خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته	٣٧
١٢- رحيل زاوى بن زيرى إلى إفريقية وموته هناك مسمومًا	٣٨
١٣- إمارة حبوس بن ماكسن	٤٠
١٤- المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حباسة موت حبوس	٤١

الموضـــــــــوع | الصفحة

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس (١) من أوليتها إلى موت ابن نغرالة

١٥- أولية إمارة باديس بن حبوس وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم ٤٧
١٦- فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس ٤٩
١٧- انتصار باديس على زهير صاحب المرية ٥١
١٨- شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف ٥٢
١٩- نشاط يوسف بن نغرالة اليهودى ومؤامراته ٥٣
٢٠- موت الأمير بلكين مسمومًا ٥٦
٢١- ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع ٥٩
٢٢- استيلاء باديس على مالقة ٥٩
٢٣- علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب ألمرية ٦١
٢٤- وصول الناية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى ٦٣
٢٥- إجلاء الأمير ماكسن بن باديس ٦٤

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس (٢) من موت ابن نغرالة إلى نهايتها

٢٦- مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة، ثورة صنهاجة عليه وقتله ٦٩
٢٧- الحركة الموفقــة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صمادح ٧٤
٢٨- الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد ٧٦
٢٩- الكشف عن أمر فنيانة وفتنتها ٧٧
٣٠- استيلاء باديس على مدينة جيان ٧٩
٣١- استيلاء الناية على بياسة ٨٠
٣٢- مؤامرة ضد الناية ومقتله ٨٢
٣٣- استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة ٨٤

الموضـــــــــــوع	الصفحة
الفصل الخامس	
إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب (١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله	٩١
٣٤- رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع بن عمار	٩١
٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية	٩٣
٣٦- مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه	٩٣
٣٧- استيلاء ألفونش السادس على طليطلة	٩٨
٣٨- استيلاء ابن هود على دانية، بعض أخبار بنى هود	١٠٠
٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق، أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع	١٠٢
٤٠- عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشبيلية	١٠٤
٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته	١٠٥
الفصل السادس	
إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين	
٤٢- عزل الوزير سماجة، ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر	١٠٩
٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية، تعاقب أحداثه وحله	١١٣
٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف، ونصره إياه	١١٥
٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميت وثورة بنى تاقنوت ونهايتهما	١٢٠
الفصل السابع	
إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس، مؤلف هذا الكتاب	
(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاق ومحاصرة حصن لييط	

الموضـــــــوع	الصفحة
٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شؤون الأندلس	١٢٩
٤٧- إرسال سـفارات أندلسية إلى مـراكش، احتلال المـرابطين الجزيرة الخضراء	١٣٠
٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد	١٣٢
٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس	١٣٢
٥٠- يوسف بن تاشفين يعـقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المـعركة بدء الخلاف بين المتحالفين.	١٣٤
٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، حصار حصين لبيط	١٣٦
٥٢- محاصرة لبيط تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين	١٣٧
٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق	١٣٨
٥٤- رفع الحصار عن لبيط، تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم	١٤٠
الفصل الثامن	
إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لبيط، إجراءات دفاعية وسياسية	١٤٥
٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط مسلك قرور	١٤٥
٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل القليعى	١٤٦
٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون	١٥٠
٥٨- معاقدة عبد الله مع ألبرهانش وكيل ألفونش السادس	١٥٣
٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه	١٥٥
٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله يبرر مسلكه	١٥٧
الفصل التاسع	
إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة	
٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة	١٦٣

الموضـــــــوع	الصفحة
٦٢- قضية زناتة	١٦٥
٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة	١٦٨
٦٤- وصف الثائر نعمات وسيرته ضد عبد الله	١٧١
٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله	١٧٢
٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله	١٧٤
٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف	١٧٥
٦٨- تدخل الأمير عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد	١٧٧
٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة من قبل عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها	١٧٨
الفصل العاشر	
إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب	
(٦) استسلامه السلطان المرابطى، سجنه، إخراجه من الأندلس ونفيه	
٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه	١٨١
٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة	١٨٢
٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة	١٨٣
٧٣- لا يجد عبد الله مخرجًا إلا بالتسليم	١٨٥
٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله	١٨٧
٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى	١٩٣
٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله ونفيه	١٩٤
الفصل الحادى عشر	
عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك	
٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة	١٩٩
٧٨- حركات المرابطين على المرية	٢٠١
٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطى والمعتمد	٢٠٣
٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد.	٢٠٤

الموضـــــــوع	الصفحة
٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش	٢٠٦
٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه	٢٠٦
٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية	٢٠٩
٨٤- تأملات في تقلب الأقدار	٢١٠
الفصل الثانى عشر	
تأملات أخيرة بعد النفى	
٨٥- المؤلف والشعر	٢١٥
٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره	٢١٥
٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم	٢١٧
٨٨- آراء طبية فى الأغذية والنبيذ	٢١٩
٨٩- رجع الكلام عن التنجيم	٢٢٤
٩٠- مسائل فلكية	٢٢٧
٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب	٢٢٧
٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم	٢٢٩
٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب	٢٣٠
٩٤- تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا	٢٣١
٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده	٢٣٣
٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه	٢٣٥
٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة	٢٣٦
الملحق الأول	
منتخبات من «كتاب البيان المغرب»	
لابن عذارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله	٢٤١

الموضــــــــوع	الصفحة

الملحق الثانى

منتخبات عن «كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب

١-ترجمة عبد الله بن بلكين	٢٤٧
٢- ترجمة مقاتل بن عطية	٢٤٩
٣- ترجمة مؤمل	٢٥١
فهارس الكتاب	
١- فهرس الأعلام	٢٥٥
٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات	٢٦٠
٣- فهرس الأعلام الجغرافية	٢٦١
٤- فهرس الموضوعات	٢٦٥
٥- مراجع التحقيق	٢٧٢

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٥- مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخانجى بالقاهرة ٢٠٠١م.
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى، دار الثقافة - بيروت ١٩٩٨م.
- تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م.
- الروض المعطار للحميرى، بيروت ١٩٨٤م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى، القاهرة ١٩٥٦م وما بعدها.
- سير أعلام النبلاء للذهبى، مؤسسة الرسالة ١٩٥٢م.
- صفة جزيرة الأندلس، للحميرى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.
- قضاة الأندلس، المرقبة العليا، للنباهى، بيروت - بدون تاريخ.
- مجمع الأمثال، للميدانى، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٥م.
- معجم البلدان لياقوت، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

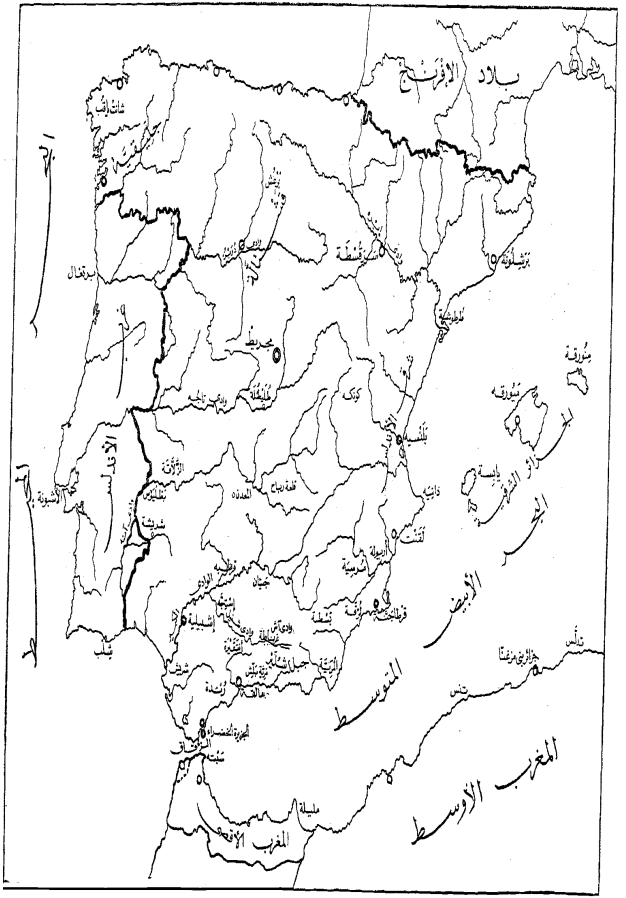

خريطة جزيرة الأندلس فى عهد ملوك الطوائف

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

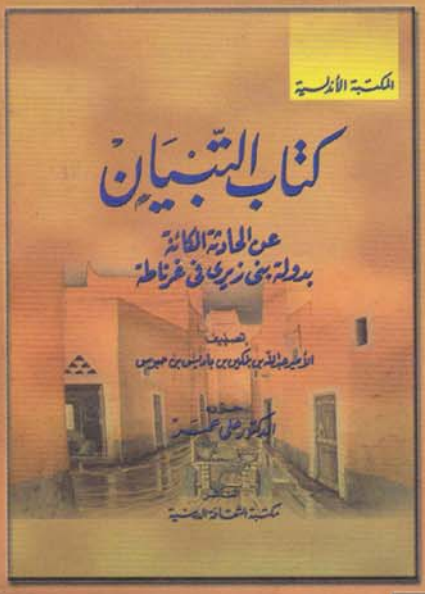

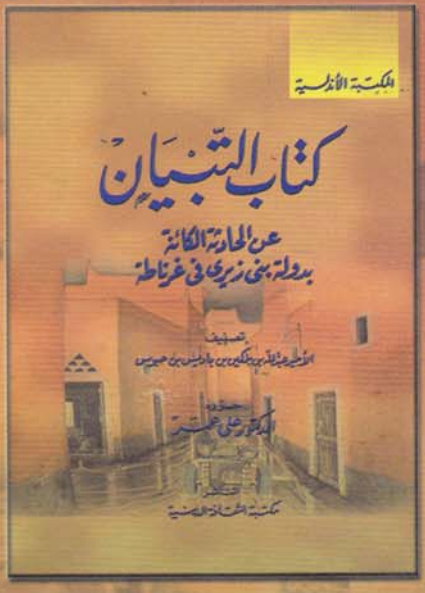

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٣١ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٥٩٢٣٦٢٠ - ٥٩٣٨٤١١
فاكس: ٥٩٣٦٢٧٨ ص.ب: ٢١ توزيع القاهرة
E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com